علم الاجتماع الإسلامي

تأليف
دكتور زيدان عبد الباقي
أستاذ علم الاجتماع بالجامعات المصرية والعربية

الطبعة الأولى

علم الاجتماع الإسلامي

تأليف
دكتور زيدان عبد الباقي
أستاذ علم الاجتماع بالجامعات المصرية والعربية

الطبعة الأولى


مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٢٩٠
ص ب ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير معلم للأمة الإسلامية ومنير طريقها إلى الصراط المستقيم ومن بعده الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ...

وبعد .. فإننى أقدم إلى قرائى الأعزاء كتابى (علم الاجتماع الإسلامى) .

والله الموفق لما يحبه ويرضاه للأمة الإسلامية والمسلمون .

المؤلف

الفصل الأول

التعريف والموضوع والأهداف

يعرف علم الاجتماع الإسلامى بأنه « علم وصفى تقريرى بنائى تركيبى تكاملى يهدف إلى دراسة شئون الحياة الاجتماعية من ظواهر ونظم وعلاقات وميكانيزمات اجتماعية من مختلف جوانبها الدينية والاجتماعية دراسة علمية تحليلية لبيان ما هو كائن وليس لبيان ماينبغى أن يكون » .

ومن هذا التعريف يمكن القول بضرورة الإعتراف بهذا الفرع الجديد كفرع ينتمى إلى بقية فروع علم الاجتماع العام مثل علم الاجتماع الحضرى أو الريفى أو التربوى أو العائلى ... الخ . صحيح أن هذا الفرع الجديد لم يذكر ضمن فروع علم الاجتماع التى حددها إميل دوركايم » أب علم الاجتماع فى أوروبا ، ولكن يؤيد وجهة نظرنا هذه أن هناك فروعا كثيرة لعلم الاجتماع أضيفت إلى تلك التى حددها دوركايم منذ عشرات السنين[1] .

موضوع علم الاجتماع الاسلامى :

تمثل فترة قيام المجتمع الإسلامى فى عهده الأول طوال أيام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ... تمثل المرحلة النشوئية للنظرية الاجتماعية الاسلامية ، فهى تمثل ما يمكن تسميته بالمقدمة التمهيدية لما أصبح يعرف حاليا بعلم الاجتماع الاسلامى . ذلك أن تلك الفترة إرتفع فيها البناء الحضارى والفكرى الإسلامى المتكامل ، الذى يضرب فى أعماقه إلى البدايات والإنطلاقات الفكرية التى إنبثقت عن طبيعة مصادر هذا الفكر ومحتوياته . فالاسلام دين حضارى ، وحضارته تختلف عن الحضارات السابقة عليه سواء فى مصر أو فى الهند والصين وبهذه الخاصية الحضارية إستطاع أن يضفى على جميع المجتمعات التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى

(1) دكتور زيدان عبد الباقى : علم الاجتماع الحضرى والمدن المصرية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٤

والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والاجتماعية ، بل والسياسية ، حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك (مادى ومعنوى) بين المسلمين فى مختلف أقطارهم وديارهم .

هذا الفكر الذى إمتدت أبعاده فيما بعد إلى جهـات عريضة تتقاسمها دراسات متشعبة ، بعضها كان ثمرة من ثمرات الرحلات العلمية بما إنطوت عليـه من مواد انثربولوجية وإثنولوجية ، وبعضها إنبثق عن الدراسات التفسيرية والاجتهادية الفقهية التشريعية التى تتناول جوهر الحياة الاجتماعية وتجيب على تساؤلاتها وتواجه متطلباتها وتتلمس الحلول لمشكلاتها ، وبعضها كان وليد التبريرات العقلية لأصحاب الفرق المذهبية والكلامية ، وبعضها كان محصلة للاتجاهات السياسية ، ونتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة . والبعض الآخر كان ينطوى على كثير من الآراء الفلسفيـة والاتجاهات الصوفية ، بل كان مادة عليـة لكثير من الجماعات الصوفية الباطنية والحركات السرية المعارضة للأوضاع الاجتماعية التى كانت قائمة فى تلك الفترة الزمنية . كل ذلك ساعد على تبلور الفكر الاجتماعى الإسلامى فى شكل نظرية اجتماعية متكاملة ، تنطوى على كثير من العناصر التجديدية وتنسب إلى الفكر الاجتماعى المسلم عبدالرحمن ابن خلدون . ذلك الذى إستخدم فى دراساته الأساليب التحليلية الوضوعية وإستبعد القيود المنطقية الأرسطية الصورية . وإستحق بذلك أن يوصف بعالم الاجتماع الأول فى العالم .

والنظام الاجتماعى الاسلامى الذى نشأ وإزدهر وإنتشر حتى عم ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، كان فى كل ذلك يستند إلى نظرية اجتماعية إسلاميـة تنطوى على العناصر التالية :

(ا) امتياز الاسلام بالصفة الانسانية :

لقد إنطوى الاسلام منذ يومه الأول على طاقة روحيـة . ولما كانت الروحية الإسلامية طاقة ديناميكية وليست إستاتيكية ، فانه يمكن القول بأن الدين الإسلامى ينطوى فى ذاته على عوامل التغير الاجتماعى الارتقائى . ولذلك فقد إنعكس التغير الاجتماعى الاسلامى على حياة الأفراد والجماعات ، وكذلك على النظم والمنظمات الاجتماعية فى كل جوانبها . ومن هنا ينطوى موضوع علم الاجتماع الإسلامى على ضرورة دراسة التغير الاجتماعى الذى أحدثه الإسلام فى الحياة العلمية وفى المعاملات

وفى النظم الاجتماعية ، بل وفى نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم، وكذلك فى تشريعات الأسرة ومختلف الجماعات الأخرى ، لاسيما وأن التغير الاجتماعى الاسلامى ، كان تغيرا جذريا يمس أساس الأوضاع فى حياة الناس ، وأنه لم يكن مستندا إلى ما جاء به الكتاب وحده ، وإنما صاحبته السنة التطبيقية التى أصبحت أيضاً منذ المراحل الأولى للإسلام مصدرا للاسترشاد والتفسير والقياس فى حياة الناس فى المجتمع .

والقواعد الإسلامية مثل غيرها من القواعد الاجتماعية لم تكن أبدا عاملة على التغير الاجتماعى الإرتقائى ، بالرغم من ثراء وعدم نضوب المعين الأصلى الذى يستمد منه المجتمع الإسلامى قوة الدفع . وإنما لأن للتاريخ دورات تتميز بالهدوء النسبى ، ولأن الديناميكية الاجتماعية الإسلامية لم تكن تستمد القوة من العقيدة وحدها، ولا من الإيمان وحده ، بل كان المجتمع الإسلامى يستند بحكم العقيدة إلى « العمل » لأنه سبحانه وتعالى يقرن العمل بالإيمان « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . » ومن هنا كان الإيمان وحده غير كاف . ولذلك لاتتحقق الديناميكية الاجتماعية أو تحقق أهدافها بغير العمل . والعمل وظيفة اجتماعية ، وإخلاص الناس فى أداء واجبات تلك الوظيفة يختلف من جيل إلى آخر طبقا لمدى قوة أو ضعف تمسك الأفراد بقواعد الدين.

والإسلام كظاهرة اجتماعية لم ينشأ قبل نشأة الإنسان ، وإنما إرتبطت نشأته بنشأة الإنسان ، ومن ثم فانه يتميز عن الظواهر التى تدرسها علوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا والجغرافيـــا . . . ولما كان المجتمع الإسلامى بمثابة مملكة صغيرة داخل مملكة الكون كله . وقد ثبت أن ظواهر مملكة الكون خاضعة لقوانين ثابتة وضرورية وصلت إليها طائفة غير يسيرة من العلوم الوضعية الجزئية ، فإنه ليس ما يمنع من تطبيق هذا المبدأ على مملكة الإنسان ، بمعنى أن ما يكون صحيحا بالنسبة للكل يكون صحيحا بالنسبة للجزء . وبالتالى فإن الظواهر الاجتماعية تكون خاضعة لقوانين شأن ظواهر العلوم الأخرى والبحث عن هذه القوانين فى المجتمع الاسلامى ودراستها ينبغى أن يكون موضوعا لفرع مستقل من فروع علم الاجتماع هو علم الاجتماع الاسلامى .

(ب) إمتياز الاسلام بالعمومية الاجتماعية :

وكان الإسلام — أيضا — منذ يومه الأول دينا ينطوى فى ذاته على العمومية . وتلك العمومية من أهم خصائص الظواهر الاجتماعية ، فقد كان الإسلام دين « دعوة» أى دينا تبشيريا له رسالة يجب على المسلم أن يبلغها ، وأن يبشر بها غير المسلمين . وهو من هذه الناحية يختلف عن ديانات أخرى سماوية مثل اليهودية التى لم يعن أصحابها بنشرها بين الناس ، وإن كانوا هم قد إنتشروا فى الأرض محتفظين بعقيدتهم لأنفسهم. وقد يكون من المفيد هنا الإشارة إلى أن العصر الذى أرسل فيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ليكون بشيرا ونذيرا بين الناس ، كان من أنسب العصور ليتقبل الناس فكرة « العمومية » . ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين بالرسالة الانسانية الكاملة ، بل كان أنسب العصور ليتم فيه على الناس نعمة الدين فى عموميته . ذلك أن فكرة العمومية أو العالمية التى لم تكن موجودة فى عهد أنبياء بنى إسرائيل ، كانت صورتها الأولى قد إكتملت قبيل ظهور الإسلام ، عندما اتصلت حضارات الشرق الأوسط بحضارات الهند والصين . وكانت حالة الشعوب واتصالاتها قد أهلتها لأن تتلقى الرسالة الإلهية التى فرضت على أصحابها أن يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا . وكان ذلك من أهم الأسباب التى مهدت لعمومية الرسالة أن تنتشر على نطاق لم يتحقق لغيرها من الرسالات من حيث إتساع الرقعة الجغرافية فى العالم القديم. وهذا يؤكد أن فكرة « الدعوة » فى الإسلام قد واتتها ظروف « الإنتشار » فى النطاق العالمى ، ومن ثم فقد مكنت الإسلام ذاته من أن ينشر طابعه الاجتماعى كعقيدة وكنمط للحياة الاجتماعية فى جانبيها المادى والمعنوى .

والجديد فى الدين الإسلامى منذ نشأته هو العمل على التحول الشامل بكل أجزاء المجتمع ، مع إخضاع الجماعات البشرية إلى نظام موحد والإرتفاع عن مستوى المتناقضات السلالية والعنصرية « كلكم لآدم وآدم من تراب » ففى إطار الوحدة الدينية يمكن أن تتعدد العادات وتتنوع التقاليد ويمكن أن نجد أجناسا ولهجات وسلالات وطبائع مختلفة تربطها ديانة واحدة . أى أن الغاية المثلى من هذا الدين هى الإنتقال من المراحل الجزئية إلى مراحل التجانس والإطار الفكرى للوحدة الذى يمكن أن تزدهر فى ظلاله مختلف الآراء مهما تنوعت وتباينت .

فالدين الذى أدخله القرآن الكريم هو فى الواقع دليل عمل وطريق وأسلوب لإحداث التغير الاجتماعى والإرتقاء بالجماعات البشرية . وبالتالى فإن هذا الكتاب المقدس يقف على قمة الأدوات الرئيسية للتغير الاجتماعى الإرتقائى وبالتالى فإن المجتمع الإسلامى يتميز على بقية المجتمعات غير الاسلامية بتلك العلاقة السامية التى تربطهم بكتابهم المقدس الذى ينطوى على ثورة اجتماعية إرتقائية لامثيل لها على الإطلاق .

والذى يؤكد عمومية الدين الإسلامى أيضا أن الاسلام جاء عاما — حق — لأصحاب الديانات السماوية السابقة ، فالاسلام فى لغة القرآن ليس إسما لدين خاص ، وإنما هو إسم للدين العام الذى هتف به كل الأنبياء ، وإنتسب إليه كل الأنبياء ومن تبعهم ، هكذا رأينا نوحا يقول لقومه «وأمرت أن أكون من المسلمين» (٧٢ — يونس) وأوصى يعقوب بنيه « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (١٣٢ — البقرة) وإستمع يعقوب إلى بنيه يقولون « نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » (١٣٣ — البقرة) وقال موسى لقومه « ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » (٨٤ — يونس) وقال الحواريون لعيسى « آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون » (٥٢ — آل عمران) كما أن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن « قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » (٥٣ — القصص) وبصفة عامة نجد الاسلام شعارا عاما يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية ، ثم نرى أن القرآن الكريم يجمع مختلف هذه القضايا فى قضية واحده ، يوجهها إلى محمد وقومه ، موضحا لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديدا ، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم لقوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١٣ — الشورى) وكذلك نراه علاوة على ذلك يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم بنظمهم فى سلك واحد ، ويجعل منهم جميعا أمة واحدة لها إله واحد ، كما أن لها شريعة واحدة لقوله جل شأنه « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٦٢ — الأنبياء) .

وإذا كان الدين يعرف بأنه « مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها نبى من الأنبياء أو التى أستنبطت مما جاء به » فإن هذا التعريف ينطبق على الدين الاسلامى . غير أن

الدين الاسلامى يتفوق على كل الأديان الأرضية والسماوية كافة ، لقوله تعـالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولـكن أكثر الناس لايعلمون » (٢٨ ـ سبأ) ومن ثم نطلق عليه بكل إطمئنان « الدين العام » أو الدين الذى يتميز بصفة العمومية ، باعتباره دين كل الأنبياء والمرسلين . فالذى يقرأ القرآن الـكريم يعرف كنه الدين الإسلامى ، إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين فى خضوع خالص لايشوبه شرك ، وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى زمان أو مكان ، دون تمرد على حكمه ، ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه ، أو بين رسول ورسول من رسله . والقرآن الـكريم يؤكد ذلك فى قوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » (٥ ـ البنية) وكذلك قوله تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٣٦ ـ البقرة) ... إلى آخر ما يؤكد عمومية الدين الإسلامى .

(ج) إمتياز الاسلام بالجاذبية الاجتماعية:

وترجع جاذبية الدين الاسلامى إلى « بساطته » وبعده كعقيدة وكنظام اجتماعى عن التعقيد . وهو فى الوقت ذاته دينا « مباشرا » يتصل فيه العبد بخالقه دون وساطات كهنية أو كنسية . والبساطة فى هذه العقيدة تشمل مختلف العبادات والمعاملات . وما نظن دينا يطلب إلى الفرد شهادة أبسط من شهادة الإسلام فى عمقها وجلالها « لا إله إلا الله ، سيدنا محمد رسول الله » وقد نزل الإسلام بهذه الشهادة التى تصوغ أعمق فـكرة بأبسط عبارة ، كما نزل بآيات محـكمات وتشريعات ، تـكفلها سنة قائمة على البساطة البعيدة عن كل تعقيد أو تركيب . ومن هنا كان الموقف على عتبة الإسلام موقفا « ميسورا وجذابا » ولا غرو فى ذلك ، فقد كانت القاعدة الثابتة لدى من يبشر بالإسلام أن الدين يسر لاعسر . ومن هنا كان الاطمئنان الروحى والفـكرى أول ما يستشعره من يدخل فى دين الله وإسلامه ، لاسيما وأن إعتناق العقيدة الجديدة كان من الضرورى أن يأتى مباشرة ودون وساطة أو وكالة عن طريق كاهن أو كنيسة . وأن التـكليف فى الإسلام كان فرديا ، وإن روعيت فيه ظروف الفرد والنفس البشرية . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الجاذبية المستمدة

من البساطة قد يسرت إنتشار الإسلام ومهدت لاحتفاظه بطابعه الاجتماعي الموحد (ولو من الناحيتين الروحية والدينية) إلا أنها لم تنته بالضرورة إلى ذلك القدر من (المرونة) الذى قد يشوه التطبيق. ويرجع ذلك إلى أن القرآن كوعاء العقيدة حفظها على مر العصور ، وأضفى عليها صفة العمومية ، ولم يسمح للبساطة أن تنقلب إلى مرونة مشوهة .

ولقد وصف « دوركايم » الظواهر الاجتماعية مثل الدين ــ وهو فى معرض الرد على منتقديه بالنسبة لصفة « الجبر أو الإلزام » فى الظواهر الاجتماعية بأنها تفرض نفسها علينا ، ولكننا نتمسك بها طوعا فى نفس الوقت . فهى تجبرنا ولكننا نتعلق بأهدابها ، وهى تقهرنا على بعض الأمور ، فنجد أن منفعتنا تنحصر فى تأدية هذه الظواهر لوظيفتها وفى هذا القهر نفسه[1]. ومن هنا إشتق « بوجليه » صفة الجاذبية وإعتبرها من أهم خصائص الظاهرة الاجتماعية . وهذه الجاذبية على نوعين :

١ ــ جاذبية شعورية كلها الحماسة تتردد من وقت لآخر فى مناسبات معينة حيث يشعر الأفراد أنهم يتداخلون وتشتد وحدتهم فى مجتمعهم فيقبلون عليه

ونجد هذا عادة فى الأعياد والمواسم الدينية والوطنية ؛ فهى مناسبات تسود فيها البهجة ، فيتأكد ترابطهم وتتجسد الروح الاجتماعية بينهم ... وهذه الجاذبية الشعورية قد تكون محزنة مثل ذكرى الكوارث التى حلت بالمجتمعات الإسلامية ، ولذلك فهى تربط بين المسلمين برباط ألم ولكنه أيضاً متين .

٢ ــ جاذبية هادئة ، وهى جاذبية لا يسودها الشعور ؛ وإنما يدعمها العقل والإقتناع لأن المجتمع ونظمه لهما الفضل على الأفراد من حيث أنه يورثهم تراثه الروحى من علوم وفنون وعادات وأعراف وتقاليد ؛ وبهذا يتميز الإنسان على الحيوان ؛ ويتميز كذلك نوع وجوده الاجتماعى من جهة . ومن جهة أخرى يتأكد السمو الإنسانى فى نفوس الأفراد بانتمائهم إلى حضارة المجتمع . ولهذا يشعر الأفراد فى داخلية

---

(1) Les faits Social nous obligent et nous les aiment; elles nous Contraigent et nous travons notre Compte à leur fonctionnement et à Cette Contrainte même .

نفوسهم بفضل المجتمع ؛ وبأنهم يمثلون أرقى أنواع الحياة بين سائر المخلوقات في الكون. وهذا مايدعو الفرد دائما إلى أن يتمثل المجتمع وتراثه في ذاته. وهذا مايذكرهم ويقوى في نفوسهم محبتهم له وإنجذابهم إليه.

هـذا وتبدو تلك الجاذبية واضحة في الربط بين الضرورتين الدينية والاجتماعية باعتبارهما من الضرورات الأساسية لحياة الإنسان. ذلك أن الإنسان بالضرورة حيوان مدنى أو اجتماعى، بمعنى أن الإنسان اجتماعى بطبعه، والإنسان الفرد في الكون ليس له وجود. وكذلك يوصف الانسان بأنه حيوان متدين، بمعنى أن كل انسان ـ وهذا الانسان يعيش في جماعة وطبقا للضرورة السابقة ـ من الضرورى أن يكون متدينا. وفى هـذا قال هنرى برجسون «لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولـكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة[1]» ومن ثم يمكن القول بأن الانسان متدين بالطبع، وأن الطبيعة الدينية جزء من طبيعته الـكلية التى لاتنفصم عنه ولاينفصم عنها فالدين ضرورة للانسان.

ولولا جاذبية الدين ما استطاع الانسان أن يوفق بين هاتين الضرورتين، الأولى منهما تتميز بالثبات وعدم التغير، والثانية تتميز بالتغير والتطور. بمعنى أن الانسان بمقتضى جاذبية الدين إلى نفسه إستطاع أن يواجه عالما جديدا ومتغيرا ومتطورا بالإسلام كدين أزلى من عند الله جاء به الوحى، ولايقبل التغيير والتبديل.

ولـكن كيف قابل الانسان ما هو أزلى (الدين) بما هو متغير (المجتمع) ؟. كيف تحقق ذلك والإسلام وليد القرن السابع الميلادى، حيث كان يخاطب الفرد ـ عندما جاء ـ بالمفاهيم السائدة والملائمة لظروفه الاجتماعية وبما يتفق مع الوحى والنبوة. وها هو يخاطب الفرد المسلم وغير المسلم في الربع الثالث من القرن العشرين بمفاهيم متغيرة متجددة عن تلك التى كانت سائدة في القرن السابع الميلادى . . . إن كل ذلك يرجع إلى مرونة الدين وجاذبيته.

وترجع تلك الجاذبية إلى أن «الإسلام ـ كما يقول الدكتور على حسن عبد القادر ـ

---

(1) **Bergson, H. : Les Deux sources de la Morale et de le Religion. Paris, P. 105 .**

لايفرق بين الدين والمجتمع، إذ الواقع أن طريق الإسلام ليس طريقا دينيا بالمعنى التقليدى فحسب، ولكنه طريق حقيقة وعقيدة، شريعة وحضارة، طريقه الأزلى، طريق الحقيقة الإلهية، وطريقه التاريخى طريق خلق حياتى متجدد ... فالإسلام عقيدة إلهية وسنة حياتية. والاقتصاديات والاجتماعيات والتشريعات وسائل لإبلاغ الناس السنة الحياتية، وما ينبغى أن ترتقى إليه من كمال، لتكون مرحمة إلهية، بقدر ما تكون رحمة إنسانية. ولذلك لجأ العلماء إلى طرق مصنوعة يمكن بها التفسير للقرآن إلى حد يكون به أصلا لكل سنة أو عادة أو رأى فقهى[1] » . . . أى أن جاذبية الدين الاسلامى ترجع إلى رفضه لأى تغيير أو تعديل فى أصوله، وترحيبه بكل تعديل فى الجزئيات والفرعيات يتفق مع صالح الناس . . وفى هذا يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق . لقد بعث الله محمدا بدين وشريعة . . . أما الدين فقد إستوفاه الله كله فى كتابه الكريم، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه، وأما الشريعة فقد إستوفى أصولها، ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها[2] » وأكد القرآن تلك الحقيقة فى قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا » (٥ - المائدة) . وهذا التكامل والتمام الدينى من عوامل الجاذبية ولا ريب.

(د) إمتياز الدين الاسلامى بالموضوعية :

إمتاز الدين الإسلامى على غيره بالبعد عن الجمود وبالدعوة إلى الاجتهاد، فهو دين رحب يقبل الاجتهاد، بل ويدعو إليه فى حدود أصول العقيدة . كما كان إلى جانب ذلك دينا يدعوا إلى سبيل العقل كما يدعو إلى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر والمعرفة أساسا من أسس الدعوة الإسلامية . وكان التفتح العقلى البصير مفتاحا للدعوة الاجتماعية للموضوعية فى الاسلام . ذلك أنه عندما خرج المسلمون من بلادهم، ووقفوا على حضارات أخرى مجاورة لم يجانبوها لمجرد أنها حضارات سابقة على عهد الرسالة، وإنما أخذوا منها ما وجدوا فيه الخير وما لم يتعارض مع

---

(١) الدكتور على حسن عبد القادر : مقال بعنوان « ليس بالتقليد أو التلفيق » نشر بأهرام الجمعة الموافق ٢٣/٤/١٩٧٦

(٢) الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. القاهرة، صفحة ٢٧٠

خطوط العقيدة الجديدة . كما أن الاسلام وقد جاء فى بيئته الأولى ختاما لرسالات السماء قد أعاد للفكر التوحيدى فى المشرق القريب أصالته ، وإستطاع بهذه الإعادة أن يجلى بعض معالم الفكر الاجتماعى الإسلامى فى تلك المنطقة ، وأن ينطلق به إلى الشرق والغرب ، ومن فوق الأرض وإلى ما وراء البحار ، وكان الإسلام فى ذلك كله باحثا ومنقبا ومجليا للفكر الاجتماعى بصورته الإنسانية .

ومن الضرورى على الباحث هنا أن يكون موضوعيا ، بمعنى أن عالم الاجتماع الاسلامى حينما يدرس — بداءة — بعض ظواهر أو تيارات أو نظم المجتمع يتعين عليه ، أن يتخذ موقفا يماثل موقف عالم الطبيعى ، الذى يفترض أنه يرتاد ميدانا غير معروف وغير مكتشف ، لاسيما وأن هذه الظواهر والتيارات والنظم الاجتماعية لها وجود خاص خارج شعور الفرد ، لأنها ليست من صنعه ، بل هو يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه ، بمعنى أنها ليست وليدة التفكير الذاتى ، بل الأولى أن يقال بأنها هى التى تشكل هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس إلى حد كبير أو قليل ، طبقاً لدرجة التقدم التى وصل إليها المجتمع .

وما دامت تلك الظواهر والتيارات والنظم الاجتماعية موضوعية على هذا النحو فإنها تصبح مثل الأشياء Comme des choses وهى الخاصية التى أقام عليها دور كايم علم الاجتماع . والمقصود « بالشيء » هنا هو ما يقابل « الفكرة » بمعنى أن معرفتنا لها تأتى من الخارج ، والشيء هو ما يصلح أن يكون مادة للمعرفة ، ولكن بشرط أن تسمح له طبيعته بالإندماج فى العقل الذى يدركه . ومن ثم فليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها « أشياء » هو أننا ندخل الظواهر فى طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية بل معنى ذلك أننا نسلك حيالها مسلكا عقليا خالصا ، وقد تمسكنا بالمبدأ الآتى « وهو أننا نجهل كل شيء عن حقيقتها ، وأننا لانستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التى تخضع لها عن طريق الاستبطان Introspection مهما بلغت هذه الطريقة مبلغا كبيرا من الدقة .

وما دامت الظواهر الاجتماعية من المنظور الاسلامى موضوعية وشيئية ، فإنها تصبح بمثابة « أشياء خارجية » بالنسبة لشعور الأفراد[1] . فوجود الأفراد ضرورى لوجود

---

(1) Les Phenomens Socianx Comme exterieures aux Individus .

المجتمع . ومع ذلك يبـــدو للعامة من الناس أنه ليس من الميسور أن تحتل الحياة الاجتماعية مكاناً آخر غير شعور الأفراد، وإلا بدت معلقة فى الهواء أو سابحة فى الفضاء. وأنه لما كانت سيولة الماء وخواصه، غذائية أو غير غذائية لاتوجد فى كل من الأوكسجين أو الإيدروجين على حدة، وإنما توجد فى المادة التى تنشأ بسبب إتحاد هذين الغازين، فإنه يمكننا تطبيق تلك القاعدة فى مجال علم الاجتماع الإسلامى.

فإذا سلم الناس بأن هذا المركب الفريد فى جنسه، الذى يتكون منه كل مجتمع يؤدى إلى وجود بعض الظواهر الجديدة التى تختلف فى طبيعتها عن الظواهر النفسية التى تمر بشعور الأفراد، كل منهم على حدة. وحينئذ فإنه من الضرورى التسليم أيضاً بأن هذا النوع الجديد من الظواهر لايوجد فى أجزاء المجتمع، ونعنى به أفراده، وإنما يوجد فى نفس المجتمع للذى أوجدها. وبناء على ذلك فإن هذه الظواهر تصبح خارج شعور الأفراد حالة تفرقهم.

ويقصد دوركايم بالصفة « الخارجية » وجود هذه الظواهر فى اللغة، الدين، الاقتصاد، والقانون .. ودوامها من جيل إلى آخر، وعدم تأثرها بتغير الأفراد وذلك لكونها مستمرة وبشكل معين ويولد الأفراد ليجدوها سابقة على مولدهم ويعرفونها ويأخذون بها عن طريق التعلم والتنشئة الاجتماعية. ويستدل دوركايم على خارجية الظواهر بثلاثة شواهد هى :

١ — أنها مسطورة وأغلبها مدون وله كتب ودساتير وقوانين موضوعه تحدد وتثبت وجودها الواقعى، وهذا نجده مثلا فى الدين، السياسة، اللغة . . . ذلك أن للدين كتبا منزلة وللسياسة دستورا، وللغة قواعد وآداب .. الخ.

٢ — بعضها محفوظ ومعروف ويتحقق عمليا. وهذا واضح فى أمر العادات والأعراف والتقاليد التى لها مناسبات معينة تظهر فيها بشكل واضح مثل الأعياد والمواسم .. الخ

٣ — أن بعضها موجات فعلية تظهر فى المجتمع مثل الإقبال على الإنتحار والزواج والطلاق أو الإكثار من الإنسال أو إنتشار الإجرام .. ويمكن تحديد هذه الموجات تحديدا إحصائيا.

والإسلام كظاهرة اجتماعية لم ينتشر كديانة فحسب ، بل كأسلوب فكرى ، فقد حوى المصدر المقدس لهذا الدين وهو القرآن الكريم مبادىء مرنة وطيعة، القصد منها هدف الاستمرارية عن طريق الملاءمة المستمرة للظروف البيئة والنسبية الاجتماعية والإستمرارية الوظيفية وخطوات العمل التجديدى والأسلوب العلمى. ومن الضرورى فى تفكيرنا من خلال علم الاجتماع الاسلامى ألا ننزع عن الملابسات الواقعية والأحداث التى إرتبطت بها الفكرة وإلا كنا ميتافيزيقيين وغير موضوعيين، ذلك أننا ـ فى الواقع ـ عشنا فى ظل إطارات فلسفية سابقة ، إتخذت من اللاتغير منطلقا لها ، على حين أن التغير هو الحقيقة ، والتغير مع الانطلاق يمثلان الحياة فالجسم المتحرك هو الذى ينمو ويسمع ويرى ويتطور ، بينما الثبات والجمود والغموض قضايا نابعة بصفة أساسية من فلسفات ميتافيزيقية خاطئة .

وإذا تساءلنا عما إذا كان الفكر الاجتماعى الاسلامى فكر تيولوجى فحسب؟ ، فإن إجابتنا على هذا التساؤل تقوم على النفى، على إعتبار أن الفكر الاسلامى أسلوب تغيرى ودليل عمل حركى يهدف إلى الإنتقال من سمة حضارية إلى أخرى أكثر منها رقيا وتقدما . وهو مرشد أيضا يلتزم بمدفوعات اجتماعية معينة ، وهو يأخذ طبيعة المظهر المقدس . ولذلك فإن القرآن الكريم فى المجتمع ـ من وجهة نظر علم الاجتماع الاسلامى ـ ضرورة اجتماعية ، بمعنى أنه لو لم يشر الله سبحانه وتعالى إلى قدسية هذا الكتاب لوضعه المجتمع موضع التقديس كمنارة تهديه إلى سواء السبيل .

والإسلام فوق ما إشتمل عليه من مبادىء خلقية سامية ، هو فى ذاته دين العقل ، فما من أمر جاء به إلا كان موافقا للعقل ، يدركه ويصدقه ويذعن له ما دام غير معتكر بهوى غالب أو شهوات مسيطرة ، فعقيدته وهى الوحدانية لله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى خلقه وإبداعه أمر هو حكم العقل المستقيم حام حوله الفلاسفة الأقدمون ، وليس فى إدراك تلك الوحدانية صعوبات تعرقل العقل أو تعنته ، بل إنها واضحة غير معقدة ، يصل إليها العقل إذا خلا من الأوهام ولم يرتكس فى الوثنية أو المادية ، كما جرى على ألسنة بعض الذين لايدركون حقائق هذا الوجود ، إذ قال قائلهم إنه قد إرتفع إلى الفضاء ولم يجد الله هناك فدل بذلك على ضعف العقل والفكر، إذ حسب أن الله تعالى فى المادة التى لايؤمن إلا بها ، وأنه متربع فى السماء ، وذلك من سيطرة المادية الجموح .

إن كل ما فى الإسلام من مبادىء سواء أكانت تتعلق بالعقيدة أم كانت مبادىء تتعلق بالأخلاق أو التعظيم يتفق تمام الإتفاق مع العقل ، حتى أن إعرابيا سئل : لماذا آمنت بمحمد ؟ فأجاب : ما رأيت محمدا قط يقول فى أمر : إفعل ويقول العقل :لاتفعل. وما رأيت محمدا يقول فى أمر لاتفعل ، والعقل يقول : إفعل .

وإن النظم الاجتماعية التى سنها الإسلام لاتزال بروتقها وصفائها أعدل من كل ما إهتدى إليه العقل البشرى من نظم ، سواء أكان ذلك فى نظام الحكم أم فى نظام المعاملات المالية أم فى نظـــام الأسرة ، أم كان فى الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص وتعزيز .

ويؤكد القرآن الكريم موضوعية الدين الإسلامى بقيام العقيدة الإسلامية على طابع الإنصاف والتبصير الذى يقتضى الدين الاسلامى من كل مسلم ألا يقبل جزافا ، ولا ينكر جزافا ، وإنما يطالبه بإعمال عقله ، وبأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة فى قبوله ورده ، ليس خاصا بموقفها من الديانات السماوية الأخرى ، بل هو شأنه أمام كل رأى أو عقيدة ، وكل شريعة أو مله،حتى الديانات الأرضية أو الوثنية يتناولها القرآن بالتحليل والشرح والتفسير ، ويشير باستبقاء ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة أو ينمى ما فيها من عناصر الشر والبدعة . ومع ذلك فقد قال البعض إن الأديان السماوية يهدم الأخير منها كل ما يسبقه ، الأمر يبعدها جميعا عن الموضوعية ، فالمحمدية تهدم المسيحية والمسيحية تهدم الموسوية .

وينسى هؤلاء وأولئك أن القرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل ، وكل كتاب ينزل ، قد جاء مصدقا ومؤكدا لما قبله ، فالقرآن الكريم مصدق ومؤيد للانجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب ، والإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة ، لقوله تعالى « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ — المائدة) ولم

يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره ، لقوله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١ ـ آل عمران) .

بيد أن الظاهر يؤكد أن الإنجيل أتى بتعديل لبعض قواعد التوراة ، إذ أعلن المسيح أنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم لقوله تعالى « .. ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » (٥٠ ـ آل عمران) وبالمثل جاء القرآن بتعديل بعض قواعد الانجيل والتوراة ، بدليل ما أعلن من أن محمدا قد جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، لقوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١٥٧ ـ الأعراف) ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك ليس نقدا من المتأخر للمتقدم ، وإنما ـ كما هو من المعروف أن علم الاجتماع علم نسبى ، فإن تلك القواعد كانت تتناسب مع مجتمع الموسوية ، ولكنها نتيجة التطورات الاجتماعية أصبحت تحتاج إلى تعديل فى المجتمع المسيحى ، وكذلك الحال بالنسبة للتغيرات الاجتماعية أصبحت تحتاج إلى تعديل فى المجتمع المحمدى . وذلك مع الاعتراف الضمنى من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه . وذلك تصديقا لقوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » (١٠٦ ـ البقرة) والدين الإسلامى هنا ينطوى على نوعين من التشريعات ، إحداها خالدة لا تقبل التبديل بتبدل الأصقاع والأزمان ، والأخرى موقوتة بآجال طويلة أو قصيرة ، كثيراً ما تنتهى بانتهاء وقتها .

وبدون هذين النوعين من الأصول فى الشريعة الإسلامية ما تحققت سعادة المجتمع البشرى ، وهما عنصرا الإستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها ، وعنصر الإنشاء

والتجديد ، الذى يمد الحاضر للتطور والرقى إتجاها إلى مستقبل أفضل وأكثر تكاملا . ولعل ذلك يبدو واضحا فى الجوانب السلوكية ، فقد عنيت التوراة بوضع المبادىء الأولية لأنماط السلوك مثل « لا تقتل ، لا تسرق ... الخ » والطابع البارز الذى يبدو فيها هو تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بين الناس فى المجتمع ، بينما تقرر شريعة المسيح التى جاءت بعدها هذه المبادىء الأخلاقية وتؤكدها ، ثم تترقى فتزيد عليها آدابا تزيدها تكاملا مثل « لا تراء الناس بفعل الخير ، أحسن إلى من أساء إليك » أو « من ضربك على خدك الأيسر ، أدر له خدك الأيمن » ويتضح التكامل هنا فى الجمع بين التسامح والرحمة والإحسان والإيثار . على حين أن شريعة القرآن تقرر المبدأين كليهما فى نسق System واحد ، يتضح من قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (٩٠ ـ النحل) مقدرة لكل منهما وزنه فى كفتى القيم الأدبية ، مميزة بين الأفضل والفاضل ، تصديقاً لقوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٤٠ ـ الشورى) وكذلك قوله جل شأنه « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١٢٦ ـ النحل) .

وتنطوى كل من سورة النور وسورة الحجرات وسورة المجادلة على إضافات متعددة ومتكاملة فيما يتصل بقوانين آداب اللياقة ، كما رسم هذه السور أنماطا عديدة للسلوك الكريم فى المجتمعات المتحضرة ، مثل أساليب التحية والإستئذان ، والمجالسة والمخاطبة وما إلى ذلك .

وعلى ذلك فإن علم الاجتماع الإسلامى لا ينتمى إلى عالم التصورات فحسب ، وإنما إلى عالم الواقع ، ذلك أن الأشياء ، تختلف عن الأفكار التصورية تماما ، كما تختلف المعرفة التى نكتسبها من الخارج عن معرفتنا الداخلية بالأشياء . ذلك أن « الأشياء » كما يرى دور كايم تتضمن كافة موضوعات المعرفة التى يتعذر إدراكها بالنشاط العقلى الخالص ، والتى يتطلب تصورها بيانات خارجة عن العقل ، لا يمكن الحصول عليها بدون الملاحظات والتجارب أى تلك التى يمكن تكوينها من السمات الخارجية المباشرة للنواحى الاجتماعية مثل الولاء الدينى ، المكانة الروحية ، معدل الانتحار ، والمهنة والحالة الاقتصادية وما إلى ذلك[١].

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : التفكير الاجتماعى ، نشأته وتطوره . الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٦ صفحة ٢٩٤

(٥) إمتياز الاسلام بالالزام الاجتماعى :

تتميز العاطفة الدينية بقوتها الضاغطة لأنها موضوعية ، بمعنى أن خاصية القهر أو الإلزام الدينى تترتب على خاصية الموضوعية . فالظاهرة الدينية كظاهرة إجتماعية عبارة عن ضروب من الشعور أو السلوك الذى يوجد خارج ضمير الفرد ؛ ومن الضرورى أن يفرض نفسه على شعوره وسلوكه ؛ وإن كان الفرد — فى الواقع والحقيقه — لايشعر فى كثير من الأحيان بهـذا القهر لاستجابته له بحسب العادة . ويضاف إلى ذلك لاسيما بالنسبة للدين الإسلامى أنه دين للآخرة وللدنيا فى آن واحد ، بصورة تختلف عن غيره من الأديان والعقائد التى ينبع بعضها من ماديات الحياة ثم يضفى عليها مسحة من العبادة أو الفلسفة السطحية ، وينبع بعضها الآخر من منابع الروحانيات التجديدية التى بقيت منفصمة عن معاملات الحياة الواقعية . وقد ترتب على ما اتصف به الإسلام من جمع بين الروح والمادة ، أنه أصبح دينا حيا يلائم الحياة مهما إختلفت ظروفها البيئية أو التاريخية . وذلك فضلا عن إلتصاق الإسلام بالحياة الإجتماعية فى مفهومها الحقيق وصورتها الواقعية بدرجة كبيرة . وفى الوقت ذاته أصبحت العقيدة الإسلامية على اتصال بالبناء الاجتماعى بجانبيه المادى والمعنوى . ومن هنا فإن القهر أو الإلزام بصورته الإسلامية هو قهر أو إلزام اجتماعى ، أى قهر لا يشعر به المسلم ، كما لايشعر الإنسان بعامود الضغط الجوى الذى يبلغ طوله ٧٦ سنتيمتر زئبق والذى يحمله الإنسان على رأسه طوال حياته .

ويؤكد دوكايم أنه خاصية « القهر أو الإلزام » ليست فـكرة ميتافيزيقية كخاصية المحاكاة التى حاول « تارد » تفسير الظاهرة الاجتماعية بها ، وأنما هى إحدى خواص الظواهر الاجتماعية التى تبدو له أكثر ملاءمة لتحديد طبيعة تلك الظواهر . ذلك أنه من الخطأ البالغ أن نفسر ظاهرة اجتماعية معينة باعتبارها نتاجا مباشراً للعمليات النفسية الفردية . وليس من شك فى أن مصدر الالتزامات الاجتماعية العـديدة يكمن خارج نطاق الفرد ذاته ؛ فطاعة الأبناء للآباء ، والحب ، والتدين والولاء للازواج وما إلى ذلك من العواطف التى تنشأ من الحياة الاجتماعية ، ليست أسبابا للظواهر الاجتماعية كما قد تبدو للبعض ، ولـكنها فى الواقع نتائج مصاحبة للضغوط التى تمارسها تلك الظواهر على الشعور الفردى . ومعنى ذلك كله أن الحياة الجمعية مستقلة عن حياة الفرد الخاصة . ولعل ذلك هو الذى أدى بدوركايم إلى الاعتقاد بأنه « يتعين أن نبحث عن السبب المحدد للظاهرة الاجتماعية بين الظواهر الاجتماعية السابقة عليها ، وليس بين حالات الشعور الفردى » .

وليست جميع الظواهر الاجتماعية سواء فى قوة القهر . ومع ذلك فإذا إختلف هذا القهر شدة أو ضعفا فهو موجود دائما ، ولو لم يشعر المرء به حين يستسلم له . هذا ولا توجد خاصيتا الموضوعية والقهر فى الظواهر الاجتماعية التامة التكوين فحسب مثل: اللغة ، الدين ، الاقتصاد ، القانون ، والأخلاق ... وإنما توجد أيضا فى الظواهر التى لم تتبلور بعد ، والتى يطلق عليها إسم التيارات الاجتماعية ، وموجات الحماسة أو السخط أو الشفقة التى تحتاج إليها إحدى الجماعات فى ظروف عارضة ، وكأنماط الأزياء التى تتبدل من موسم إلى آخر . فإن هذه التيارات ليست وليدة التفكير الذاتى وإذا بدت أنها غير قاهرة فليس الأمر كذلك إلا بحسب الظاهر . ويكفى للتأكيد على وجود القهر أن يتصدى الفرد لمقاومة مثل هذه التيارات .

وعلى ذلك يهتم علم الاجتماع الإسلامى بضرورة دراسة المؤثرات المختلفة على الفكر باسم « الدين » فالعملية التخويفية للفكر وسجنه وحبسه فى إطارات ومحددات ثقافية غير قابلة للحركة ولا للملاءمة الحضارية ، لابد وأن نبحث عن أسبابها ومصادرها والقوة المبقية عليها . ولا شك أنه من شأن هذه المحاولة الفكرية أن تبرز موقف الإسلام من قضية الحريات بصفة عامة وما إلى ذلك من مختلف القضايا الفكرية . كما أنها تظهر ما إذا كان لعلم الاجتماع الإسلامى أساساً منهجيا متميزا عن بقية فروع علم الاجتماع العام أم لا؟ وبعبارة أخرى : ما هو موقع علم الاجتماع الإسلامى من الفروع الأخرى لعلم الاجتماع العام ؟ وهل تتوافر له خصائص متميزة ، ومنهاج متميز بمراحل وأدوات مميزة ؟

إن هذا الكتاب ليس إلا محاولة للاجابة على هذه التساؤلات .

هـ ـ إمتياز الاسلام بالترابط الاجتماعى :

الإسلام بطبيعته دين « وصل » بين الناس ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم تاجرا ولم يكن صاحب حرفة أو مهنة أخرى مما يفصل صاحبها عن المجتمع . أو يجعله فى جانب خاص أو ضمن فئة منعزلة عن الناس . والتجارة تنطوى من وجهة نظر الإسلام على ثلاثة أرباع الرزق . ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان للتجارة دور كبير فى إنتشار الدين ، حيث حمل التجار الملاحون رسالة الإسلام إلى أقطار بعيدة ، لم يفتحها العرب بالسيف ، وإنما فتحتها التجارة والإتصالات الحرة ، فنقلت إليها شهادة الدين الحنيف .

وفى نفس الوقت كانت وسيلة لإنتقال لون الثقافة الإسلامية بمظهريها المادى والمعنوى . وهكذا كانت التجارة والملاحة جناحا الإسلام فى الربط السكين بين أقطار المسلمين خلال أعصر التاريخ ، على نحو شارك فى إقامة البناء الاجتماعى المشترك بخصائصه الإسلامية ، كما كانت الجزيرة العربية ذاتها ـ الوطن الأصلى للاسلام ـ منطقة «وصل» بين أطراف العالم ، عندها تلتقى القارات الثلاث فى العالم القديم ، ومن شواطئها ومفارقها عند بحار الشمال بادئة بالبحر الأبيض المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى . وقد كان عدم إتصال المياه بين الشمال والجنوب فى تلك المنطقة سببا فى أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير فى وسائل المواصلات وفى ظهور دور «الوساطة الجغرافية» الذى كتب للعرب أن يقوموا به ، بل دور «الرسالة» الذى كتب الله بنزول الإسلام فى بلادهم أن يضطلعوا به . والواقع أن الحكمة الإلهية من نزول القرآن فى الأرض الوسط لا يمكن أن يعادلها إلا حكمة الأمانة التى حملها الله تعالى للأمة الوسط « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١)

ولم يكن الأمر مجرد « وسط جغرافى » إتصالى بين أطراف العالم الإسلامى . وإنما كانت جماعات المسلمين حتى فى الجهات النائية من جنوب شرق آسيا وغيرها لم تنعزل فى حياتها أو ثقافتها وتاريخها عن الوطن الأم للاسلام ، لا فى التجارة ، ولا حتى فى الهجرات وتواصل الأرحام ، أى أن الإسلام وسيلة « للتواصل الاجتماعى » بأوسع معانية . ومن هنا كان التماسك الحيوى والثقافى العام بين المسلمين فى مختلف أقطارهم ، حتى فى العصور التى لم يكن هناك فيها أى تواصل سياسى أو إقتصادى ، بل ومن هنا كان التفاعل الاجتماعى Social interaction بين الجماعات الإسلامية البيضاء والشقراء ، السوداء والسمراء فى مختلف المناطق الحارة والباردة والمعتدلة ، تفاعلا أصبح قواما للطابع الحضارى الإسلامى على مر العصور . ومن هنا كانت « مكانة » العالم الإسلامى فى إستنادها إلى « موقع » ذلك العالم من جهة ، وإلى تكوين سكانه وسطا بين

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

الشعوب ، وإلى دين تواصلى ترابطى تماسكى . ومن الواضح أن حكمة الأمة الوسط والموقع الوسط والدين الوسط، إن كانت تنطبق على الأمة العربية فى خصوصها ، فإنها تنطبق كذلك — وبصفة عامة — على الأمة الإسلامية فى مجموعها الكبير بين أمم العالم .

والذى يؤكد الصفة الترابطية فى العقيدة الإسلامية ، الإعلان المتكرر فى القرآن الكريم حول أنه جاء « مصدقا لما بين يديه من الكتب » وذلك بالإضافة إلى صفة أخرى إذ أعلن أنه جاء أيضاً — مهيمنا — على الكتب « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . . . » (٤٨ — المائدة) أى حارسا أمينا على الكتب المقدسة السابقة . ومن قضايا الحراسة الأمنية على تلك الكتب ألا يكتفى الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من خير وحق ، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذى عساه أن يضاف اليها بغير حق ، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها أو حرفت .

وهكذا كان من وظائف القرآن الكريم أن ينفى عنها الزوائد ، وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب ، لقوله تعالى « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » (٩٣ — آل عمران) وكذلك كان من وظائفه أن يبين ما ينبغى تبينة مما كتموه منها ، لقوله تعالى « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » (١٥ — المائدة) وبصفة عامة فإن علاقة الإسلام كعقيدة بالعقائد السابقة ، علاقة ترابط وتواصل وتصديق وتأييد متكامل . وأن علاقته بها فى صورتها المتطورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية ، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة والتحريفات المغرضة وما إلى ذلك .

تنظيم الاسلام للحياة الاجتماعية :

يمتاز الاسلام بأنه دين « قيم اجتماعية » وضوابط سلوكية مادية ومعنوية ومثل تلك القيم الاجتماعية بوجهيها الايجابى والسلبى تعتبر بمثابة محددات لسلوك الأفراد والجماعات . ومن هنا إمتاز الاسلام بأنه أعطى نظاما متكاملا للحياة الاجتماعية التى

لتشمل الفرد والجماعة ، بمعنى أن هذا النظام يشمل علاقات الأفراد ، وكثيرا من نواحى الحكم ذاته . ومن أبرز المبادىء والمعايير التى إستند إليها نظام الحياة الاجتماعية الاسلامية فكرة القيمة الذاتية للانسان ، وإستنادها إلى قاعدة المسئولية الفردية فى نطاق الحرية ، ثم فكرة الإخاء التى تجعل المسلم فى أى قطر يشعر بأنه ينتمى إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة ، والتى أصبحت بمثابة الخلفية الاجتماعية التى يستند إليها ما يسمى « بحس المشاركة الجماعية » الذى تستشعره جماعة المسلمين على إختلاف اللغة أو الجنس أو حق الولاء الوطنى أو السياسى وقد يوجد مثل هذا الحس الجماعى المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى ، ولكنه لايبلغ « حس المشاركة الجماعية » بين جماعة المسلمين . وكذلك فكرة « العدل » الذى ينبع من قاعدة المساواة أصلا بين الأفراد ، ويجيز التفاوت بينهم على أساس العمل . وتلك قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف ، وهى أساس التماسك الاجتماعى الذى يستند إلى الإقتناع . ومنها كذلك فكرة « السماحة » وعدم التميز على أساس من العنصر أو الجنس أو المال .

ومما يؤكد أن الإسلام كعقيدة يقوم على قواعد ثابتة من التعاون والدعوة إلى السلام والعمل به وبث الأمان والطمأنينة وما إلى ذلك . وبالرغم من هذا فلم ينج الإسلام من المزاعم الباطلة مثل القول بأن المسلم لايعنيه ضل غيره أم إهتدى ، سعد أم شقى ، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير — لاسيما من وجهة نظرهم — التى تقوم على أن الإسلام إنتشر بحد السيف

ونسى هؤلاء أن الدعوة إلى الحق والخير قاعدة أساسية من قواعد الاسلام ، والنشاط فى هذه الدعوة فريضة مستمرة فى كل زمان ومكان ، على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأتباعه وتابعيهم إلى يوم الدين لقوله تعالى « وجاهدهم به جهادا كبيرا » (٥٢ — الفرقان) بل إن القرآن الكريم يحث المسلمين على القيام بواجبات أو بمسئوليات هذه الدعوة ، لقوله تعالى « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله » (٣٣ — فصلت) . وكل مسلم يريد الفلاح والنجاح والنجاة له ولمجتمعه عليه أن يساهم مع أفراد هذا المجتمع فى القيام بأعباء الدعوة إلى الحق والخير لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١٠٤ — آل عمران) وكذلك قوله تعالى « إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢ ، ٣ — العصر) .

ومن أهم قواعد العقيدة الاسلامية « الإقناع » فالدين الذى يقوم على حد السيف وإراقة الدماء يستحيل وصوله إلى مستوى « العالمية » على حين أن الاسلام تتوافر له كل الخصائص التى تجعل منه ديانة عالمية ، ومن أهم هذه الخصائص « الإقناع » ومن ثم فانه ليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضا ، حتى يكون هو الديانه العالمية الوحيدة ، فنبي الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة واحدة على العالم كله ديانة فاشلة ، بل هى مقاومة لسنة الوجود ، ومعاندة لإرادة رب الوجود ، فالاجتماع تحت لواء ديانة واحدة أمر يرتبط بنفوس وإرادات الناس ، حيث ترك الله سبحانه وتعالى أمر الإنطواء تحت راية دولة واحدة ودين واحد للناس أنفسهم لقوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين » (١١٨ ـ هود) وكذلك قوله تعالى « وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين » (١٠٣ ـ يوسف) وأيضا قوله جل شأنه « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ ـ يونس) وكذلك قوله تعالى شأنه «إنك لاتهدى من أحببت،ولكن الله يهدى من يشاء»(٥٦ـالقصص) .

وترتيبا على ذلك كانت القاعدة الإسلامية الرائعة وهى « حرية العقيدة » وهى قاعدة محكمة ومبرمة فى القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها والله سميع عليم » (٢٥٦ ـ البقرة) وبذلك رسم الإسلام أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين مع إستخدام أرق الألفاظ وأكثرها ملاءمة للموقف ، وأعلاها إتفاقا مع الموضوع لقوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١٢٥ ـ النحل) .

وإذا كانت هذه القواعد فى العلاقات والمعاملات بين المؤمنين بالله ، أثناء قيام المسلمين منهم بدعوة غير المسلمين للدخول فى الدين على أساس الإقناع وبعيداً عن الإكراه ، فإن الإسلام يضع قواعد العلاقات والمعاملات بين المسلمين وبين غير المؤمنين بالديانات السماوية من الوثنيين وغيرهم . وتتجلى تلك القواعد النبيلة فى تلك الوصية الذهبية التى يوصينا بها القرآن الكريم فى معاملة أتباع الديانة الوثنية التى هى أبعد الديانات عن الاسلام ، فضلا عن الديانات التى تربطنا بها أواصر الوحى السماوى ، كما جاء فى قوله تعالى « وإن أحدا من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم

أبلغه مأمنه » (٦ ـ التوبة) . وهكذا نجد الإسلام فى إهتمامه بالجار المسلم ، يمد إهتمامه بالجار من أى ديانة ، حيث لايكتفى الإسلام بأن يجير المسلم المشرك ويؤويه ويكفل له الأمن فى جواره فحسب ، ولا يكتفى منه بأن يرشده إلى الحق ويهديه طريق الخير فحسب ، بل يأمره بأن يكفل له أيضاً الحماية والرعاية فى إنتقالاته حتى يصل إلى المكان الذى يأمن فيه كل غائلة .

ومن أهم القواعد الإسلامية أيضا فىهذا المجال قاعدة المساواة فى الحرية والحماية والعدل والرحمة بين المسلمين والوثنيين . وهى قاعدة تؤدى ـ ولا ريب ـ إلى وحدة الأمة وتماسكها، حيث لاتكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم ، وحماية أشخاصهم وأعراضهم ، بل تمنحهم من الحرية والحماية ، ومن العدل والرحمة ، قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » .

و « السلام » أيضاً من القواعد الإسلامية العالمية ، تلك القاعدة التى تؤكد رحابة صدر الإسلام وسعة أفقه ، وغزارة كرمه ، وميله نحو تحقيق السلام الدولى والتعايش السلمى بين الأمم .. هذه الدعوة القرآنية التى لاتكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى تدين بغير الإسلام ، ولاتتحاكم إلى قوانينها ، لا تكتفى فى تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة « سلم بسلم » لقوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » (٦١ ـ الأنفال) وكذلك قوله تعالى « فإن إعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٩٠ ـ النساء) . بل تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر ، وعدل وقسط ، ويحبب الإسلام إلى المسلمين فعل الرحمة والبر ونشر العدل والمعاملة بالقسط مع هؤلاء من غير المسلمين فى قوله تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٨ ـ الممتحنة) .

وخلاصة القول أن الإسلام لايكف لحظة عن مديده لمصالحة أتباع كل ملة ونحلة فى سبيل التعاون على إقامة العدل . ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك ، وحماية الحرمات أن تنتهك ، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف وكلها قواعد وقوالب وأوضاع للسلوك الإنسانى لا ترقى إليها أرقى التشريعات الموضوعة فى أى مجتمع من المجتمعات التى توصف بأنها راقية . وكذلك يضرب لنا نبى الإسلام مثلا فى التعاون

والتواصل والتراحم بالمعنى العالمى ، حين قال فى الحديبية « والله لايدعونى قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها » . صدقت ياسيدى يارسول الله .

ومن القواعد الإسلامية التى تنطوى على التيسير للناس ، حتى لا يكون الدين عبئا مستحيلا عليهم ، مايلى :

(ا) الإسقاط : أى إسقاط العبادة فى حالة قيام عذر مثل الحج وعدم الأمن .

(ب) الإنقاص : أى إنقاص المفروض كالقصر فى السفر .

(جـ) الإبدال : أى إبدال الوضوء بالتيمم

(د) التقديم : أى مثل الجمع فى عرفات .

(هـ) التأخير : مثل الجمع بمزدلفة .

(و) التغيير : مثـل ، تغيير نظام الصلوات فى أوقات الخوف .

(ز) الترخيص : بأكل الميتة عند المخمصة .

وقد أدت تلك القواعد والمبادىء والمعايير والقيم المتميزة بالعدالة إلى دخول الناس فى الدين أفواجا على أساس التـكافؤ والإندماج ، كما مهد لأن يـكون نظام الحيـاة الاجتماعية فى الإسلام نظاما جامعا رحبا ، راسخا فى معاييره ومبـادئه وقيمه التى لايغيرها الزمن ولاتشكلها الظروف ، وشامخا فى تـكافله الاجتماعى . ذلك الذى أرسى للجماعات التى تعيش داخل المجتمع الاسلامى وتحيا حياة الإسلام وتمارسه ، قواعد الدنيا فى إرتباطها بالدين ، ومكن لها من أن تبرز بطابع حياتها الاجتماعية الإسلامية ، عقيدة ونظاما وثقافة متـكاملة داخل مجتمع واحد

(ز) إمتياز الاسلام بالتلقائية :

من دراستنا فى الفقرات السابقة والتى تقع تحت رءوس موضوعات لاتختلف عن خصائص الظاهرة الاجتماعية يمـكن القول بأن كل هـذه الخصائص تنطبق على الدين الإسلامى كظاهرة اجتماعية ـ ما عدا خاصية التلقائية ـ وهنا يختلف الموقف بالنسبة لهذه الخاصية ، ذلك أن كل علماء الاجتماع فى العالم يؤكدون أن الدين ظاهرة اجتماعية ، والإسلام على قمة هذه الأديان ما كان منها سماويا أو أرضيا ولـكن هـذا التأكيد

لايكون تاما بالنسبة للمؤمنين بالأديان السماوية ، ذلك أن الدين الاسلامى على سبيل المثال ليس من صنع المجتمع ولم يظهر على مسرحه بصورة تلقائية ، وإنما هو منزل من الله سبحانه وتعالى على خير أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم غير أن الاسلام يقرر قدم الظاهرة الدينية فى قوله تعالى .

«وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم ؟! قالوا : بلى ؟ ! شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين » (١٧٢ — الأعراف . وهذا يؤكد أن الدين الإسلامى ظاهرة دينية اجتماعية مرتبطة بالوحى الإلهى المسجل فى كتاب الله « القرآن الكريم » وهو أقدم مرجع تتوافر فيه كل شروط الثقة والتوثيق والتحرير والحفظ . ومن هنا يمكن القول إن خصائص الظاهرة الدينية على النحو التالى :

— أنها قديمة قدم الدين الذى ترتبط به (الاسلام أو المسيحية أو غيرها ...)

— أنها إلهية النشأة والتوجية وقد تكون بشرية فى حالة الديانة المجوسية والبوذية وغيرها .

— أنها مرتبطة بكتاب سماوى ، أو بكتاب من تأليف البشر مثل « المختارات » فى الديانة الكونفوشيوسية .

— أنها مرتبطة بوحى ورسول ، أو بمصلح اجتماعى من المفكرين .

— أنها باقية ببقاء كتابها المقدس ، فى حالة تواجد مثل ذلك الكتاب .

— أن نموذجها الحق هو الدين الذى جاءت به .

والانسان كحيوان اجتماعى ، وبالتالى متدينا يحتم عليه دينه ومجتمعه أن يعيش فى بيئة اجتماعية ، حيث يساهم الدين مع غيره من النظم الاجتماعية فى تحديد كيفية علاقات ومعاملات الإنسان مع غيره من أفراد المجتمع . ومن هنا يمكن القول إن الدين يساهم فى ترشيد وإرتقاء العلاقات الاجتماعية فى المجتمع . والإسلام باعتباره خاتمة مطاف الأديان السماوية ، فضلا عن عدم تعرضه للتحريف أو التشويه ، يمكن النظر إليه كمجموعة من السمات ذات الوظائف الاجتماعية والإنسانية والعبادية، الأمر الذى يوفر له كل خصائص النظام الاجتماعى .

صحيح أننا لم نر الله ببصائرنا ، وإن كنا ندركه ببصيرتنا، وندرك أن قواعد وفلسفة وأهداف هذا الدين من صنعه جل شأنه . والذي يمكن قوله هنا هو إن المجتمع قد إستجاب بصوره عامة وتامة لتلك القواعد الدينية الإسلامية ، وما تنطوى عليه من المثل الاخلاقية ومعايير الخير والفضيلة ومبادىء العدل وما إلى ذلك مما يتفق مع أهداف وفلسفة الدين الإسلامى .. وإذا تجاوزنا — أو إذا كان لنا أن نتجاوز عن القرن الاسلامى الأول — فانه يمكن القول إن كل الأفراد فى المجتمع الاسلامى قد نشأوا فوجدوا النظم الأسرية والقضائية والاقتصادية وغيرها بصورتها الإسلامية فصبوا فيها أعمالهم وأفكارهم متأثرين فى ذلك بما يلقونه من تربية إسلامية فى طفولتهم ، بمعنى أن هــذه النظم والأوضاع قد نشأت بصورتها الإسلامية منذ نشأة المجتمع الاسلامى ومن هنا فان صفة التلقائية يمكن الأخذ بها فى مجال الدين الاسلامى بعد القرن الهجرى الأول ، بل وقبل القرن الهجرى الأول إذا أخذنا بأن الاسلام دين سائر الأنبياء ، فالاسلام فى لغة القرآن ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو إسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وإنتسب إليه كل أتباع الأنبياء ، فقد رأينـــا نوحا يقول لقومه « وأمرت أن أكون من المسلمين » (٧٢ — يونس) وكذلك رأينا يعقوب يوصى بنيه « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (١٣٢ — البقرة) وكذلك وجدنا أبناء يعقوب يجيبون أباهم « نعبــد إلهك وآله آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » (١٣٣ — البقرة) ورأينا مطالبة موسى لقومه بأن يتوكلوا على الله إذا كانوا قد آمنوا به « ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا أن كنتم مسلمين » (٨٤ — يونس) وكذلك إستجابة الحواريين لعيسى بقولهم « آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون » (٥٢ — آل عمران) .. بل أن فرية من أهل الـكتاب أكدوا إسلامهم حتى قبل أن يستمعوا إلى القرآن الـكريم بقولهم « قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » (٥٣ — القصص) .. الخ.

ومن هذا يمـكن القول بوحدانية الدين وإن إختلفت أسماء الرسالات لاسيما بالنسبة للأنبياء والرسل الذين وردت إلينا أخبارهم لقوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جــاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » (٧٨ — غافر) .

وإذا كانت الأمم السابقة لم تستجب إستجابة كاملة للرسالات التى بلغت إليها

وإنحرفت عنها لقوله تعالى « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب » (٧٧ – هود) ولما علم قومه بحضور ضيوف إليه هرعوا إليـــه ، لا للاحتفال بضيوفه وإنما لممارسة الرذيلة بشكل شاذ مع هؤلاء الضيوف، وراح هو يستعطفهم بالإمتناع عن ذلك ويقدم لهم بناته طاهرات عفيفات .. « وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبـــل كانوا يعملون السيئات ، قال ياقوم : هؤلاء هن بناتى أطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزونى فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ! ؟ . قالوا لقد علمت مالنـــا فى بناتك من حق ، وأنك لتعلم ما نريد » (٧٨ ، ٧٩ – هود) .. ومع ذلك لم يرتدعوا عن مطالبهم الخبيث .. وهنـــا قال الضيوف للوط « يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا إمرأتك أنه يصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلمـــا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد » (٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ – هود) .. أما آل مدين ، فلم يـكتمل إيمانهم بالله ، فضلا عن إنتقاصهم فى المكاييل والموازين، وبخسهم لأشياء الناس ، وعيثهم الفساد فى الأرض لقوله تعالى « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين » (٨٥ – هود) .

إن كل ذلك يؤكد عدم إستجابة العقـل الجمعى لـكثير من القواعد الدينية التى جاءت بها الأديان السابقة على الإسلام ، أو بالأحرى الصور الإسلامية الأولى .. على حين كانت إستجابة العقل الجمعى كاملة بالنسبة للصورة الاسلامية الأخيرة وهى « الدين الإسلامى » . ومن هنا يمـكن القول بتلقائية الدين الإسلامى .

وقد فرق دوركايم بناء على صفة التلقائية بين الطبائع الثلاثة للانسان وأن لـكل منها علم خاص بها ، بمعنى إن الانسان يحب ويكره وتشمر ويتخيل ويتـذكر ... وهذه مظاهر من حياته النفسية ! وعلم النفس هو الذى يتولاها بالدراسة . كما أن الانسان يأكل ويشرب وينام وهذه مظاهر من حياته البيولوجية ويقوم علم الحياة بدراستها . وأخيرا فان الانسان لا بد له أن يعيش فى أسرة وأن يتدين وأن يتعاون مع الآخرين ويخضع لنظم قانونية وإقتصادية وسياسية وعامة ومقررة .. وهذه الأمور وما إليها من مظاهر حياته الاجتماعية ، ويتولى علم الاجتماع دراستها .

تلك هى خواص الدين الإسلامى كنظرية اجتماعية وكموضوع لعلم الاجتماع الإسلامى ،

وقد ربطنا بين خواص الظاهرة الاجتماعية وبين خواص الدين الإسلامى ، وكانت نتيجة الربط ايجابية إلى حد كبير . ومعنى ذلك أن الدين الاسلامى ظاهرة اجتماعية سليمة تستوجب دراسة كل نواحيه فى ضوء القوانين الاجتماعية العلمية . وتلك هى مهمة علم الاجتماع الإسلامى .

ولكن هناك من ينكر أن الدين الاسلامى ظاهرة اجتماعية ، ويبدو أن هذا الإنكار يرجع إلى عدم إدراك خصائص الظاهرة الاجتماعية التى أوضحناها من خلال إيضاح خصائص النظرية الاسلامية ، وربما يرجع إلى اضطراب أو خلط فى المعانى فهناك من يقول أن الظاهرة الدينية ظاهرة اجتماعية ولكنه فى نفس الوقت لايوافق على إنشاء المجتمع لها ، أو على ظهورها على مسرح المجتمع بصورة تلقائية طبقا لوجهة نظر « دوركايم » .. ثم يذهب مذهبا عجيبا بالقول بأن الظاهرة الدينية ظاهرة اجتماعية لأنها ذات وظيفة اجتماعية[1] ، وهذا لوى للحقائق الاجتماعية وأن كنا نعتقد أنه جهل بالحقائق الاجتماعية .

أهداف الدراسة :

لما كان علم الاجتماع الإسلامى هو العلم الذى يصف ويحلل معطيات الفكر الإسلامى على إعتبار أن هذه المعطيات تعكس وتجسد آراء واتجاهات ونظريات اجتماعية منبثقة من طبيعة الاهتمامات والقيم والمشكلات التى إنتشرت وسادت فى المجتمع الاسلامى بمختلف أشكاله منذ نشأته الأولى وإلى الآن فى ظل الشريعة الإسلامية ، وليس الهدف من دراسة هذا العلم هو مجرد الحصول على الإطارات العامة للقيم والمبادىء الكلية التى تعتبر سمات وخصائص التشريع الإسلامى أوللتنظيم الاجتماعى فى المجتمعات الإسلامية المتتابعة فحسب .. وإنما الهدف هو الدراسة النقدية التحليلية الموضوعية الوظيفية التى تشير إلى أن القرآن الكريم ككتاب مقدس هو الأصل الأول والأساس الذى إنطلقت على أساسه الثورة الاجتماعية الإسلامية ، بمعنى أنه دليل حركى وميثاق عمل إختارته السماء وإقتنع به العقل الجمعى فى المجتمع الاسلامى لما يحققه لهم من فوائد محققه وحياة مستقرة وإزدهار متجدد. وذلك بالرغم من الإعتقاد السائد بأن الدين كضابط اجتماعى أبطأ فى حركة التجديد ، بالرغم -أيضا- من أن هذه الظاهرة ليست فى صالح وظائف

---

(١) دكتور محمد ابراهيم الفيومى: قضايا فى الاجتماع الاسلامى،حول حركة تفاعل الانسان وتكيفه بالوحى : مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧ صفحة ٦٩

الدين الإسلامي ، فهو عملية تجديدية اجتماعية ، لا سيما وأننا عنـد ماننظر إلى التحليل الموضوعى للدين الإسلامى ، نجد أن هذا العنصر التجديدى فيه ظاهر ملموس لأن له الأصل الاجتماعى . وفى ضوء كل ذلك يمكن تحديد وظائف وأهداف الدراسة فى علم الاجتماع الإسلامى على النحو التالى :

(ا) إبراز المعطيات الاجتماعية الاسلامية :

لما كانت العناصر الرئيسية فى المجتمع هى : الفرد والجماعة والتنظيم الاجتماعى، فإن الهدف هنا هو إبراز الآثار الاجتماعية للمعطيات التى قدمها الفكر الاجتماعى فى المجتمعات الإسلامية للفكر الاجتماعى الإنسانى بصفة عامة ، والوقوف على دور هذه المعطيات فى تنمية وتغيير المجتمعات .

(ب) إعادة تقويم القيم والمبادىء والمعايير الموروثة :

تنشأ القيم الاجتماعية من مجموعة من المفاضلات لحل مشكلة من المشكلات ، تختلف من عصر إلى آخـر . ومن ثم فإن بعض القيم والمبادىء والمعايير الموروثة منذ صدر الإسلام قد لا تتفق مع الأوضاع الاجتماعية الحديثة ، ومن ثم فإن الهدف هنا هو تحديد القيم والمبادىء والمعايير التى حلت محل ـ ابقائها وتحديد موقفها فى ضوء الأصول الاجتماعية الإسلامية ، وإعادة ترتيب وضعيانها فى ضوء التحولات الاجتماعية التى مرت بها المجتمعات الانسانية .

(ح) إعادة تقويم المادة العلمية :

تنطوى المصادر والمراجع الاسلامية على مادة اجتماعية علمية، والهدف هنا هو العمل على تقويمها فى ضوء النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مع محاولة تخليصها من الاتجاهات التيولوجية والفلسفية والتجريدات النظرية التى أبعدتها عن محتوياتها ودلالاتها الوظيفية التى نشأت وتدرجت فى إطارها .

(د)الاستفادة بالمعطيات الاجتماعية الاسلامية :

وخضوعا لمنطق مناهج البحث العلمى ، فإن الهدف هنا هو تحديد الأسس التى يمكن بمقتضاها الإنتفاع بالمعطيات الاجتماعية الإسلامية القديمة والمعاصرة بصرف النظر عن

الإعتبارات السياسية التى تمثل حواجز مصطنعة بين الجماعات التى تشكل الإطارات المرجعية لهذه المعطيات بالرغم من توحدها فى أنماط حضارية وقوالب فكرية ، سواء بقيت على أحوالها الدينية القديمة أو نالتها يد التجديد والإصلاح الدينى والاجتماعى .

(ﻫ) موقف الفكر الاجتماعى الاسلامى من الاتجاهات المعاصرة :

والهدف الخامس هو دراسة ومقارنة وتقويم الفكر الاجتماعى الإسلامى فى مختلف الأزمان من خلال الحصيلة الفكرية التى قدمها لنا كثير من المفكرين الاسلاميين فى ضوء الاتجاهات الاجتماعية المعاصرة ، لإعطاء بعد جديد لهذه الاتجاهات وهو البعد الاجتماعى الإسلامى . ولكى نضيف إلى معرفتنا الاجتماعية الدور الذى قام به المفكرون المسلمون فى التمهيد لنشأة هذه الاتجاهات وتطويرها وفقا لمعايير حيادية وغير متحيزة .

(و) موقف القيم الروحية من المشكلات الاجتماعية :

أى دراسة موقف القيم الروحية والاجتهادات الفكرية إزاء المشكلات الاجتماعية المزمنة مثل الإسراف فى الطلاق وفى تعدد الزوجات وما إلى ذلك بقصد الاستفادة من هذه المواقف فى الإستجابة لحركات الاصلاح الاجتماعى وتنمية نزعة المبادأة فى المشاركة الجماهيرية إزاء العمليات الإنمائية الاجتماعية والاقتصادية . والانتفاع بذلك فى محاولة السيطرة العلمية والإعلامية وتوجيهها نحو إيجاد بيئة اجتماعية متفتحة لكل تخطيط أو سياسة اجتماعية إرتقائية .

(ز) تصحيح بعض الآراء والاتجاهات الاجتماعية :

يمتلىء المجتمع الاسلامى بكثير من الآراء والاتجاهات التى تتعارض مع الأوضاع الاجتماعية العلمية الحديثة ، حتى أنها توصف بأنها من أكبر عوامل الجمود الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى مجتمعنا ومن الضرورى أن يتصدى لها علم الاجتماع الاسلامى بالتصحيح والترشيد والتوضيح

(ح) ترشيد السنن الاجتماعية :

يقصد بالسنن الاجتماعية هنا العادات والأعراف والتقاليد ، وبعض هذه السنن تنتمى إلى الدين وتتفق معه وتثرى مبادئه ، وبعضها الآخر لاينتمى إلى الدين ولايتفق

معه . وظيفة علم الاجتماع الإسلامى هنا هى ترشيد كل من هذه السنن وإستبعاد كل ما يتعارض منها مع الدين . وكذلك بيان الأوجه الإيجابية والسلبية لكل من تلك السنن الاجتماعية ، لخطورتها على أنماط السلوك فى المجتمع ، على إعتبار أن الإنسان — فى سلوكه — يقال عنه أنه « إبن عاداته » .

(ظ) ضرورة المعرفة الاجتماعية — لا اللغوية — للقرآن :

ذلك أن القرآن الكريم كان — ولايزال — قوة عاملة فى بناء عقائد المسلمين وأخلاقهم وتوجيه سلوكهم فى عهدالرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وصدر دولة بنى أمية ، حيث لم يكن قد نشأ بعد كل من علم الفقه وعلم الكلام ومن ثم كان الناس بطبيعة الحال يرجعون فى معرفة العقيدة والشريعة إلى الكتاب والسنة على أنه عندما إتجه المتخصصون من المسلمين إلى إستنباط الأحكام الشرعية والعقائد الدينية ومن ثم تنسيق الأحكام والعقائد،وظهر بمقتضى ذلك علم الكلام وعلم الفقه،لم يعد الحال كما كان من قبل . . وبدلا من أن يتجه الناس فى معرفة الدين إلى الكتاب والسنة ، كما كان آباؤهم يفعلون ، راحوا يرجعون فى معرفة الفقه ومعرفة العقائد إلى علم الكلام. وبذلك إختلف الوضع بالنسبة للقرآن الكريم .

ولما كان القرآن الكريم بمثابة العامل الأكبر فى تربية المسلمين على عقائدهم وأخلاقهم قد صرف عن هذه المهمة ، وأصبح كل من الفقه وعلم الكلام يقومان بهذا العمل . وقد ساعد على إستقرار هذا الوضع أن الناس حبب إليهم الرجوع إلى الفقه وعلم الكلام، لأنه يطابق ما فطرت عليه النفوس من حب الدعة والراحة وكره العمل والجهد ، ثم ظهرت فى الجو أفكار وطدت هذا التغير وأرست قواعده ، منذ غلب المقول إعتقاد راسخ بأن أخذ الأحكام من الكتاب والسنة عمل دقيق لايستطيعه الجمهور ، وإنما يقوم على عدد ضئيل من المتخصصين ومن هنا إنصرفت الجماهير عن إرتياد القرآن الكريم وتعرف ما يفيض به من مناهل العلم والعرفان .

وإنتهى الأمر بعزل القرآن عن القيام بمهمته التربوية والقضائية والاجتماعية ، غير أن الناس لم يفارقهم التطلع إلى محاولة فهم القرآن الكريم ، وإدراك معانيه لمجرد الإدراك والفهم ، لا العمل والتوجيه ومن هنا فإنه عندما دب إلى اللغة العربية دبيب الضعف ، أخذ الناس يحسون بصعوبة فهم النصوص العربية الفصيحة عامة والقرآن الكريم خاصة . وبالتالى أصبح من الضرورى القيام بعمل ما لتمكين الناس من فهم القرآن الكريم والوقوف على أسراره ومعانيه ، ومن هنا ظهر فن التفسير . والذى

يجب أن نكون على بينة منه هو أن المفسرين تصوروا مهمتهم على نحو خاص بهم ، كان له أثر بين فى تفاوت التفاسير التى وضعوها .

فقد واجه هؤلاء المفسرون القرآن الكريم منذ البداية كنص يراد شرحه وإيضاح معانية ـ وليس كنظرية اجتماعية ـ فشرحوا غامضة وحرروا معانيه، وأشاروا إلى مايتضمنه من مبادىء وأصول . غير أن الأمر لم يلبث أن تطور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال، لا سيما فى الوقت الذى إزدهرت فيه العلوم العربية ، حيث أوغل فريق فى دراسة البلاغة ، وتوسع آخرون فى دراسة النحو والصرف أو اللغة ، وجمع غيرهم فى دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير منها .

وطبقا لنظريات علم الاجتماع وعلم النفس ، فإن التخصص العميق يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية وفعالة ، لايستطيع فى غالب الأحيان أن يتحرر منها ، حتى أنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شاء أم أبى . ولما كان الفرد ليس شيئا آخر سوى مجرد التعبير عن «وضعية الانسان الاجتماعية» فقد إتجه كثير من هؤلاء اللغويين إلى تفسير القرآن الكريم ، فماذا كانت النتيجة ؟ يحسبك أن تنظر فى تفسير الزمخشرى مثلا ، وأن تتذكر حين النظر فيه أن الزمخشرى كان من كبار علماء النحو والصرف واللغة والبلاغة . وبالتالى ستجد فى تفسيره مصداق وجهة نظرنا من تأثر الرجل تأثرا عميقا بالعلوم التى تخصص فيها ، فأول ما يأخذه نظره من القرآن لكى يحاول بحثه ودراسته هو الاستعارات والمجازات وغريب القرآن ثم نحو القرآن وصرفه ، حتى إذا وصلت إلى حاشية الجمل على الجلالين . خيل إليك أن الرجل إنما كان يعنيه أن يتخذ من القرآن الكريم مجالا لتطبيق علوم اللغة ، لاسيما فى النحو والصرف . أما معانى الآيات وموضوع القران . فقد أصبح بمعزل عن مجال الشرح والعرض . ولا داعى للاستطراد أكثر من ذلك ، فالكتب التى تنطوى على ذلك فى متناول الجميع .

والخلاصة أن القرآن الكريم بعد أن كان كتابا لتربية المسلمين وتعليمهم الدين والشريعة ، أصبح مجرد نص لمجرد الفهم من خلال ميدان فسيح لتطبيق علوم اللغة على إختلاف أنواعها . وبهذا تم عزل القرآن الكريم كنظرية اجتماعية هدفها تربية المسلمين وتكوين عقائدهم وأخلاقهم وشريعتهم وتوجيه سلوكهم . . . على حين أن علم الاجتماع الإسلامى ينظر إلى القرآن الكريم كنظرية اجتماعية ، وبمقتضى تلك النظرية يتطلب الأمر التحرر ـ فى هذا المجال ـ من سلطان القديم ، أو خلع رقبة

التقليد والتقدم إلى مهمة التجديد بأداة كاملة من الاجتهاد الحر المستقل الذى لا يخضع إلا لقوة الدليل ، ولا يتجاهل المصالح الانسانية وحاجات العصر ومنطقه .

وغنى عن البيـان إن الاجتهاد يعنى أول ما يعنى الرجوع إلى مصادر الإسلام الأساسية ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والأكبر الذى يجب أن يكون المرجع المحدد فى فهم الدين وإعطاء العقيدة والشريعة صورتهما الاجتماعية الجديدة النقية . وفى ضوء اتجاهات علم الاجتماع الاسلامى ، من الضرورى أن يتجه التفسير اتجاها جديدا شاملا للعقائد والأخلاق والنظم والأحكام، فالمسائل الإعتقادية والأحكام الشرعية والنظم السياسية والاقتصادية وغيرها من النظم الاجتماعية يجب أن تشغل الحيز الأكبر من التفسير الاجتماعى للقرآن ، وتحتل المكان الأول من عناية المفسرين حتى يمكن سحق الخرافات التى تجمعت حول الدين خلال العصور السابقة ، وتنقية العقائد من شوائب الزيغ والضلال ، وتجديد الأحكام وجعلها ملائمة لإتجاهات العصر ومطالبه ، بعيدا عن إستثارة قواعد اللغة العربية والبلاغة وما نصت عليه المعاجم فى معنى الكلمات لتطبيقه على الآيات ، مع عدم إهمال البحوث اللغوية فالتفسير الاجتماعى للقرآن الكريم ينبغى أن تكون له غاية عملية ، وهى التأثير فى حياة المسلمين بتنقية عقائدهم مما شابها من فساد ، وإصلاح أخلاقهم ، وترقية نظمهم ومختلف أوضاع حياتهم وأنماط سلوكهم .

الربط بين الدين والاجتماع :

أوجب الإسلام على الأفراد الصلاة والصوم وما إلى ذلك من مختلف العبادات وحرم عليهم الفحشاء والمنكر وما إلى ذلك من الموبقات . والدين الذى يقرر هذا، ويقرر أن من أركانه وعباداته المفروضة ـ التى يكفر منكرها ، ويفسق تاركها ـ الإنفاق فى سبيل الله بما يسد حاجة الفقير وبما يقيم المصالح الجماعية ، ليس معقولا ولا مقبولا أن يكون دينا لاعلاقة له بالمجتمع ولا بشئونه ، ومن يقل بذلك ينكر أن الدين ظاهرة اجتماعية . على حين أنه إذا رغب الناس التعبير الحق فى هـذا المجال فليكن : الإسلام هو دين المجتمع وعمـــاده ، ودين الشئون الاجتماعية بجوانبها المادية والمعنوية .

فالاسلام بكل ما فرضه من عبادات وما وضعه للمعاملات من قواعد ، يعمل على تطهير القلوب من الحقد والحسد ، كما يعمل على تقوية أواصر الألفة والمحبة بين الأغنياء والفقراء ، وبين الناس جميعا ، كما يعمل على إزدهار العمران البشرى عن طريق إقامة

المشروعات وإنشاء الحضارات ، وإعداد القوة التي ترهب الطامعين المفسدين ، وتحقق العزة التي جعلها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين .. أنجد بعد هذا شيئا من مقومات الاجتماع الانساني لم يعرض له الإسلام ، ولم يجعله من أهدافه الأولى ؟

ولا ريب — بعد كل هـذا — أن المسلمين لم يضعفوا في نهضتهم الاجتماعية إلا من يوم برزت فيهم هذه الفكرة الخاطئة ، واعتنقها مدبروا الأمر فيهم ، وقادة ثقافتهم ، وهي فكرة التفرقة بين الدين والاجتماع الانساني . برزت هذه الفكرة بين المسلمين ، لا جهلا بحقيقة التكاليف الدينية ، وإنما إنحرافا مقصودا لتشويه دين الله وصرف الناس عن التمسك به ، وإما مجاراة وتقليداً لقوم قصروا معنى الدين على ما يريدون ... نقول برزت هذه الفكرة وتصدى للاصلاح الاجتماعي دعاة لم يعتمدوا في دعوتهم على سلطان الدين ، وإنكمش أمامهم رجال الدين ، وقصروا أنفسهم على تلقين النـاس رسوم العبادات وكيفياتها الظاهرة ، وأحكام صحتها وفسادها . ومن هنـا إستقر في تصور كثير من الناس أن الدين بأحكامه وإرشاداته شيء ، وإن الاجتماع بمقتضياته وشئونه شيء آخر ، وصرنا نسمع في المسألة الواحدة ، أن رأى الدين كذا ، ورأى علم الاجتماع كذا ! ! وبذلك نام الرقيب القلبي أو التنظيم الاجتماعي القيمي في شئون الجماعة ، فاضطرب حبلها ، وساءت أخلاقها ، وتفنن المجرمون في صور الإجرام ، وهانت الأعراض وتفشت الموبقات .

على حين أن المصلحين لو ترسموا في إصلاح شعوبهم خطى الدين في تهـذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وإستعانوا بهدايته التي تملك على الانسان — بإيمانه — قلبه وشعوره وإحساسه ، لوجدوا من وحي الضمير ، ووازع النفس ، ما يحقق لهم وجوه الإصلاح التي تعجز عن تحقيقها القوانين ، التي لا تملك من الإنسان إلا ظاهره ، والتي يستطيع الانسان إذا ما تجرد عن وازع القلب ، أن يحتال في التخلص من تبعاتها ، والوقوع في طائلتها .

إذا القوانين التي ينبغي أن تساس بها شئون النـاس ينبغي أن تستمد فلسفتها وأهدافها من الدين ؛ وحتى تحقق غايتها المقصودة لابد أن تقع في نفوسهم موقع العقيدة ،

والإحترام والتقديس ؛ فيكون لها بمكانتها فى النفوس ، وبهيمنتها على الجماعة قوة التفاعل بين وازع العقيدة ووازع الحكم فى التوجيه إلى الطريق السوى الذى يرضى الله ويعلى من شأن الجماعة ، ويطمئن المصلحين الاجتماعيين ، القائمين على الأمر .

بهذا ، وبهذا وحده ـ كما يرى علم الاجتماع ـ تصلح المجتمعات ، وتطهر من المساوىء الباطنة والمساوىء الظاهرة ، وتعيش فى أمن وسلام وتقدم وسعادة « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لانضيع أجر المصلحين[1] » .

(١) سورة الأعراف ، آية ١٧٠

الفصل الثاني

مجال علم الاجتماع الاسلامى

إن الخطوة الأساسية فى القول بفرع جديد لعلم الاجتماع وهو علم الاجتماع الإسلامى هى تحديد منطقة نفوذ مستقلة وخاصة بهذا العلم . فهل لعلم الاجتماع الاسلامى تلك المنطقة المستقلة التى يمارس فيها نفوذه ؟ والإجابة على هذا التساؤل تتطلب تناول آراء المؤيدين والمعارضين لقيام فرع جديد تحت اسم علم الاجتماع الإسلامى .

فالمعارضون لقيام علم اجتماع اسلامى يرون أنه من الصعوبة بمكان التحدث عن علم اجتماع اسلامى ، على أساس أن الإسلام لم ينطو على نظريات تدخل فى نطاق نظريات علم الاجتماع أو غيره من العلوم الحديثة إنسانية كانت أو طبيعية . ومن هنا ينعون على الذين يحاولون تفسير بعض آيات القرآن الكريم الكونية بما يتمشى مع نظريات العلوم الحديثة ، ظنا منهم أن فى هذا دلالة على إعجاز القرآن الكريم ، مع أن هذه النظريات عرضة للتغير والتبديل طبقا لتقدم العلم نفسه ووسائله[1] . ويقولون إن القرآن الكريم كتاب إعجاز وهداية للبشر . كما أن فى نزوله على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، الإعجاز كل الإعجاز ، ومن ثم لا يحتاج فى تفسيره أو تأويله إلى ما يجعله يتفق مع نظريات أو قوانين العلم الحديث ، التى قد تظهر عدم صحتها فيما بعد ، فتدعو إلى تكذيب كتاب الله تعالى ، أو على الأقل تدعو إلى زعزعة ثقة الناس بحقائقه ويستندون فى رأيهم هذا إلى أنه من الخير لكل باحث اجتماعى ألا يقحم إضافة الأسانيد الإسلامية إلى هذه العلوم الانسانية أو غيرها من العلوم التطبيقية فى الوقت الذى لم تظهر فيه بعض هذه العلوم على المسرح العلمى إلا منذ قرن تقريبا أو يزيد . وينتهون إلى أن من مصلحة الباحث ومصلحة البحث العلمى لمن يتحدث عن « علم اجتماعى اسلامى » أن يتناول « أصول الاجتماع فى الاسلام والعلاقات الاجتماعية فى ضوء الشريعة الإسلامية » على أساس أن وظيفة علم الاجتماع هى دراسة العلاقات

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى : الحرية فى الاسلام . دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ صفحات ٨٣ – ٨٨

والظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية تقريرية لبيان ما هو كائن وليس لبيان ما ينبغى أن يكون ، وصولا إلى القاعدة أو النظرية التى تفسر طبيعة الاجتماع البشرى « هنا » و « الآن » أى فى مكان وزمان معينين . ولا يكتفى علم الاجتماع بذلك وإنما يدرس الجوانب المورفولوجية (المادية) والفزيولوجية) (المعنوية) فى حالتيها الديناميكية (الحركية) والاستاتيكية (الساكنة) . على حين أن الاسلام شريعة الله تعالى لعباده كافة لايقف عندما هو كائن ، وإنما تتجاوزه إلى ما ينبغى أن يكون والقرآن الكريم دستور الاسلام ومنهاجه فى هداية الناس إلى التى هى أقوم « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » وبذلك فهو كتاب هداية وإعجاز وليس كتابا يبشر بالعلوم الكونية ومناهجها ونتائجها .

ويقسم هؤلاء العلوم إلى قسمين رئيسين هما .

١ — العلوم القرآنية : وهى التى تتصل بالقرآن الكريم من ناحية تفسيره أو هدايته أو إعجازه ، ويدخل فى إطارها علوم الدين الإسلامى بخاصة ، والعلوم العربية بعامة .

٢ - العلوم الكونية : فهى المعارف والصنائع ، وما جد وما يجد فى العالم من فنون ومعارف مثل علوم الكيمياء والحساب ، وعلم البيئة ، وعلم الفلك وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وكذلك علم الحياة وعلم الحيوان ، وعلم النبات . . الخ .

والنوع الثانى من هذه العلوم لايجمل عده من علوم القرآن ، لأن القرآن لم ينزل ليدلل على نظرية من نظريات الهندسة أو الكيمياء أو الاحياء . . ولا ليقرر قانونا من قوانينها . كما أن علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن الكريم فى شرح آياته أو بيان أسراره . وهكذا القول فى سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية . .وإن كان القرآن قد دعا إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها ، لا سيما عند الحاجة إليها .. ويضيفون أنه لا يجمل ـ كما ذكروا من قبل ـ إعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن الكريم ، على أن القرآن الكريم يدعو إلى تعلمها ، لأن هناك فرقا بين الشىء الذى يحث القرآن الكريم على تعلمه فى عمومياته أو خصوصياته .. وبين العلم الذى يدل القرآن

الكريم على مسائله أو يرشد إلى أحكامه ، أو يكون هذا العلم خادما القرآن الكريم بمسائله وأحكامه ، أو مقرراته . ومن ثم فالأول لايعتبر من علوم القرآن الكريم بخلاف الثانى(١) .

والمؤيدون لقيام علم اجتماعى اسلامى متميز بذاته ومستقل بموضوعه وله قوانينه التى توصل إليها بمنهاج علمى معين ، يرون أن الآراء السابقة ـ وإن كانت صادقة فى جملتها من حيث العلوم الطبيعية والرياضية كالكيمياء والطبيعة وعلوم الحيوان والنبات والهندسة والفلك وما إليها ـ إلا أنها لاتشمل علم الاجتماع الذى يتناول بالدراسة المجتمعات البشرية ووقائعها وظواهرها وعلاقاتها ومختلف معاملاتها وعلاقاتها الاجتماعية ، حيث تتحكم فيها قيم تؤدى إلى ألوان من السلوك الشائع المتكرر الذى يتحول إلى عادات وأعراف وتقاليد مألوفة ومعروفة أو تلك التى تشيع فى زمان ما على هيئة بدع مستحدثه مثل الموضات التى تأخذ شكل موجات اجتماعية ذات أعمار قصيرة ، ثم تذهب ليحل محلها غيرها . وإنطلاقا من هذا الفهم يمكن أن يكون « علم الاجتماع من علوم القرآن(٢) » على أساس أن القرآن الكريم أنزل لهداية الناس وتنظيم معيشتهم فى الحياة الدنيا وتأصيل ظاهرة التغيير الاجتماعى فى إنتقال العالم من حالة الوثنية إلى الوحدانية ، ومن حالة الفوضى الخلقية ، إلى حالة التماسك والإستقرار والتضامن . « وأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم [الإسراء ٩] وذلك حين يتمثله الناس عاملين به ، مؤمنين بالله ، طائعين أوامره ، مجتنبين نواهيه ، إبتغاء مرضاته ، وإبتغاء إصلاح المجتمع وإستقراره . أما إذا عجز هؤلاء عن الخضوع للحق « إتخذوا هذا القرآن مهجورا » فإن التفسخ والإنحلال والتفكك الاجتماعى هو النتيجة ولما كان القرآن الكريم دستور البشر فى الحياة الدنيا وما بعدها ، فإنه ينبههم ويبصرهم بالفارق الكبير بين الهادين والضالين « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما

---

(١) الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى : مناهل العرفان فى علوم القرآن. دار أحياء الكتب العربية ط ٣ القاهرة ١٣٧٢ هجرية صفحة ١٧

(٢) الدكتور حسن الساعاتى ، أصول الاجتماع فى القرآن الكريم . مجلة العلوم الاجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية . العدد الأول ، الرياض ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م صفحة ٢٦

من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى » [الليل ٤ – ١١]

ومن جهة أخرى فإن القرآن الكريم يسوق إلينا عديداً من المواقف والأحوال الاجتماعية التى تتصل بالأنماط السلوكية للمجتمعات السابقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنبيائهم ورسلهم الذين أرسلهم الله جلت قدرته وتعالت حكمته مبشرين ومنذرين . وكيف ناوأت هذه المجتمعات وقاومت هؤلاء الرسل بعناد شديد ، بل وإيذاء هؤلاء الرسل وتدمير كل ما يتصل بهم . وكانت حجتهم مع رسلهم عندما يلتمسون العذر لعنادهم قولهم « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » [الزخرف ٢٣] .

ومثل هذا الموقف يؤكد ما إنتهى إليه علم الاجتماع من ضغط وسيطرة الظواهر الاجتماعية على سلوك الناس ، ذلك أن تلك الأقوام بمقتضى ما تلقته من توجيهات وإرشادات أثناء عملية التنشئة الاجتماعية وما تعودوه خلال تلك العملية من عادات وأعراف وتقاليد موروثة لها آثارها السيئة على النفوس ، بحيث تدفعها إلى إعتناق الشر ونبذ الخير ، وهى مدركة تماما فساد ما تؤمن به . ومن هنا فإن هدف القرآن الكريم من سياق قصص الأقوام البائدة ، إنما هو الإتعاظ والإعتبار ، بما آل إليه أمر المفسدين ، وما أصاب مدنهم وقراهم من دمار وخراب لقوله تعالى « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » [يوسف ١١١] وذلك لإصلاح حال المجتمع بالقضاء على عوامل الفساد بين أفراده ووقايته من التفكك والإنحلال الاجتماعيين عن طريق الإيمان بالله وإتباع ما جاء به الرسل مبشرين ومنذرين . والإيمان بما بعد الحياة الدنيا من حياة الآخرة حتى يكتسب الناس الصلاح والهداية . ومن هنا فإن الهدف النهائى من القصص القرآنى والتأمل فى معانيه والوقوف على أسباب ما ينطوى عليه من أحداث ونتائج هو الوقاية من الوقوع فى الفساد من جانب ودفع الناس إلى إتباع ما أمر الله به وما نهى من جانب آخر ، والركون إلى حظيرة الإيمان من جانب ثالث . وبهذا يتم تبصير الناس بتنمية مجتمعاتهم على أسس راسخة من الآداب الاجتماعية والأخلاق القويمة المستمدة من الدين الإسلامى الحنيف[1] .

---

(١) د . حسن الساعاتى ، المرجع السابق ، صفحة ٢٨

وبذلك فإن قصص القرآن الكريم ـ فى رأى المؤيدين لقيام علم اجتماع إسلامى ـ يحمل فى طياته قوانين وسننا اجتماعية مطردة عن فساد المجتمعات وصلاحها ، وأن على أساسها يمكن التنبؤ بما سيحدث فى مجتمع ما من خلال سلوك هـذا المجتمع فى إتباع أوامر الدين أو إجتنابها ، والتنبؤ هو وظيفة العلم الحقيقية التى يسمى إليها « أى الحساب الدقيق للمستقبل على أساس الواقع الحاضر والتغير الاجتماعى عن طريق العمل البناء والوقاية الشاملة » وهذا هو نفس الهدف الذى يسمى إليه علم الاجتماع فى غايته البعيدة التى تكمن فى إصلاح المجتمع والعمل على تنميته وإزدهاره وإن كانت وظيفته الأساسية هى دراسة المجتمعات البشرية دراسة وصفية تقريرية للوصول إلى المعـايير أو القوانين التى تحكمها . وإنطلاقا من هذا التحليل يرى المؤيدون لقيام علم اجتماع إسلامى أن « من الممكن تصور علم اجتماع قرآنى ، يكون مؤسسا على ما فى القرآن من مضمون اجتماعى يحتوى على وصف اجتماعى متكامل للأقوام الغابرة ، تشتق منه قوانين اجتماعية يتدبرها الباحثون والتطبيقيون ويلتمسون فيها المبادىء التى تمكنهم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ من التنبؤ بما سيؤول إليه حال المجتمع ، والقيام بأعمال إيجابية لتنميته عن طريق إصلاح ما فسد منه ووقايته من عوامل الفساد . وإعداد ما يستطاع من قوة روحية وطاقة مادية للنهوض به ورفع مستوى أفراده من الجوانب الروحية القائمة على الايمان بالله وطاعة أوامره وتجنب نواهيه . والجوانب المادية المرتكزة على العلم وما فيه من أسرار ، يهدى الله إليها من يشاء من عباده ،فتتحقق على أيديهم منجزات عظيمة لخير البشر وسعادتهم[1] » .

أما الدكتور أحمد الخشاب وهو من المؤيدين لقيام علم اجتماع إسلامى فإنه يرى أن التفكير الاجتماعى لدى المفكرين الاجتماعيين المسلمين يمثل المرحلة النشوئية للنظرية الاجتماعية ، كما يعتبر هذا التفكير مقدمة تمهيدية لعلم الاجتماع الاسلامى الذى يعد ـ كما يرى الدكتور أحمد الخشاب ـ بناء حضاريا وفكريا متكاملا ينبع من مصادر الفكر الاسلامى ومحتوياته التى تتقاسمها دراسات متشعبة ، بعضها كان ثمرة من ثمار الرحلات العلمية بما إنطوت عليه من مواد أنثروبيولوجية وإثنولوجية ، وبعضها ينبثق من الدراسات التفسيرية والاجتهادات الفقهية التشريعية التى تمس جوهر الحياة

---

(١) المرجع السابق صفحة ٣٠

الاجتماعية ، وتجيب على تساؤلاتها وتواجه متطلباتها ، وتتلمس الحلول لمشكلاتها ، وبعضها كان وليد التبريرات العقلية لأصحاب الفرق المذهبية والكلامية ، بل كان محصلة للاتجاهات السياسية وربيبا للأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، والبعض الآخر كان متضمنا فى الآراء الفلسفية والاتجاهات الصوفية ، بل كان مادة علمية لكثير من الجماعات الصوفية الباطنية ، والحركات السرية المعارضة للأوضاع الاجتماعية التى كانت قائمة يومئذ .

وبنظرة تحليلية موضوعية نجد أن الفكر الاجتماعى الاسلامى قد أدى — فى بواكيره — إلى إنشاء نظرية اجتماعية خلدونية ، بما إنطوت عليه من عناصر تجديدية . وينتهى الدكتور أحمد الخشاب إلى أن « علم الاجتماع الاسلامى » علم وصفى تقريرى موضوعى شأنه شأن غيره من فروع علم الاجتماع العام مثل علم الاجتماع العائلى أو الصناعى أو الاقتصادى أو المهنى . وأن له مداخل Approaches ثلاثة هى :

(ا) المدخل التشريعى الذى ينطوى على الجوانب القانونية والضوابط الاجتماعية ، والذى يرتكز على ما ينطوى عليه الإسلام من نواح تتصل بالتطور فى مختلف السنن الاجتماعية التى سادت فى العصر الاسلامى ،وإستمدت مقوماتها من الرافدين الأساسيين للشريعة الاسلامية وهما :القرآن الكريم،والسنة المطهرة ، ثم القواعد المحددة للاسلوب المنهجى فى الفكر الاسلامى وأهمها « الإجماع[1] » و « القياس[2] » و « المصالح المرسلة[3] » و « الاجتهاد[4] » و « الاستحسان[5] » .

---

(١) الإجماع ، هو إتفاق المجتهدين من المسلمين على حكم شرعى فى الأصول المقررة كعدد الصلوات وأعداد ركعاتها .

(٢) القياس ، وهو إلحاق حكم أمر مجهول بآخر معلوم ، وذلك لعلة مشتركة تجمع بينهما ، مثل تحريم كل ما من شأنه أن يسكر قياسا على الخمر .

(٣) المصالح المرسلة،وهى المصالح الحقيقية التى تحفظ النفس والدين والعقل والمال، وإن لم يرد بها نص شرعى

(٤) الاجتهاد،وهو بذل أقصى الجهد ، لإستنباط الأحكام من مصادرها وتطبيقاتها،

(٥) الاستحسان ، وهو عدول المجتهد عن حكم يثبته القياس الظاهر إلى حكم آخر يثبته قياس خفى ، أو مصلحة ظاهرة أو عرف أو إجماع ، وقد أخذ بذلك كل من الإمامين مالك وأبى حنيفة.

(ب) المدخل الأنثربولوجى الذى يعتمد أساسا على ما قام به الرحالة المسلمون من حكام ومشرعين وقضاة وأئمة إلى مختلف البلاد الإسلامية، وتلك البعيدة عن عاصمة الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة لنشر دين الله ونظمه الإسلامية. وكان من الضرورى قيامهم بدراسة إثنوجرافيه، تتناول دراسة العادات والأعراف والتقاليد، وأساليب وأنماط التنشئة الاجتماعية والثقافية بتلك المجتمعات لإيجاد نوع من التوافق بين النظم الإسلامية الجديدة والنظم القديمة السائدة.

(جـ) والمدخل البنائى الوظيفى الذى يدرس الإسلام كبناء اجتماعى متكامل من العلاقات الاجتماعية المترابطة، والتى تتجسد فى مجموعة من النظم والمؤسسات الاجتماعية ذات الصبغة الإسلامية الخاصة التى تميزها عن غيرها[1] وبذلك فقط ساهم المفكرون المسلمون فى بناء نسق System فكرى وحضارى معين، إنبثق عن وضعيه إسلامية لها إستقلالها الذاتى Suigeneris.

ومن المؤيدين أيضا لقيام علم اجتماعى إسلامى من يقول بقيام هذا العلم مرتكزا — بصفة أساسية — على تقرير ماهو كائن من النظم والعلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الإسلامية وتتبع هذه النظم فى نشأتها وتطورها، ومدى تأثر هذه النظم بالايديولوجية الإسلامية التى تتضمنها عقيدة الإسلام وشريعته... ويرى أيضا إستحالة الحديث عن هندسة أو طبيعة أو كيمياء إسلامية، لأنها «من علوم الكون وصنائعه» التى لم ينزل بها القرآن الكريم، وإن دعا إلى تعلمها، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن الأهلة فانه لم يتدخل فى ماهيتها وكنهها وطبيعة مساراتها، وإنما أجاب بالآية الكريمة «يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج».. ويشترك فى الرأى مع الدكتور حسن الساعاتى من أن علم الاجتماع الإسلامى ليس من العلوم الكونية التى لم ينزل بها القرآن الكريم، وأن هذه العلوم لاتشمل ماينادى به علم الاجتماع الذى هو كما أطلق عليه منشئه عالم الاجتماع الأول العلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون اسم (علم العمران البشرى) أو (الاجتماع الإنسانى) وأكد أن هذا العلم الجديد علم مستقل وله موضوعه ومجاله... إذ قال فى مقدمته (... وكأن هذا علم مستقل بنفسه فانه

(١) الدكتور أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعى، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠ ص ١٦٧ وما بعدها.

ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ، وذو مسائل وهى بيان مايلحقه من العوارض (القوانين) لذاته واحدة بعد أخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا)[١] .

ويضيف صاحب هذا الرأى ـ بعد إستعراض تعاريف علم الاجتماع ـ أن علم الاجتماع هو العلم الذى يتناول بالدراسة التفاعل الناشىء عن تجمع البشر فى المجتمع من خلال العلاقات والظواهر والوقائع الاجتماعية فى إطار منهج علمى موضوعى يعبر عما هو كائن . ولهذا فانه يرى ـ أنه يمكن قيام علم اجتماع إسلامى يختص بدراسة هذه الظواهر والعلاقات والتفاعلات الاجتماعية الناشئة من إحتكاك المسلمين بعضهم ببعض وبغيرهم فى معاملاتهم وعباداتهم وطقوس دينهم) ثم تساءل : إن هذا الاتجاه قد يثير تساؤلا فحواه (هل يمكن التحدث عن علم اجتماع مسيحى أو يهودى ؟) ويجيب على تساؤله بالنفى ، على أساس أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية ، وأنه يمتاز عنها بأنه ليس دين رهبنة ، إذ لا رهبانية فى الإسلام ، وإنما هو دين ودنيا يوائم بين ماتتطلبه الروح وما يتطلبه الجسد معا ، ولم ينظم علاقة الإنسان بربه وضميره من خلال العقيدة والعبادات[٢] . ويهتم كذلك بتنظيم العلاقات بين الإنسان والإنسان من خلال التشريع والمعاملات وكما يحرص التشريع الإسلامى على تنقية العقيدة والسمو بها عن كل الشبهات ، فانه يحرص على تنظيم المعاملات والعلاقات الاجتماعية للمجتمع الإسلامى تنظيما دقيقا . والواقع أن مفهوم المعاملات فى الشريعة الإسلامية يتسع ليشمل كل المباحث القانونية المعروفة فى العصر الحديث ، بما فى ذلك القانون العام والقانون الخاص والقانون المدنى ، وقانون العقوبات بالإضافة إلى المباحث السياسية والاجتماعية[٣] .

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى : مقدمة ابن خلدون، شرح وتعليق وتحقيق . لجنة البيان العربى ، القاهرة ، ص ٢٦٥

(٢) محمد حسين زيدان افتتاحية العدد الثانى من السنة الثالثة لمجلة (الدارة) الرياض ، جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ صفحة ٦

(٣) دكتور زكى اسماعيل : علم الاجتماع الإسلامى الأهداف وخطط الدراسة ومدى ملاءمة المناهج الحالية لتحقيق الأهداف واقتراح أساليب تطويرها ، ورقة لندوة الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية بالاشتراك مع الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية ، فبراير ١٩٧٨ صفحة ١١

ومن الملاحظ على آراء المؤيدين أنها جميعا تجنبت الحديث عن إستقلالية علم الاجتماع الإسلامى وعن تحديد منطقة نفوذه ، وعن القوانين التى توصل إليها مثل هذا العلم المقترح ... الخ ومن هنا فإنه من المستحسن تناول آراء المعارضين والمؤيدين بالدراسة التحليلية فيما يلى :

أولا : من رأى الدكتور على عبد الواحد وافى عدم قيام علم اجتماعى إسلامى على أساس أن الربط بين الآيات القرآنية والنظريات العلمية قد يؤدى — فى حالة ثبوت عدم صلاحية هذه النظريات — إلى زعزعة الثقة بالقرآن الكريم . وذلك أخذا منه بالمسلمة السائدة بين كل علماء الأزهر الشريف والتى تقوم على « رفض الربط بين الدين الإسلامى والعلم » وتلك « مسلمة » إذا أخذنا بها سوف تؤدى إلى عزل الدين الإسلامى عن الناس فى المجتمع . وهذا أخطر ما يمكن أن يتعرض له الدين . يحدث ذلك بالرغم مما رأيناه فى كتاب الله من دعوة صريحة إلى إستخدام نفس منهاج دراسة الكون فى دراسة المجتمع بل وفى دراسة النفس الإنسانية لأن دراسة الكون والإنسان وإكتشاف سنن الله وتأمل آياته فيهما من أعظم الأدلة على إبداعه سبحانه وتعالى وقدرته فى خلقه . وعلى هذا النحو فإن علم الاجتماع يمكن أن يكون ماديا مغرقا فى ماديته — كأى علم تجريبى آخر — كما حدث بالفعل له ولغيره من العلوم الإنسانية ، بل والعلوم الطبيعية ، كما أوضحنا . ويمكن أن يوجه وجهة إسلامية كما سيتضح فيما بعد .

وعلى ذلك فإن الجهود التى تسعى إلى إستبعاد أو رفض قيام علم الاجتماع الإسلامى ، من الأفضل لها بذل كثير من المحاولات لتحديد موضع هذا العلم فى النسق المعرفى الإسلامى العام . ومعنى ذلك أننا كعلماء اجتماع مسلمين ، مطالبون بما هو أكثر من مجرد إنشاء فرع جديد لعلم الاجتماع ، يطلق عليه علم الاجتماع الإسلامى . إننا — والحق يقال — مطالبون بالنظر إلى علم الاجتماع من منظور شمولية الإسلام ، ليصبح هذا العلم الذى يشمل مختلف جوانب سلوك ومعاملات وعلاقات الإنسان الدينية والدنيوية موجها وجهة إسلامية ، ولعل الأزمة الحقيقية التى يواجهها علم الاجتماع الإسلامى لدى المعارض لقيام هذا العلم هى أزمة المعرفة كلها فى حضارة الغرب ، والتى يمكن تلخيصها فى عدم التوازن المعرفى . ذلك أن التقدم التكنولوجى والانجازات الصناعية الحديثة يعوزها الإرشاد والترشيد ، بعد أن صار الخلل سمة العصر ، سواء من الوجهة الاقتصادية أو الاجتماعية ، وكذلك من الوجهة المعرفية . ولعل من أعظم صور « الخلل المعرفى »

بالرغم من إنفجار المعلومات ، ما يسمية « أو ينهاير » صراع العلم والثقافة وما يسمى أحيانا فى بلادنا الإسلامية بصراع العلم والدين ، وما يسمى فى عبارة أكثر حداثة « تقدم التكنولوجيا وتخلف الايديولوجيا »(١)

وينسى هؤلاء المعارضون أن دراسة الإنسان من التكاليف القرآنية الصريحة ، التى توجب على كل مسلم أن يبحث فيما حوله وما فى داخله ، إذيقول الله سبحانه وتعالى « خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » [التغابن ٣] وقوله تعالى أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ، أو لم يسير فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها ، أكثر مما عمروها . وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » [الروم ٨ ، ٩] وقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، إلا أنهم فى مرية من لقاء ربهم ، إلا أنه بكل شيء محيط » [فصلت ٥٣ ، ٥٤] وكذلك قوله تعالى « وفى الكون آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » [الذاريات ٢٠ — ٢٣] وهكذا نرى أن دراسة الفرد ونفسه والجماعات والشعوب السابقة والمعاصرة والبحث من خلال هذه الدراسة عن العبر والعظات التى تيسر لنا الفرصة للتنبؤ الدقيق . ويؤكد ذلك الحديث النبوى عن القرآن الكريم « كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن إبتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا ينقضى عجائبه » .

ثانيا . من رأى الدكتور حسن الساعاتى قيام علم اجتماع إسلامى ، إستنادا إلى أن علم الاجتماع من العلوم القرآنية ، أى التى تتصل بالقرآن الكريم من ناحية تفسيره

Hearnshaw, L. S. : The Psychology of Religion: in (1) Brown, B. : Ref. No. 62.

أو هدايته أو إعجازه ، ويدخر فى إطارها علوم الدين الإسلامى بصفة خاصة وعلوم اللغـــة العربية بصفة عامة ... وأن علم الاجتماع ليس من العلوم الـكونية التى تتناول المعارف والصنائع الـكونية ، على الشكل الذى أوضحناه من قبل .

وبالرغم من أن عبدالرحمن بن خلدون عندما أقام علم العمران أو علم الاجتماع رفض الإتجاهات الفـكرية التى كانت سائدة يومئذ وهى :

(ا) البحوث التاريخية الخالصة . وهى البحوث التى يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه وما هى عليه الآن دون إستخلاص بعض النتائج من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها .

(ب) بحوث وعظية وإرشادية . وهى البحوث التى تدعوا إلى المبادىء التى تقررها نظم المجتمع وما يسوده من معتقدات وتقاليد إرتضاها المجتمع وقبلها العرف الخاقى ، وذلك ببيان محاسنها وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها فى نفوسهم ، وحثهم على التمسك بها وتحذيرهم من تعدى حدودها . وإيضاح ما ينبغى أن يتخذوه فى تطبيقها .

(ج) بحوث فيما ينبغى أن يكون وهدفها الرئيسى هو ما ينبغى أن تـكون عليه الظواهر الاجتماعية طبقا للمنظور الذى ينظر من خلاله كل منهم إلى المجتمع . بمعنى أنها دراسات إصلاحية ترمى إلى تغيير النظم وإصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذى يلائم نظريات أصحابها فى العدالة والسعادة والفضيلة وما إلى ذلك[1] .

بالرغم من هذا الوضوح الفـكرى لدى إبن خلدون فإن الدكتور الساعاتى يضم علم الاجتماع فى هذا التصنيف العجيب ضمن العلوم القرآنية ، أى ضمن البحوث الوعظية والإرشادية لدى إبن خلدون ، تلك التى رفضها المؤسس الأول لعلم الاجتماع وإتجه إلى منهاج العلم الحديث وإتخـذه أساسا لقيام علم العمران ومن ثم قرر أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير فى نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة مثل القوانين التى تخضع لها القمر فى تزايده وتناقصه ، والليل والنهار فى إختلافهما باختلاف الفصول ، كما هدته تأملاته العميقة لشئون الاجتماع الإنسانى إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية الظواهر الـكونية ، وأنها محكومة من مختلف جوانبها بقوانين طبيعية تشبه القوانين

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : التفـكير الاجتماعى .. مرجع سابق : صفحة ١٢٤

التى تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات وما إلى ذلك . وعلى ذلك فإننا لو أخذنا بالتصنيف الذى إعتمد عليه الدكتور الساعاتى للعلوم، يمكننا القول إن علم الاجتماع يقع فى المجموعة الثانية إى مجموعة العلوم الكونية طبقا لرأى إبن خلدون السالف الذكر .

وهذا الذى نقول به هنا لايخفى على بصيرة الدكتور الساعاتى ، ولكن يبدوا أنه أراد بهذا الرأى المخالف لطبيعة الاجتماع الإنسانى إسترضاء بعض علماء الدين الإسلامى، كما فعل الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى شيئا مماثلا ، عندما أعلن – على عكس سائر علماء العالم كله – أن مشكلة العالم ندرة أو قلة السكان لا كثرتهم ، لكى يأتى رأيه متفقا مع قوله صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة »

ثالثا : أما الدكتور أحمد الخشاب الذى يرى ضرورة قيام علم اجتماع إسلامى إستناد إلى حاجة المجتمع المعاصر لمثل هذا الفرع الجديد لعلم الاجتماع ، حيث سار مع الفكر الاجتماعى لدى الفلاسفة المسلمين حتى وصولهم إلى مرتكزات النظرية الاجتماعية فى شكل بناء حضارى وفكرى متكامل ينبع من مصادر الفكر الإسلامى ومحتوياته التى تتقاسمها دراسات متشعبة .. الخ . ولم يكتف الدكتور أحمد الخشاب بذلك . وإنما حدد المداخل إلى هذا العلم بثلاثة مداخل على النحو السالف الذكر ولكنه مثل الدكتور الساعاتى لم يبين مدى إستقلالية العلم ومنهاجه وما إلى ذلك مما يجعل مجال العلم المقترح مختلطا بمجالات علوم أخرى ،

رابعاً : أما قول البعض بأنه لا يجـــد فارقا بين وظيفـــة علم الاجتماع وعلم الاجتماع الإسلامى إذ يرى أن علم الاجتماع أو علم الاجتماع الإسلامى يتناول بالدراسة « .. التفاعل الناشىء عن تجمع . . . » بمعنى أنه يستخدم كلمة « تجمع » مكان كلمة أو مفهوم « اجتماع » مع أو علم الاجتماع يدرس التفاعل الناشىء عن الاجتماع البشرى وليس التجمع البشرى فحسب كما أنه فى حالة تشابه ما يتناولانه وبنفس الأسلوب فلا معنى لقيـام فرع جـديد من فروع علم الاجتماع تحت اسم « علم الاجتماع الإسلامى »

ويشارك الدكتور الساعاتى الرأى فى أن علم الاجتماع من العلوم القرآنية وليس من العلوم الكونية ، ثم يحرم على غير المسلمين إقامة علوم اجتماعية مسيحية أو يهودية

إستنادا إلى أن الإسلام هـو خاتم الرسالات السماوية ، وأنه يمتاز عنها بأنه ليس دين رهبنة، إذ لا رهبانية فى الإسلام، وإنما هو دين ودنيا يلائم بين ما تتطلبه الروح والجسد معاً ، ولما ينظم علاقة الإنسان بربه وضميره من خلال العقيدة والعبادات . . . وأنا أوافقه على رأيه هذا ، ولـكن لا يوجد مسيحى واحد أو يهودى واحد يقرنا على هذا الرأى ، لأنه رأى يمتاز بالتعسف ، والتعسف ليس من العلم ، وبالعكس من ذلك فإن المسيحى أو اليهودى أو غيرهما يعتبر دينه أفضل الأديان وإلا لتركه إلى غيره ، كما نعتبر نحن الدين الإسلامى أفضل الأديان . ومن جهـة أخرى فإن الماركسيين ألفوا بالفعل فيما يسمى بعلم الاجتماع الماركسى(١) .

مجال علم الاجتماع الاسلامى :

لما كان الدين وعلم الاجتماع الإسلامى متكاملين ، بمعنى أن الدين يركز على معنى وأهمية الحياة الدنيا وربطها بالحياة الآخرة ، وعلم الاجتماع الاسلامى يركز على طبيعة الفرد والجماعة والمجتمع. ومن ثم فإن على الاخصائى الاجتماعى أن يعرف ويقدر أهمية الدين فى توفير التكيف والتوافق الاجتماعى للفرد وللجماعة وللمجتمع، وأن هذا الاخصائى ينبغى أن يعد ــ مقدما ــ لتناول مختلف المشكلات الاجتماعية ، كما يعد لمعيرها ، وأن تنقى مشاعره الدينية وقيمه وسننه الاجتماعية، لـكى يكون على بينة من آثارها فى التوجيه والإرشاد الاجتماعى ومن جهة أخرى فإنه فى ظل ثقافة شديدة التعقيد ينبغى أن يكون هناك نسق من القيم والمبادىء والمعايير والعادات والأعراف والتقاليد، يكون بمثابة الضمير الذى يستخدمه الإنسان فى قياس وتقدير المواقف الاجتماعية، وهذه العناصر الاجتماعية تتطور مع الأيام إلى وحدات معيارية فى الضمير الاجتماعى لدى الانسان ... هذا النسق ينبغى أن يكون واضحا فى ذهن الاخصائى الاجتماعى لـكى يستخدمه فى قياس وتقدير المواقف الاجتماعية التى يطلب منه ــ أو إليه ــ التدخل من أجل الوصول إلى حلول لها.

ومن هنا يمكن تحديد مجال علم الاجتماع الاسلامى فى :

١ ــ توفير التـكيف الاجتماعى للناس على أساس من الدين الاسلامى مع العوامل الأخرى .

٢ ــ التدين بالمعنى الاسلامى عملية واقعية لا وجدانية بحتة مما يحتم الربط بين الدين والاجتماع الإنسانى .

٣ ــ الربط بين المنهاج الربانى والمنهاج العلمى .

---

(١) دكتور عبد الباسط عبد المعطى : علم الاجتماع الماركسى .

وفيما يلي يمكن تناول هذه الموضوعات بالدراسة والتحليل

أولا : التكيف الاجتماعي الاسلامي :

إن النظرة التحليلية إلى الحياة الاجتماعية في الدول المتقدمة تؤكد سوء التوافق الاجتماعي بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والمجتمع ، ويرجع ذلك ـ وكما يقولون هم في مؤتمراتهم المعنية بالشئون الاجتماعية والنفسية والقانونية ومايتصل منها بشئون الحرية وجناح الأحداث وما إلى ذلك ـ يرجع ذلك إلى عوامل كثيرة منها :

ا ـ أن كمية الجهد المبذول شاقة وذات ثقل على الأعصاب ، مما يؤدى إلى الإسراف في العبث والمجون لتعويضه، ومن ثم إلى الإنحراف وما إلى ذلك من الظواهر الاجتماعية المختلة. ونحن وإن كنا نقر وجود الجهد الشاق، فإننا لا نقر الإنصراف إلى العبث والمجون فقد بذل المسلمون الأوائل فى نشر الاسلام على إمتداد رقعة الدولة الاسلامية الأولى فى فترة قصيرة وسريعة جدا من الزمن وبصورة لا مثيل لها فى التاريخ . بالإضافة إلى توفير فرص التكيف الاجتماعى السليم بين العرب القادمين بإسلامهم وأفراد المجتمعات المستقبلة لهؤلاء العرب ، بإقامة الحق والعدل بينهم وتنظيم الحياة الاجتماعية للملايين وإدارة هذه المجتمعات إدارة سليمة . . . إلخ ، وقد قام بهذا الجهد الضخم عدد قليل جدا من آلاف المجاهدين المسلمين ممن يعدوا على أصابع اليد الواحدة ولم يعهد عليهم أن تفشى بينهم الإنحراف أو المجون أو الميل إلى الإنتحار أو الأنانية وحب الذات أو الإنطواء على النفس أو التقصير فى صلة الأرحام أو الإنغماس فى تناول الخمر والمخدرات . . . إلخ .

ب ـ إن حدة الصراع فى الحياة الغربية المعاصرة هى التى تدفع الناس إلى معاقرة الخمر وممارسة الرذائل وإرتكاب الجرائم ، ولاجدال فى وجود هذا الصراع، ولكنه فى حد ذاته لا يفسر تلك الظواهر المرضية، وانظر للمقارنة أولئك المسلمين أنفسهم وهم يخوضون حرباعاتية ضد أكبر امبراطوريتين فى التاريخ عن يمين وعن شمال، ويدخلون معهما فى معارك طاحنة وهم الأقل عددا وعدة، أمام الكثرة العددية لجنود الامبراطوريتين وشعوبهما، وأمام الخبرة العسكرية المتفوقة وأدوات القتال المتقدمة ومع ذلك فإن مايترتب على الحروب من فقدان القيم الاجتماعية الايجابية وما يترتب على ذلك من إنحلال وتمسح وأنانية .

(ج) إن ضغط الحضارة المادية على أعصاب الناس هو الذى يؤدى إلى انتشار الأمراض اللاأخلاقية فى المجتمع، وبالرغم من أن هذا صحيح، فإن هذا العامل نتيجة قبل أن يكون سببا. وهو نتيجة لأسباب أخرى كامنة، بدليل المسحة المادية الجافة التى تمتاز بها هذه الحضارة، وانعكاس جفاف الحضارة المادية على نفوس الناس، ولاسيما على نفوس هؤلاء الذين لم يتبعوا نبى أمتهم ولم يعبدوا الله ولم يجتنبوا الطاغوت ولم يهدهم الله. وفى هذا يقول سبحانه وتعالى «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة» وتلك دعوة الأنبياء من لدن آدم حتى محمداً صلى الله عليه وسلم

هذه الأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر الاجتماعية المعتلة، قلما ينتبهون إليها أو يتذكرونها لطول الأمد بينهم وبينها، ومن هذه الأسباب عدم ذكرهم لله، وعدم لجوئهم إليه فى الملمات، وعدم الإيمان به الإيمان الحق، والعمل بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى الله عنه. ذلك أن الله يقول «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ومعنى ذلك أن حلول السكينة مكان الاضطراب فى القلوب لا يتأتى إلا بذكر الله. وليس الذكر المطلوب — بطبيعة الحال — هو الذكر باللسان وحده. ذلك الذكر الذى لا يذهب بعيدا عن الشفتين، وإنما الذكر المقصود هو الذى يتآزر فيه اللسان والقلب معا، ويصدقها العمل. ذلك الذكر الذى يجعل صاحبه من هؤلاء الذين يصفهم الله بقوله «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ماخلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته. وماللظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان، أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد» [آل عمران ١٩٠ — ١٩٤].

فإذا استمع للمنادى السماوى، استجاب لتوجيهات الله وإرشاداته وعمل بما يرفع من درجة إيمانه بالله وبكتبه وبرسله، فإن الجزاء الذى ينتظره من الله سبحانه وتعالى فى الآيات التالية للآيات السابقة «واستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيلى، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب» (آل عمران ١٩٥)

ذلك هو الذكر المطلوب لله وتلك هى التقوى التى يتصف بها أولو الألباب ــ اى المؤمنون ــ وهما اللذان يؤديان إلى تلك الطمأنية وإلى السكينة التى ذكرت فى قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد ٢٨) . والسؤال الذى يأتى إلى الأذهان فى تلك اللحظة يدور حول كيفية تحقيق الذكر إلى تلك الطمأنينة التى تغمر قلوب المؤمنين دون غيرهم من الناس ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تتركز فى :

١ ـــ اعتماد الأفراد فى المجتمعات ذات الحضارة المتقدمة على الجوانب المادية وحدها فى تعاونهم وتنافسهم وصراعهم ، سواء كأفراد أو جماعات أو دول . والجوانب المادية وحدها كثيرا ماتنفد أو تزول أو تتبدل فى تنافسها أو صراعها ، ومن ثم فإن الطمأنينة لا تعرف إلى قلوبهم طريقا طوال فترات تعاونهم أو تنافسهم أو صراعهم أو بالأخرى طوال حياتهم . على حين أن المؤمن على العكس من ذلك ، يتخذ من الأسباب (المتغيرات المستقلة) كما أمره الله ، ويعد العدة كاملة للتنافس أو للصراع ، ويحسب بناء على ذلك (المتغيرات التابعة) ثم ــ بالإضافة إلى ذلك ــ يتوكل على الله وهو مالا يفعله إنسان الحضارة الغربية المتقدمة ، وهنا الفارق العظيم بين المسلم وغير المسلم .

والمسلم المؤمن بالله إيمانا فعليا لا يقصر فى إتخاذ الأسباب (المتغيرات المستقلة) لأنه يعلم أن لله سننا فى الكون لا تتحقق النتائج (المتغيرات التابعة) بدونها ، وأن هذه السنن تقضى بوجود « علاقات وظيفية » تربط بين المتغيرات المستقلة من ناحية والمتغيرات التابعة من ناحية أخرى ، وذلك بالاضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرتب النتائج على الأسباب أو العلل على المعلولات إن شاء . ومن ثم فهو يعتمد على القوة الحقيقية لله ، لا على تلك القوى الظاهرة التى لا تؤدى فى ذاتها إلى النتيجة المرجوة إلا بإرادة الله ، ومن هنا فان المسلم المؤمن يتقبل النتائج أيا كانت بنفس راضية وقلب مطمئن لأنها تتفق مع إرادة الله ، وهنا نرى الفرق الثانى بين المسلم وغير المسلم .

والمسلم المؤمن بالله إيمانا فعليا إنسان طموح ، ولكن طموحه مشروط بشروط الإسلام ومن ثم فإن سعيه على الأرض ــ كما هو معروف ــ ينتهى باحدى نتيجتين : النجاح أو الفشل . وبذلك فان النجاح يزيد المؤمن إيمانا ولا يجعله جشعا فى الوصول إلى نجاحات أخرى مهما كان الثمن ، كما أن الفشل الذى يصيبه ، لايفقده إيمانه ، وإنما يعتبره إبتلاء من الله يدفعه إلى مراعاة الله فى كل كبيرة وصغيرة حتى لايحيق به الفشل مرة أخرى . . . على حين أن غير المسلم يغلظ النجاح قلبه ويدفعه لا ــ إلى ــ طلب

القناعة وإنما إلى طلب المزيد منها لقوله تعالى « كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى [العلق ٦ – ٧] وبالتالى فلا يقنع بالنجاح الذى حققه وإنما يدفعه الطموح غير المشروط بشروط الإسلام ، يدفعه إلى طموح جديد أو إلى قلق جديد ... بينما الفشل يجعله فى حالة انهيار وربما يؤدى به إلى الإنتحار .

أما المسلم المؤمن فى كلا الحالين مطمئن البال ، راضى الحال ، فإن أصابه خير حمد الله وشكره وأن أصابه شر عرف أن ذلك من عند الله وبأمره ، وبذلك فهو مع الخير والشر يخطو خطواته التالية مستندا إلى ذات القوة التى حققت له النجاح فى المرات السابقة أو أدت به إلى الفشل فى آخر مرة ، ومتوكلا على القدرة الحقيقية التى تملك ناصية الأمر وهى قدرة الله سبحانه وتعالى بمعنى أنه يعلم أنه لايتم شىء فى هذا الكون إلا ما قدره الله ، وأن قدر الله هو الذى ينفذ فى الحقيقة وليست النتائج (المتغيرات التابعة) المتصورة أو المتوهمة من الأسباب (المتغيرات المستقلة) .

والقضية فى حس المسلم المؤمن لاتنتهى عند تلك النقطة ، وإنما تتعداها إلى ما هو أبعد فى رد فعل مرارة الفشل عن النفس ، أنه – ما دام – قد توكل على الله مع اتخاذ الأسباب – يحس دائما أن قدر الله فى أى حالاته هو الخير بالنسبة له ، فيصبر على ما أصابه مطمئنا إلى قدر الله ، ومطمئنا إلى الخير المدخر له عند الله . وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « عجبى للمؤمن ، كل أمره خير ، إن أصابته سراء ، شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . وليس ذلك إلا للمؤمن » .

وترتيبا على ذلك يقبل المسلم المؤمن بالله على كل أنشطته وهو يقول – كما علمه الله – « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـــا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » [التوبة : ٥١] وفى الإيمان بمحتوى هذه الآية الكريمة العامل الأساسى للطمأنينة التى يشعر بها المسلم دون غيره فى جميع الأحوال . بيد أن لهذه الطمأنينة جانبا – غير الذى سبق الحديث عنه – لايحسه إلا المؤمن وهو :

أن الفشل فى الحياة الدنيا بالنسبة لغير المسلم ، على رأس أسباب القلق والاضطراب النفسى والعصبى ، وكثيراً ما تدفع هذه العوامل بغير المسلم إلى أدمان الخمور وربما إلى الإنتحار لأنه لايستند – مثل المسلم المؤمن – إلى تلك القوة العليا ، قوة الله ، ولأنه لايتوكل على الله، وبالتالى لايؤمن بقدر الله النافذ فى جميع الأحوال وأيا كانت الأسباب . كما أنه – وللأسف – لايؤمن باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر ليس من الأمور المؤجلة فى حس المسلم المؤمن ، ولكنه أساسا لنشاط الإنسان فى الحياة الدنيا ، ومن هنا كانت له تأثيرات ضخمة على معاملاته وعلاقاته ونشاطاته ..وبالعكس من ذلك بالنسبة لغير المسلم ، فالحسية فى حسه وفى تصوره هى الحياة الدنيا وحدها بلا زيادة هى تلك الحياة القصيرة بسنواتها المحدودة التى يعيشها على هذه الأرض ، أو فى واقع الأمر مجموع سنوات الصحة والنشاط والقدرة على الإنتاج فى عمر الإنسان ، قبل أن تحل فترة الهرم والشيخوخة، أو قبل أن تقبض روحه فى موعد غير الموعد المألوف .

والتساؤل هنا هو كيف يكون حاله إذا كانت القضية فى نظره وفى حسه على تلك الصورة ؟ والإجابة تتركز فى تكالبه على متاع الأرض، لينتهب أكبر قدر منه قبل فوات الأوان ، والحياة فى نظره فرص ، ومن ثم فإنه يسعى جاهدا حتى ينتهز كل فرصة قبل أن تفلت منه بغير لون من ألوان المتاع .وفى حرصه الشديد على الإستفادة من كل فرصة يكمن القلق المستمر ، ومع هذا الاستمرار يتحول القلق إلى صراع ، صراع يأخذ فى طاحونته الأفراد والجماعات والدول والشعوب . وليت هذا الصراع من أجل المثل العليا وإرتقاء الإنسان والتمكين له فى الأرض وضمان الحياة الكريمة له فى الآخرة، ولكنه صراع — كلما زاد ضراوة — يهبط بمستوى الانسان إلى مادون مستوى الحيوانات العجم.

وعلى ذلك فإنه لا النجاح يشبع نهمه ويوفر له الطمأنينة ، ولا الفشل يحميه من الدمار النفسى ، فهو فشل فى تلك الفرص المحدودة التى تحدها سنوات عمره القليلة ، ويحدها الفناء الذى لا رجعة منه — فى حسه — ولا متاع بعده ، ولا عوض يعوضه .. والنتيجة أن غير المسلم فى كلتا حالتى النجاح والفشل يفقد طمأنينته ، بل ويفقد ذاته.

على حين أن المسلم الذى يؤمن بالله وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ، شأنه متباين عن ذلك كل التباين ، فهو بشر له آمال وغايات وأهداف تدفعه إليها دوافع شتى شأنه شأن كل الناس مسلمين وغير مسلمين « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث .. » [آل عمران ١٤]. ومن ثم فانه يشبع دوافعه بالأسلوب الدنيوى ولكنه يضع كتاب الله نصب عينيه ، ففى بقية الآية السابقة والآية التى تليها أهداف أخرى يرغب فيها المسلم المؤمن فتدفعه دوافعه إلى محاولة تحقيقها باتباع أوامر الله فى الدنيا حتى تكون أوبته طيبة فى الآخرة لقوله تعالى « ... ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن

المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد » [آل عمران ١٤ – ١٥] ففى هاتين الآيتين توجيه للمسلم المؤمن إلى ملاحظة الحياة الأخرى التى سيأوب إليها « والله عنده حسن المآب » وفى هذه الأوبة متاع خير من متاع الحياة الأولى ، متاع أخلد وأبقى . ومن هنا فإن المسلم المؤمن يقنع ويرضى بما قسمه الله له من متاع الحياة الدنيا على أمل الاستمتاع بمتاع الحياة الآخرى خالصة له لقوله تعالى « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ . قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (الأعراف ٣٢) بمعنى أن الإنسان المسلم له أن يستمتع بزينة الحياة الدنيا فى حدود ما أذن الله وأباح ، والله لايحرم الطيب من متاع الأرض . ولكن دون تكالب ولانهم ولا صراع غير بناء .

هذا الانسان المسلم الذى يرضى بالمباح والمحرم من الله لابد له من الحرمان من متاع الدنيا – والفشل نوع من الحرمان – بمعنى حرمان نفسه وبحيث لايجعلها تذهب حسرات . ذلك أن ما فات « المتغيرات التابعة » فى الحياة الدنيا – كان بقدر من الله ، بعد اتخاذ الأسباب « المتغيرات المستقلة » والتوكل على الله – على اعتبار أن ما فات لن يضيع وإنما هو محفوظ عند الله . بل إن الله يعوض خيرا منه ، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ولا حرج على فضل الله ، أو بالحياة فى جنة الخلد التى « فيها مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

إذاً المسلم المؤمن يصبر على ما يصيبه من حرمان فى هذه الدنيا ، وهو يرجو حسن ثواب الآخرة ، موقنا بأن ما عند الله خير وأبقى ، سواء فيما يجده أو يضيع منه خلال عمره المحدود على هذه الأرض . ويظل دائما مطمئنا إلى قدر الله ، يسعى وفى قلبه السكينة ... لا الفرح بنعمة الله يطغيه، ولا الحسرة على فاته تتلف نفسه أو تصيبه بالخبل والاضطراب . ومن هنا علك الدواء الناجع ، أى الإيمان الكامل . المستقر فى القلب والوجدان ، يعيد إلى ذاته تكيفها الاجتماعى بالصورة الإسلامية ، دون ما حاجة إلى خمر ولامخدر ، ولا دافع إلى جريمة ، ولا جنون ، ولا إنتحار ... الخ . وذلك هو قمة التكيف الاجتماعى الايجابى بالمعنى الإسلامى .

التدين عملية واقعية لا وجدانية فحسب :

إنساق علماء الاجتماع المسلمين وراء مزاعم « أوجست كونت » فى إستحالة تعميم استخدام المنهاج التيولوجى الميتافيزيقى . وبالتالى المنهاج التيولوجى العلمى . وإخضاع

جميع المقول له ، مع إهمال النتائج العلمية التي حققها التفكير في ضوء المنهاج الوضعي أو العلمي . وذلك بالرغم من علمهم بوجهة نظر كونت في الدين ، بل وباختراعه دينا خاصا به ، ثم دعوة الناس إلى الإيمان به .. وكان عليهم أن يتعمقوا الدين الإسلامي ليروا الفرق بينه وبين الأديان الأخرى ، أو على الأقل بينه وبين مفهوم « كونت » للدين .

وكان أولى بعلماء الاجتماع المسلمين أن يأخذوا بما جاء في محكم كتاب الله العزيز «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه،فاذا هوزاهق» وهذه هي مهمة الأنبياء والمصلحين وتابعيهم ، وهي قذف الحق على الباطل . والحق هو العقيدة الصافية وما تبعها ،والباطل هو ما دون ذلك .

ولم ينتبه علماء الاجتماع المسلمين إلى أن الإيمان على طريقة الإسلام ليس عملية وجدانية بحتة ، كما قد ننظر إلى الإيمان في ضوء الأحوال البشرية المعاصرة ، التي عزلت الدين عن واقع الحياة وجعلته وجدانا مستكنا في القلب ، أو على حد تعبيرهم علاقة بين العبد وربه ، محلها القلب ولا صلة لها بواقع الحياة ونسي هؤلاء أن سمة الهدوء والطمأنينة التي يتسم بها المسلم المؤمن الحق ، هي سمة ذات طابع شعوري سلوكي .وإن كان الجانب الشعوري « الإعتقادي » فيها هو المنطلق ، والسلوك هو الإنعكاس الناشيء عنه .

ومن هنا فإن الإيمان بالأسلوب الإسلامي له مقتضى عملي ينبغي أن يتحقق في واقع الحياة الدنيا ، وهو إدارة شئون هذه الحياة كلها بمقتضى التعاليم الإلهية أو بالأحرى بمقتضى المنهاج الرباني . وما لم يتحقق الإيمان طبقا لذلك ، يظل نية طيبة لارصيد لها من الواقع . وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمني .ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » كما يقول الله تعالى شأنه « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجزى به ولا يجد له من دون الله وليا ولانصيرا .ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (النساء ١٢٣ — ١٢٤) .

ولما كان الإنسان بالضرورة وحدة متكاملة ، فإن كل جانب من جوانبه يؤثر في الآخر ، وإن كان هذا لاينفي سيطرة أحد الجوانب على بقيتها في موقف معين ، الأمر

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ، نشأته وتطوره ، مرجع سابق ، صفحة ٢٤١

الذى يتطلب البحث عن توفير الاتزان أو التوازن لهذه الجوانب . وهذا الاتزان سمة شعورية وسلوكية أيضا ، وإن كان السلوك العملى فيها هو المنطلق ، والجانب الشعورى — كما قدمنا — هو الإنعكاس الناشىء عنه . ولا وسيلة إلى هـذا الإتزان أو التوازن سوى المنهاج الربانى . وعلى ذلك فإن المسلم المؤمن الحق ، هو الذى يتخذ هذا المنهاج دستورا يستمد منه سلوكه وفكره ومشاعره كلها. ومن ثم يصدق القول بأن « لا إله إلا الله » هى فى الحقيقة منهاج حياة . ومثل هذا المسلم المؤمن الحق هو الترجمة العملية لمنهاج الله فى الأرض .

ولعل المجتمعات الإسلامية كلها تفصل بين الدين والدنيا، باستثناء المملكة العربية السعودية التى تتخذ من المنهاج الربانى دستورا لها(١) . فما هى خصائص هذا المنهاج ؟، وما هى ضرورته بالنسبة للمجتمعات الإسلامية ؟ .

ثالثا : الربط بين المنهاج الربانى والمنهاج العلمى :

تحدثنا فى الفقرتين السابقتين عن التكيف الاجتماعى بالصورة الإسلامية ، وعن التدين كعملية واقعية ، لا وجدانية .. تحدثنا عنهما كجانبين من مجال علم الاجتماع الإسلامى . وفى هذه الفقرة نتناول كيفية الربط بين المنهاج العلمى فى البحث الاجتماعى، والمنهاج الربانى — رغم التباين — بين المنهاجين من وجهة نظر « أوجست كونت » كما قدمنا من قبل .

ذلك أننا إذا تصفحنا مسائل العقيدة ، وما يجب الإيمان به ، عرفنا أن منها مالا يثبت إلا عن طريق العقل وليس للنقل فيه كبير جدوى. ومنها مايثبت عن طريق النقل وليس للعقل فيه مجال . فطريق إثبات وجود الله والتصديق بصفاته الواجبة والمستحيلة عليه والتصديق برسله طريق العقل ولا يمكن الوصول إلى اليقين الذى لايقبل الشك، والزوال فى الإيمان بالله ، إلا بالاعتماد على الدليل العقلى . ولذلك كانت دعوة القرآن الكريم الصريحة العامة للبشرية ، إلى النظر فى الكائنات وخصائصها وصفاتها ليعلم العقل ، ويصل من هذا الطريق إلى معرفة الله والتصديق بوجوده وشمول علمه وقدرته. ولذلك ذم القرآن المقلدين .

ومن جهة أخرى فإن إثبات النبوة والرسالة، بالأمر المعجز الخارق للعادة، الموافق

(١) لقد عاش المؤلف فى مصر موطنه الأصلى ، وفى السعودية وفى الكويت .. وقرأ عن بقية المجتمعات الإسلامية ومن هنا تأتى الكتابة عن معايشة وقراءة .

لما إدعاه الرسول ، فإن العقل يدرك ذلك بداهة . وأن صاحب المعجزة صادق ، لأن الله لايؤيد الكاذب . فالإيمان بالله والملائكة والبعث والميزان والصراط وعذاب القبر وجهنم والجنة .. الخ ، واجب التصديق بكل ذلك ، لأن هذه صور سمعية ورد بها الشرع عن طريق التواتر ، فطريقة إثباتها الدليل النقلى لا العقلى . غاية ما يقال إن شرط ما ورد الشرع بوقوعه أن يكون فى نفسه ممكنا ، لامستحيلا . وإلا وجب تأويل الشرع لأن العقل إذا تصادم مع النقل وجب تأويل الشرع . وعلى سبيل المثال فإن العقل لايثبت المعية الحسية لله سبحانه وتعالى ، فى قوله « وهو معكم أين ما كنتم » فوجب تأويل الشرع بالمعية المعنوية ، وهى الحفظ والرعاية أو العلم مثلا .

فقد خلق الله الإنسان وكرمه بنعمة العقل الذى يفكر به ، ويميز على طريقة الخير من الشر ، والهدى من الضلال وكرمه كذلك بالإرادة التى يختار بها طريقه فى الحياة ، إبتداء من العقيدة التى يعتنقها . إلى سلوكه اليومى الذى يسلكه بمحض إختياره بدون ما قهر أو إكراه ، ومن ثم حث الإسلام على النظر وإعمال العقل ليؤمن إيمانا جازما بالقوة الخالقة القادرة — وهى الله جل وعلا — والسبيل إلى هذا الإيمان هو الإقناع الفكرى وإزالة الأغشية التى تحول بين الانسان وبين إيمانه بحرية .

والإسلام يخوض هذا الموضوع الفكرى — وهو واثق من الحق الذى يدعو إليه .. وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام مخاطبا قومه — كما علمه — ربه بقوله سبحانه وتعالى «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. » وينهى الإسلام الإنسان عن أن يسير فى الحياة بغير دليل يقنع به . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى « ولاتقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » ويعتبر عدم إعمال العقل ذنبا يستحق الانسان عليه العذاب يوم يلقى ربه — وفى هذا يقول سبحانه وتعالى واصفا بعض أهل النار « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير .. » ومعنى هذا أن الذى لايستخدم عقله يعد مذنبا أمام الله وكأنه إرتكب خطيئة فى حق نفسه لأنه أهمل أسمى ما ميزه الله به وهو العقل ..

ولهذا نرى الإسلام يرفض أمرين ، ولا يرضى للمسلم أن يتصف بواحد منهما :

— الأمر الاول : لا إكراه فى الدين ، فحرية الاعتقاد مكفولة ، فى إعتبار الإسلام وذلك أسمى تكريم يكرمه هذا الدين للانسان . أنه يحترم إرادته وفكره ومشاعره ويترك أمره لنفسه ، ويحمله تبعة عمله . وتلك هى أخص خصائص التحرر الإنسانى .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ... » ويقول « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ويقول جل ذكره « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » أى بينا له الطريق، وعليه أن يختار ما يشاء . وفى نفس الوقت عليه أن يتقبل مسئولية اختياره ، فما دام أن القرار قد اتخذه بمحض إرادته فعليه أن يتحمل مسئوليته كاملة ، بل إننا نجد آية فى القرآن الكريم تؤكد قيمة « الإرادة الانسانية » حينما تبين أن أصحاب الجنة وقد وجدوا جزاءهم الطيب يوم القيامة لا يأتيهم النعيم قسرا، بل يكون ذلك نتيجة الاختيار والمشيئة ، لقوله تعالى « ادخلوها ــ أى الجنة ــ بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد » .

ــ الأمر الثانى : للجمود والتقليد ، فالإسلام يأبى أن يعيش الإنسان مقلدا غيره ، ولو كان ذلك فى جانب العقيدة. لأن فى التقليد مصادرة لقانون النمو والتقدم الفكرى. وفى الوقت نفسه ، فيه سلب لمزية الفرد فى تمييزه بين الحق والباطل ، فتراه يفعل مايفعل دون تفكير ، ويترك ما يترك دون تدبير ، ويعيش منقادا لغيره مقلدا سواه . ومن هنا كثرت آيات القرآن الكريم الواردة فى ذم التقليد وجرى عليها الخلف وراء السلف ، دون نظر ولا إستدلال ، وكأن السبق الزمنى يضفى على الآراء والأفكار قداسة لاينبغى أن تمس وفى ظل هذا الفكر الجامد ترددت تلك الكلمات فى بعض المجتمعات غير الإسلامية . وكانت تقال ــ ممن إدعوا لأنفسهم القداسة ــ لمن يريدون الوصول إلى الحقيقة : أغمض عينيك وإتبعنى .. يعنى : لاتفكر .. ولاتتكلم ولاتناقش . إن القرآن الكريم يرفض هذا الموقف بقوله سبحانه وتعالى « وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله ، قالوا ، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون » ويقول سبحانه وتعالى أيضا « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » .

ومن ذلك يتضح لنا أن طريق الإيمان الحق هو الحرية الفكرية ، التى تؤدى إلى حرية الاعتقاد حيث توجه الانسان بالفعل إلى الدين القيم ، الذى قال الله تعالى فيه « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

فالإيمان بالله والملائكة والبعث والميزان والصراط وعذاب القبر وجهنم والجنة .

الخ واجب التصديق بكل ذلك ، لأن هذه صور سمعية ورد بهـا الشرع عن طريق التواتر ، فطريقة إثباتها الدليل النقلى ، لا العقلى . غاية ما يقال إن شرط ما ورد الشرع بوقوعه أن يكون فى نفسه ممكنا لامستحيلا ، وإلا وجب تأويل الشرع لأن العقل إذا تصادم مع النقل وجب تأويل الشرع . وعلى سبيل المثال فإن العقل لايثبت المعية الحسية لله سبحانه وتعالى بدليل قوله تعالى « وهو معكم أين ما كنتم » فوجب تأويل الشرع بالمعية المعنوية وهى الحفظ والرعاية أو العلم على سبيل المثال .

فالعقيدة أو أى عنصر من العناصر الإسلامية الأخرى يثبت بطريقين :

ـ الأول : « الدليل العقلى » .

ـ والثانى : « الدليل النقلى » .

فالأدلة العقلية هى التى يقتضى النظر فيها العلم بالمدلولات ، فهى تدل بنفسها وما هى عليه من صفاتها ، فلا يجوز تقديرها بغير دالة ، كالفعل الدال على القادر ، والتخصيص الدال على المريد ، والأحكام الدالة على العلم فإذا دفعت الأدلة دلت بأعيانها من غير حاجة إلى قصد قاصد إلى نصبها أدلة . والفعل يدرك ذلك بداهة ، والعلم الحاصل منها يكون علما ضروريا ، بخلاف الأمور السمعية فالعلم بوجود الله وقدرته وعلمه وصفاته الكمالية متوقف على النظر العقلى فى الكائنات . وهذا أمر ظاهر لأنه لو ثبت ذلك بالنقل لزم الدليل وهو محال ، فيبقى المسلك العقلى . وتوضيح ذلك .

أن يستند كل دليل سمعى يرجع إلى كلام الله تعالى والمكلف لايصدق بالحكم الإلهى السمعى ، إلا بعد العلم بوجود الله ، والعلم بوجود الصدق لله فى نفسه وهذا يتوقف على كلام الله ، فقد أدى إثبات الكلام بالكلام ، وهـذا لاسبيل له لأنه دور ظاهر .

فقد توقف السمع ، وهو كلام الله ، على العلم بالله ، وتوقف العلم بالله على كلامه وهو المحال .

ومن هنا كان القرآن الكريم موفقا للعقل البشرى لينظر فى الكائنات والعوالم والنفوس ليدرك أنه لايستطيع أحد أن يبدع شيئا منها غير الله تبارك وتعالى ، ثم ينبه أيضا بعد علمه بالخالق الذى يولج الليل فى النهار ، بأن الذى أنشأه وسواه هو الذى أنزل هذا القرآن الذى تعجز الجن والانسانية على أن يأتوا بأقصر سورة منه .

أما الدليل السمعى : فيجرى فى باقى أمور العقيدة التى يجب الإيمان بها ، من وجود الملائكة والبعث والحشر والجنة والنار والميزان والصراط ، والواجبات الضرورية المعلومة والدين بالضرورة ، كالصلاة وعدد ركعاتها ، والزكاة ومقدارها ، والحج وكيفيته والصوم وتحديده ، فتلك أمور ليس لها إلا طريق العقل والسمع ، لأن العقل لا يستطيع إدراكها بنفسه وبيان خصائصها .

وأن الأدلة العقلية والنقلية موجودة كلها فى كتاب الله تعالى ، وأن الآيات التى تحدثت عن وجود الخالق كلها تخاطب العقل ، وهى براهين عقلية فى صورة نقلية ، ذلك أن الكون وماهو عليه من دقائق الصنع وحسن الترتيب من مخلوقات الله ، وقد أوضح الله أن فيه عمليتين خطيرتين ، أولاهما : الخلق ، والثانية هى : النظام الذى يستهدف خير الانسان .

ولقد وضح الله دليل الخلق فى القرآن الكريم بآيات كثيرة تبين مختلف نماذج الخلق مثل قوله تعالى: « فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق » ومثل قوله تعالى « وإن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة ١٦٤) .

هذا ولما كانت حياة الانسان الاجتماعية تعتمد بصفة أساسية على العقيدة . وعلى سبيل المثال .

ا — فإن العقيدة هى أصل الدين وهى أول أمر يطلب ممن أراد الدخول فى هذا الدين حيث يطلب منه قبل كل شىء شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فاذا شهدها طلب منه ما هو بعد ذلك من أمور الإسلام .

ب — والعقيدة البهودية والهندوسية ، تبنى على الاعتقاد بتناسخ الأرواح .

ج — والعقيدة اليهودية تبنى على الاعتقاد بأن اليهود هم شعب الله المختار .

د — والمسيحى يبنى حياته على الإيمان بالتثليث .

هـ — ويبنى الملحد عقيدته على عدم الإيمان بالأديان ، وإنكار وجود الله .

و ـ بينما يبنى المسلم عقيدته على الإيمان بوحدانية الله وأن محمدا رسول الله .

ومن هنا فان جماعة صغيرة أو كبيرة تبنى حياتها على معتقداتها ، فهذه تنكر وجود الله وتؤمن بنظام تشريعى من وضعها ، وأخرى تعتقد بنظام طبيعى ، وتحدد نظامها وتشريعاتها ، وأخرى تؤمن بوجود الله وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ... وهكذا تؤثر العقائد فى أصحابها ، وتوجههم إلى ما فيه خيرهم . ومن هنا تأتى أهمية العقيدة ، بل وخطورتها . ومتى اعتقد الانسان بعقيدة لزمه العمل بما تقضى به تلك العقيدة .

والرسالة الإسلامية وهى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، رسالة عامة خالدة ، تتفق مع سائر العقول البشرية على اختلاف درجاتها وألوانها وأجناسها ، باديها وحاضرها فيلسوفها وحكيمها ، عالمها وجاهلها .. فقد جمعت الخلق على الحسن والكمال ، وأنارت الطريق أمام الإنسان لمعرفة خلقه وخالقه ، وكيفية شكره وعبادته ، وأصلحت ما بين الإنسان وأخيه فى الأسرة والمجتمع الانسانى الخاص والعام .

فهى رسالة البدن والعقل ، والنفوس والأجسام تتطاول العقول البشرية لتدرك محاسنها ، ولكى تصل إلى نهاية كمالاتها ، فيرتد بصرها حائرا من حسن إبداعها ولطائف طياتها وعظائم شمولها . ولا غرو فى ذلك فهى تنزل من لدن حكيم حميد لقوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وبصفته عامة فإن الدعوات العامة والرسالات الخالدة تكتمل إذا جمعت بين الأمور التالية :

١ ـ صفاء القلوب ونقائها بعقيدة راسخه وإيمان كامل بأصل هذا الكون والمتصرف فيه ، ومن أين منشؤه ؟ وإلى أن مصيره ؟ فمن لم يعرف أصل هذا الكون ، ومن الذى أنشأه وأوجده ، ومن الذى أبدع هذا الكون المحيط به ، ومن الذى أوجد النظام المقام والحكمة الرفيعة فى هذا الكون ؟ . من لم يعرف كل هذا نزل إلى مستوى الحيوان ، لانه لم يستخدم العنصر الأساسى فى ذاته وهو العقل ، ومن ثم يصبح كما قال الله تعالى « وإن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » (الفرقان ٤٤) .

٢ ـ قوانين عامة عادلة ، بمقتضاها يحكم الانسان وتتحقق السعادة البشرية ، فخالق الإنسان أعلم بعلله وأدوائه وأمراضه وصحته وما يصلح له « ألا يعلم من خلق وهو

اللطيف الخبير » (الملك ١٤) ولا يستطيع أحد من أصحاب المذاهب الوضعية أن يرفع رأسه ويدعى أن مذهبه الوضعى قد حقق السعادة البشرية .

بينما التاريخ يؤكد لنا أن الإسلام الذى جرب حكمه من قديم الزمان بعد أن أبيدت الطواغيت البشرية من قيصرية وكسروية وصينية .. أقام الاسلام عدلا عاما حقق فيه الاخاء والمساواة والحرية بين المسلمين وغير المسلمين .. ولا يستطيع أحد أن يقول إن الحرية والإخاء والمساواة التى جاءت بها الثورة الفرنسية أو الحرية السائدة فى أوروبا الغربية وفى الولايات المتحدة الأمريكية قد سبقت الإسلام فى إتاحة الحرية، وإنما الإسلام سبقها بثلاثة عشر قرنا ، مع البون الشاسع بين حرية الإسلام وحرية الغرب .

فالحرية الإسلامية حققت أكثر من حلم « افلاطون » الذى تغنى به فى مدينته الفاضلة ، ولـكن حرية الإسلام لم يعرفها الناس لانصراف أهله إلى المشاحنات وتحقيق الأطماع الشخصية على غير ما يقول الاسلام .

٣ ـ تـكون رسالة تامة إذا أخبرت عن هذا العالم المجهول لدينا وهو تلك الحياة الأخروية السرمدية وما فيها من سعادة أو شقاء . ثم ما هو العمل الذى يؤدى إلى تلك السعادة ؟ وكذلك ما الذى يقود إلى الشقاء ؟ وما فيها من سؤال فى القبر ونعيمه أو عذابه ، والبعث والحشر ، والعرض والميزان والصراط ، والجنة والنار .. الخ .

وخلاصة القول إن الرسالة الإسلامية رسالة شاملة ومتكاملة ومترابطة ، بما حوت من عقيدة صافية وحكم عادل وحياة أخروية سعيدة . فقد جاء الإسلام وأنزل الله القرآن فيه مجموعة من الأحكام بعضها يتعلق بالاعتقاد بعضها يتعلق بالعبادات وبعضها يتعلق بالمعاملات وبعضها يتعلق بالأخلاق : ـ فالذين بحثوا فى جانب الاعتقاد أطلق عليهم علماء الـكلام ، وأطلق على هذا الموضوع اسم علم الـكلام ، وهذا ما أشار « إليه إبن خلدون » فى « مقدمته » عن عقائد الإسلام التى هى موضوع الإيمان فقال « وإعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذى هو فى المرتبة الأولى ، الذى هو تصديق . وعين لنا أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا ، واعتقادها فى أنفسنا، مع الإقرار بألسنتنا ، وهى العقائد التى تقررت فى الدين » وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « أن نؤمن بالله وملائـكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونؤمن بالقدر ،

خيره وشره » وتلك هى العقائد المقررة فى علم الكلام ، فالعلم الذى يبحث فى الأحكام الإعتقادية هو المعروف باسم علم الكلام .... يطلق البعض على هذ العلم اسم علم التوحيد .

وتارة يسمى علم التوحيد هذا العلم الذى يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه . ويبحث عن الرسل بإثبات رسالاتهم ومايجب أن يكونوا عليه. ومايجوز أن ينسب إليهم ومايمتنع أن يلحق بهم . وعن بيان أحوال الحياة الآخرة ، وما فيها من شقاء أو نعيم . وهو لا يختلف عن علم الكلام الذى يقوم على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الإعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد عليه السلام [1] . وتارة يسمى بالفقه الأكبر .. الخ .

وإذا كان علم الكلام بمختلف مسمياته يبحث عن ذات الله تعالى وعن النبوات فى دائرة الشرع ... فهو يعتمد على النظر العقلى فى أمر العقائد الدينية ، وذلك بإثباتها بالبراهين العقلية كما أنه يدافع عنها ويزيل الشبه عن العقائد الإسلامية بالكتاب والسنة فهى ثابتة بالشرع ويفهمها العقل منه ، ويلتمس لها بعد ذلك البراهين النظرية . فالبحث فى الكلام يقوم على قواعد الشرع .. وهذا العلم يختلف عن الفلسفة التى تبحث عن أحوال الوجود المطلق ، وعن علل الكائنات على مقتضى العقول من غير ربط بشرع أو بغيره .

هذا والعقيدة الإسلامية ، دون غيرها من المذاهب والأديان ، تعتمد فى إثباتها على العقل ، كما أنها تنطوى على توافق كامل بين العقل والفعل وهذه خاصية من خواص الإسلام ، باعتباره أن كل نظر مؤدى إلى الحق . ومن هنا فقد وجه القران الكريم الناس للبحث والنظر فى المخلوقات إلى مالانهاية . فقد إعتبر الطبيعة مصدرا من مصادر معرفة الله . والذين يطالبون بالغاء العقل فى الإسلام لا يدرون أن الشيخ محمد عبده أوضح قيمة العقل فى الإسلام إذ يقول فى رسالة التوحيد « والذى علينا إعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد ، لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد

---

(١) سعد الدين التفتازانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٥١ هامش الفصل .

أعوانه والنقل من أقوى أركانه. وماوراء ذلك من نزعات شياطين أو شهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه صوابه وخطله » .

ويضيف - إلى ذلك - الشيخ رشيد رضا فى كتابه « الوحى المحمدى » تحت عنوان « الإسلام دين العقل والفكر » ما يؤكد ذلك بقوله « تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة « العقل » ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كالأمر والنهى ، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب المهدين مطلقا ، ولأنها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلالته ، والإعتبار بها ، ولا لأن الخطاب بالدين موجه إليه ، وقائم به وعليه . وكذلك أسماء التفكير والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل .

على حين أن ذكر العقل باسمه وأفعاله فى القرآن الكريم فيبلغ زهاء خمسين مره ، وأما ذكر أولى الألباب ، أى العقول ، فنى بضع عشرة مره ، وأما كلمة أولى النهى (جمع نهيه بالفهم كغرفه) أى العقول ، فقد جاءت مرة واحدة فى آخر سورة طه « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » (طه ١٢٨)

والباحث فى القرآن الحكيم يجد أنه قد تحدث عن العقل ومرادفاته ومشتقاته على الوجه التالى :

(ا) العقل ومشتقاته ورد فى ٤٩ آية قرآنية .

(ب) الفؤاد	ورد فى ١٦	آية قرآنية	
(ج) الفكر ومشتقاته	ورد فى ١٨	آية قرآنية	
(د) التدبر	ورد فى ٨	آيات قرآنية	
(هـ) الفقه	ورد فى ٢٠	آية قرآنية	
(و) النظر بمعنى التدبر	ورد فى ٤٥	آية قرآنية	
(ز) الألباب	وردت فى ١٦	آية قرآنية	
(ح) الحكم والحكمة	ورد فى ٣٠	آية قرآنية	
(ط) النهى (العقول)	ورد فى	آية قرآنية واحدة	

وبذلك يكون المجموع ثلاثا ومائتى آية تتحدث كلها عن العقل ، ومن هنا عاب القرآن الكريم التقليد فى الكثير من آياته البينات ، لقوله تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا

ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠) وبذلك فقد أبطل الإسلام الحجر على العقل ووجه الأمة إلى التفكير وإلى النظر العقلى .

وكل ذلك يبطل حجر بعض مفكرى الإسلام على العقل وعلى التفكر ، بعد ماتبين لنا أن إستخدام العقل خاصة من أهم خواص الدين الإسلامى ، والتى تميز بها على كل الأديان السماوية والأرضية وكذلك على كل المذاهب الفلسفية والسياسية والملل والنحل وماإليها ومن هنا أصبح من المحتم على كل المسلمين إعمال العقل فى كل جوانب الدين ولا سيما ما يتعلق بشئون العقيدة التى هى أهم مايملكه الإنسان ، وكذلك إعمال العقل فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وشرحها بهذه الطريقة حتى يتفهمها العالم كله وخاصة غير المسلمين منهم .

حماية العقيدة الاسلامية :

لعل من أهم واجبات المسلمين فى الوقت الحالى ، حماية العقيدة الإسلامية من أن تختفى ملامحها فى أذهان معتنقيها فى ظلال الابتكارات التكنولوجية المذهلة وما يرتبط بها من أيديولوجيات مستوردة بواسطتنا أو مصدرة إلينا ، وهذا يتطلب :

١ ـ الإيمان العقلى الكامل بمختلف قواعد العقيدة الإسلامية

٢ ـ تثبيت هذا الايمان فى نفوس معتنقيها .

٣ ـ إلتزام المسلمين حكاما ومحكومين ، أفراداً وجماعات بالمحافظة عليها من خلال ترشيد ماينشر وما يكتب ومايذاع ومايتم مسرحته عنها أو حوله أو فيما يتصل بها .

ويحتاج هذا أيضا إلى مواجهة الأفكار الشيوعية والوجودية والاباحية . . . مواجهتها بالعقل والإقناع ، بالجدل غير الميتافيزيقى ، والحوار العقلانى المنطقى ، فذلك هو الطريق الذى جاء به القرآن الكريم والذى سلكه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسار على دربه علماء المسلمين المتمثلين فى علم الكلام الحديث والقديم .

وعلى الحكومات الإسلامية أن تخصص موازنات ضخمة لحماية العقيدة الإسلامية ، يمكن الإنفاق منها على النشر والإذاعة والمحاضرات والندوات . . . لمواجهة ماتخصصه الحكومات غير الإسلامية للبحث العلمى ، وقيام البحاث والمستشرقين فى هذه الدول

بدراسة الجوانب الدينية فى الدول الآخذة فى النمو . ومن نماذج تلك الدراسات ، دراسة « جولد تسهير » حول العقيدة والشريعة فى الإسلام ، والتى يقول فيها :

— « ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبا عقـائديا موحدا ، متجانسا ، وخاليا من التناقضات » .

— « ورسالة النبى — محمد عليه الصلاة والسلام — تنعـكس فى روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه »(١) .

ويضيف « جيب » فى كتابه « الاتجاهات المدنية فى الإسلام » حول كيفية تصور شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وأقواله وأفعاله بأن خيـال المسلمين الدينى وحماسهم له جعلهم لا يعتبرون أن القـرآن الـكريم موحى به فحسب ، وإنما حسبوا لأقوال النبى حسابا فى الوحى ، حتى لا يصبح النبى قريبا من الإنسان المادى الذى يخطىء ويصيب . ويقـول إنهم اعتقدوا أن النبى ينبغى أن يكون موحى له بجميع أقواله وأفعاله ، كما ينبغى أن تـكون أفعاله قدوة لأعمال البشر فى الظروف المشابهة . ويؤكد أنه لحاجة علماء المسلمين إلى تعزيز نظمهم العقائدية والشرعية التى ترتـكز على القرآن الـكريم ، واحتياجهم أيضا لمواد إضافية ، فقد اعتبروا أحاديث النبى — أيضا — فى إطار النظام اللاهوتى، على أنها مصدرا تشريعيا آخر يتميز بالعصمة من الخطأ(٢) .

وفى هذا الـكلام بعض الحقيقة وكثير من المغالطات .

٤ — نشر العقيدة الإسلامية صافية نقية فى كل بقاع الأرض ، بمعنى ألا ينقل داعية إسلامى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « من أكل لحم جدور فليتوضأ » وينفى آخر هذا الحديث باختلاق حكاية تقول إن النبى كان يجلس مع بعض أصحابه واشتم رائحة كريهة مما يصدر من فتحة الإست ، وأراد ألا يحرج أصحابه عندما هموا جميعا إلى الصلاة ، فقال هذا الحديث .

---

(١) « جولد تسهير » : العقيـدة والشريعة فى الإسلام . دار الـكتب الحديثة صفحة ٧٨ ، ٧٩

(٢) جيب أو اللاهوتى الاتجاهات الحديثة فى الإسلام . دار مكتبة الحياة — بيروت ص ٤٤

٥ — مزج العقيدة بالسنة النبوية باعتبار الارتباط بينهما إرتباطا عضويا .

٦ — توحيد مصادر المعرفة الإسلامية بمعنى التمسك فقط بكل ماهو صحيح أو متفق عليه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوحيد كافة المذاهب الإسلامية وإدماج الشيعة فى السنة ، فالله سبحانه وتعالى يقول « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ومن ثم فإن مايحدث فى المسجد الأموى فى دمشق، حيث تصلى صلاة الجمعة أربع مرات ، طبقا للمذاهب الأربعة : الشافعى ، المالكى ، أبو حنيفة وابن حنبل ، وفى مسجد واحد ، ومن ثم أصبحت الأمة الواحدة فى الآية السابقة أربعة فرق .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بعدم الابتداع فى الدين بقوله « إتبعوا ولا تبتدعوا ، فإنما هلك من قبلكم بما ابتدعوا فى دينهم ، وقالوا بآرائهم وخالفوا سنن أنبيائهم فضلوا وأضلوا » وقوله أيضا « إتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » وموضوع الحديثين — من ظاهرهما — واحد ، وهو عدم الابتداع فى الدين ، وأن كل شيء قد تم شرحه وتوضيحه وليس لأحــد بعد ذلك — سوى من يصل إلى مرتبة الاجتهاد — أن يقول بجديد فى الدين ونحن مع إحترامنا لهذا الحديث بصيغته نرى ضرورة إعادة صياغة الشروح القديمة للآيات والأحاديث فى ضوء المتغيرات العلمية والتكنولوجية المعاصرة .

٧ — حصر القضايا التى أدت إلى الخلاف بين المسلمين وتفرقهم شيعا وأحزابا ، ولا سيما مايتصل منها بأمور العقيدة ، وخاصة فى شرح وتفسير قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه إبتغاء الفتنة، وإبتغاء تأويله .ومايعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا، ومايذكر إلا أولوا الألباب» (آل عمران ٧) . فمن الاختلاف فى تفسير هذه الآية وأمثالها نشأت قضية « التأويل والتفويض » وكذلك نشأت مشكلة « الذات والصفات » ، بالرغم من حديثه صلى الله عليه وسلم ، والذى يقــول فيه « تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا »[1] .. ونشأت كذلك قضية « الجبر والاختيار » وقضية «السمع والعقل»

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط وابن عربى والبيهقى فى الشعب .

ومشكلة « الإمامة » فهذه القضايا والمشاكل تحتاج إلى الدراسة الموضوعية المنهجية الأكاديمية لإعادة صياغتها ووضع الحلول العلمية لها ، ونشرها بين الناس ، بدلا من الصياغات الحالية المملوءة بالمتناقضات .

ويحتاج الأمر إلى ترشيد العلاقة بين الدين والسياسة ، إذ يقال إن نشأة الفرق الإسلامية ، ترجع أو ترتبط بنشأة الفرق السياسية ، حتى إنتهى الأمر إلى القول بأن الأثر القوى فى تفريق كلمة المسلمين وتفريق عقيدتهم ، وإيجاد المشاكل فى المجتمع الإسلامى سيكون للسياسة . ويستندون فى ذلك إلى استفادة معاوية من السياسة فى تثبيت ملكه ، مما أدى إلى ظهور مشكلة « الضرر » حيث أرسل إلى المغيرة بن شعبة يطالب منه أن يكتب إليه بالحديث الذى كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحيان وهو على المنبر . فكتب إليه المغيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة إذا سلم « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وأخذ معاوية يبث هذا الحديث من فوق المنبر ، من أجل تثبيت ملكه ، كما أخذ ينشر « فكرة الجبر » من أجل إرضاء الناس بحكمه ، وتلك كانت أول بداية لتسيير الدين ورجاله من أجل خدمة « الحكام » بدلا من خدمة الدين .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما إتباعا لتلك القاعدة نشأت كثير من الفرق الإسلامية مثل ظهور : الشيعة ، الخوارج ، المرجئة ، الأمويين .. الخ .

هدف علم الاجتماع الاسلامى :

وفى ضوء كل هذا يصبح على علم الاجتماع الإسلامى مواجهة كل هذه الأمور ، منتهجا منهاج الإسلام الذى جاء فى قوله تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (الأنبياء ١٨) . ومن ثم فإن مهمة علم الاجتماع الإسلامى هى إزهاق الباطل بقذف الحق ونشره بين أفراد المجتمعات الإسلامية . ولن يتأتى له ذلك إلا بتحرير الأفراد من كل أنواع الباطل ، وبتحريرهم من العبودية إلا لله وحده ، بعمق تشجيعه للأفراد على :

— التحرر من عبادة الأشخاص ، جريا وراء المناصب الزائلة .

ـ التحرر من عبادة الذات والبعد عن التعالى والغرور .

ـ التحرر من عبادة المال والبنين .

ـ التحرر من عبادة الجنس والشهوات .

ـ وتأكيد عبوديتهم لله وحده ، الله الذى يهدى الناس إلى سواء الصراط ، بينما تلك الآلهة المزيفة تعمى بصائر الناس لقـــوله تعالى « أفرايت من إتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » (الجاثية ٢٣) . فالعبودية المنطقية لله وحده ، وكما يقول عليه الصلاة والسلام « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد المرأة ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخيلة » رواه مسلم .

وبالتالى فإن على علم الاجتماع الإسلامى أن يضع القواعد الاجتماعية :

ـ لصـلة الإنسان بنفسه وبربه وبالآخرين ، مع تحديد حقوقه وواجباته إزاء هؤلاء جميعا .

ـ لصلة الإنسان بالـكون المادى والبيئة الاجتماعية والفزيولوجية والمرفولوجية التى يعيش فيها .

ـ لصلة الإنسان بعالم الغيب ، حتى تتضح صلة الإنسان بربه وبالملـكوت الربانى .

إن تحديد هذه الصلات سوف يقودنا إلى « المعرفة الإسلامية » من أوسع أبوابها ومختلف جوانبها ، ويكشف لنا المستور بالصورة التى تمـكننا من الإجابة على كثير من التساؤلات التى تدور خفية داخل عقولنا مثل :

ـ لماذا خلقنا ، وإلى أين نسير ؟

ـ ماهى الحياة ؟ وماهو الموت أو الفناء ؟

ـ ماهى الروح وعلاقتها بالدورة الدموية ؟

ـ ماهى المادية وعلاقتها بجسم الإنسان ؟

وعلم الاجتماع الإسلامى يوفر الإجابات لـكل من هذه التساؤلات ، ويبين لنـا الاستقلال العقلى ، أى حرية الإنسان . ومعنى ذلك أن الإنسان مسئول ، والمسئولية

إستقلال ، وهذا مايتضح فى وصف الراشد الذى يتحمل المسئولية . وهنا تبرز قضية الإختيار ، ورفع التكليف عن غير الراشد . إن علم الاجتماع الإسلامى يحمى العقل الإنسانى ، وذلك بالحفاظ عليه ورفع مستواه إلى أعلى قدر ، كما أنه يرشد العقل إلى معرفة الله تعالى وصفاته .

وعلم الاجتماع الإسلامى :

- يمنع التقليد فى الفكر والسلوك ويدعو إلى التحرر من فكر الآباء والأجداد.
- يمنع الاستبداد بالرأى .
- ويقوم ويقدم بيان ماتختلف عليه العقول .
- ويبين السعادة الدنيوية والأخروية .
- ويقوم بتنزيه الفكر البشرى عن الوثنيات القديمة .
- ويجعل الإنسان لا يخضع إلا لله ، ولا يطأطأ رأسه إلا لله ، لا لزعيم ولا ملك ، ولا لتراب ، ولا لمال ، ولا لجاه ، ولا لنساء . . » ويتخذ من عبارة « الله أكبر » شعارا عاما .
- ويأخذ بيد الإنسان إلى : وحدة المعرفة ، ووحدة الفكر، ووحدة الكلمة، وكلمة التوحيد ، ووحدة الشريعة، ووحدة طقوس العبادة، ووحدة القواعد الأخلاقية.

وعلم الاجتماع الإسلامى ، يدعو إلى العدالة الاجتماعية ، وهى تقوم على إنزال قواعد الشرع منزلها ، إذ هى مستمرة من مبدأ التوحيد ، لأن تقوى الله وخشيته ، توجد المراقبة والخوف .. أما الشرك بالله فإنه يحمل فى طيانه بواعث الظلم والطغيان ، التى ينحرف بها الناس عن العدل[1] . وقال ابن عباس حيال قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (النحل ٩٠) : إن الاعتقاد بهذه الآية والعمل على مقتضاها هو أساس العدل وقوامه .

ويؤكد علم الاجتماع الإسلامى أن أخلاق المسلم ينبغى أن تكون تابعة لعقيدته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » ، وبمقتضى هذا الحديث يجب على المسلم أن يدرك أنه فى كل علاقاته ومعاملاته

---

(١) الإمام الأكبر الراحل المغفور له الشيخ محمود شلتوت : الإسلام وشريعة وعقيدة ص ٤٥٨

وأنماطه السلوكية مراقب من الله تعالى ، ومن ثم عليه أن يراقب قواعد الدين فى السر والعلن . وبذلك تتفق كل علاقاته ومعاملاته وأنماطه السلوكية مع الأخلاق الإسلامية .

ويقيم علم الاجتماع الإسلامى التدرج الطبقى والسلم الوظيفى والنظام الإدارى على العلم وليس على صلات المصاهرة أو النسب أو القرابة . . فى الإسلام يتدرج الناس صعودا حسب درجتهم العقيدية ، فإن صاحب المبدأ يحظى بين أقرانه بالإعجاب،فيسيطر على مشاعرهم لقوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١) وقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات ١٣) وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « تفقهوا قبل أن تسودوا » رواه البخارى فى كتاب « العلم » أى تهيئوا بالعلم والمعرفة قبل اختياركم للمراكز القيادية . وقد قيل أيضا « كيفما تكونوا يولى عليكم » .

والنظام الرئاسى الإسلامى يقوم على الرجل المسلم المؤمن وفى مجتمع للمسلمين ، وتسلسل الرئاسات من أسفل إلى أعلى ، ومن الضرورى أن تكون هذه السلسلة من بين المسلمين المؤمنين لقوله تعالى « . . . وأولى الأمر منكم » أى من المؤمنين،ولأنه سبحانه وتعالى إختار رسوله من أمتنا لقوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . وبذلك يكون إعتناق المبدأ الإسلامى قاعدة مشتركة بين الحاكمين والمحكومين ، بل يجب أن يكون أعضاء الهيئة الحاكمة أشد أفراد المجتمع تشيعا للمبدأ الإسلامى وتحمسا له فكلما كان الفرد مؤمنا بالنظام الاجتماعى الإسلامى كانت له فرصة أقوى فى تسنم مدارجه والإرتقاء فيه ، وذلك طبقا لقاعدة التدرج النظامى أو الوظيفى فما يزال الأمر كذلك حتى يكون الإمام أو الرئيس هو أشد الناس حماسة للمبدأ الإسلامى وتشيعا له، حيث يكون هو الشعلة الوهاجة التى تلهب الجماعة بحرارتها وتشيع فيهم الطاقة والحياة ، ويكون الناس من حوله أكثر الناس إيمانا به حتى يصلحوا ، لأن يختار من بينهم من يخلفه .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية والمجتمع

إذا كان علم الاجتماع لا يهتم ببناء الجسم الإنسانى، أو بوظائف أعضائه، أو بالعمليات العقلية فى حد ذاتها ، فإنه يهتم بما يحدث عندما يقابل إنسان إنسانا آخر ، أو عندما يشكل الناس جموعا وجماعات ، أو عندما يتعاونون ويقتتلون ، أو يتحكم بعضهم فى بعض ، أو يحاكى بعضهم البعض الآخر ، أو يطورون الثقافة أو يقوضونها .. فإن وحدة الدراسة فى علم الاجتماع ليست على الإطلاق فردا واحدا ، ولكنها تتمثل على الأقل فى فردين يكونان معا علاقة بشكل ما .

ولذلك فإننا فى هذا الفصل ، سوف نتناول بالدراسة . الفرد والجماعة والمجتمعات بمختلف أشكالها ومستوياتها ، وما يدور بين كل هذه الأمور وبين البيئة الاجتماعية والثقافية والجغرافية ، وكذلك التفاعل المتبادل بين الفرد والآخر ، سواء أكان هذا التفاعل ايجابيا أو سلبيا . . الخ .

أولا : الفرد The Individual

الفرد هو وحدة الدراسة السوسيولوجية، هذا الفرد لاتنطبق عليه الصفة الاجتماعية إذا لم يعش فى مجتمع ، ومن الضرورى أن يعيش الانسان فى المجتمع استجابة لميله الطبيعى للحياة فى المجتمع ، على اعتبار أن الإنسان المنعزل فى السكون مجرد فرض غير قائم(1). ذلك أن الانسان بمقتضى حاجاته (دوافعه) المتعددة ومن أهمها الحاجة إلى الإنسال والحاجة إلى الاستحواذ أو الإقتناء ، إذ عليهما يقوم بقاء الانسان فى شخصه ونوعه . والبقاء الإنسانى والمحافظة عليه من أهم أهداف الإنسان الفرد ، إذ به ترتبط رسالته فى حياته ، وهى نصرة الحق على الباطل . . ومن هنا فهو باحث دائما عن المال والولد لقوله تعالى « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً » (٧٧ – مريم)

---

(1) L' home isolé qu' est un hypothese .

وإذا كان الإنسان يولد فردا ويعود إلى ربه فردا لقوله تعالى « ولقـد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ،وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينـكم وضل عنـكم ما كنتم تزعمون » (٩٤ ـ الأنعام)

غير أن هذا الإنسان الفرد يعيش طوال حياته أو يعيش من المهد إلى اللحد داخل جماعات صغيرة ، فإذا انتهى أجله ، فإنه يقف أمام الله يوم الحشر فردا لقوله تعالى « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (٨٠ ـ مريم) .

وكذلك لم يستطع زكريا أن يعيش فى المجتمع فردا منفردا ، ومن ثم دعا ربه ألا يذره فردا لقوله تعالى « وزكريا إذ نادى ربه ، رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيي وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات : ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » (٨٩ ، ٩٠ ـ الأنبياء) .

ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا فى مجتمع من بنى جنسه يتبادل الأفكار والعلاقات والمعاملات مع أفراده ، وإذا كانت هناك حالات استثنائية ينعزل فيها البعض عن المجتمع مثل الزهاد والمتصوفين فى بعض الفرق الدينية ، ومثل بعض البحاث الذين يكرسون حياتهم للـكشوف العلمية . والحالات التى يعزل فيها البعض عن المجتمع عقابا لهم عما جنته أيديهم مثل المسجونين والمنفيين والمعتقلين . . فان هذه الحالات الإنعزالية ليست دائمة ، وإنما هى تنتهى بانتهاء الظروف التى أدت إليها . وبالرغم من إنعزال أو عزل هؤلاء وأولئك ؛ فان صلاتهم بالمجتمع ـ وإن كانت من طرف واحد وهو المجتمع ـ لاتنقطع كلية ، على أساس أن كلا منهم يحتفظ بالمجتمع فى داخلية كيانه الاجتماعى ، فهو يفكر ويأكل ويشرب ويلبس ويتبادل العلاقات مع جيرانه أو المقربين إليه ، وفق النشأة الاجتماعية التى نشأه المجتمع ورباه ورعاه على أساسها[1] ، وإنما الفرد بالمعنى الاجتماعى ، هو الإنسان بماله وما عليه من حقوق وواجبات فى المجتمـع ، ويكون الفرد ـ دخل المجتمع ـ منعزلا أو منطويا ، أو عضوا فى جماعات متنوعة على مستوى المجتمع المحلى أو المجتمع الدولى .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : وسائل وأساليب الاتصال فى المجالات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلامية الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٩ صفحة ٢٠ .

ومن هنا فإن الفرد لايتصور وجوده إلا فى مجتمع . ولذلك يقال إن وجود المجتمع سابق على وجود الفرد ، بمعنى أنه يولد فى مجتمع ، وبالتحديد فى أسرة — أى جماعة — ولهذا يقال بأسبقية الجماعة Group priority وكلنا نعرف أن الفرد يولد وهو فى حالة ضعف كامل وأنه بفضل الجماعة «الأسرة» يولد الفرد مرة ثانية فى شكل حضارى بعد ولادته جسميا فى المرة الأولى . ومن هنا فإن الفرد لاغنى له عن المجتمع فهو الذى يكسو له جسمه عند ولادته ، ثم يشرع بعد ذلك فى كساء عقله عن طريق التربية والتعليم إلى أن يصل إلى مستوى النضج ، بمعنى أن الفرد يولد وعقله صفحة بيضاء ، ثم يتولى المجتمع كتابة تراثه وقيمه ومبادئه ومعاييره ، وكذلك مظاهر حضارته الروحية والاجتماعية والعلمية على تلك الصفحة . وبالتالى فإن الأسرة وكل المؤسسات التربوية فى المجتمع هى التى ترفع الفرد إلى المستوى الحضارى فى المجتمع ، وتشعره بأن المجتمع يعلو عليه وأنه أستاذه . وبفضل الدور الذى تقوم به الأسرة والمؤسسات التربوية تطغى الطبيعة الاجتماعية للفرد على الطبيعة الحيوية ، وبذلك يمثل كل فرد نوعا من الثقافة لايأتية بالولادة ، ولا من طبيعته الحيوية ، وإنما من طبيعته الاجتماعية بكونه ينتمى إلى مجتمع معين له شكل عام قد يكون متخلفا أو آخذاً فى النمو أو ناميا أو متقدما[1] .

الفرد المسلم :

يقتضى التنظيم الإسلامى ضرورة توضيح صلة الفرد بربه فى ضوء أصول تنظيم العلاقات البشرية وتوجيه الناس إليه وحتمية إستجابتهم له ، وعلى أن يكون كل ذلك مسبوقا بخشيتهم لواضعه واستشعارهم لعظمته ، وأنه يعلم من الإنسان سره كما يعلم منه علانيته ، وبذلك تستقر فى نفوس الأفراد مبادىء الرحمة والمحبة والتعاون ، وتبادل المنافع وتوحيد المشاعر والأحاسيس ، ومن هنا يرى الفرد نفسه وحدة من وحدات المجتمع ، فيبذل من نفسه ، وماله وراحته مايحقق عضويته فى المجتمع .

ولتصفية قلوب الأفراد وتهذيب أرواحهم واتصالهم بمصدر الخير المطلق والرحمة الواسعة ، أوجب عليهم عبادات بدنية عينية ، فيها يناجون ويرقبون ربهم ويشتركون

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : الأسرة والطفولة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٩

فى أدائها والقيام بها على موائد من خشية الله ... حيث أوجب عليهم الصلاة والصوم وأرشدهم أنه ليس القصد أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب ، وإنما القصد أن تعصم نفوسهم من الفحشاء والمنكر ، وأن تغير فيهم أخلاق الشر والبغى والتقاطع ، بأخلاق الخير والعدل والتعاطف ، وبذلك يتحقق فى نفوسهم الشعور الجمعى الذى هو ضرورة حتمية للمجتمع المسلم . ومن خلال هذا الشعور الجمعى يساهم الفرد فى عمارة الكون والتبشير بدعوة الله فى الأرض ، وبث مبادىء العدل العام ، ووسائل السلام والأمن بين الناس . وتلك هى أهداف التشريعات والتوجيهات الدينية . ومثل تلك العبادات إذا لم تصل بالفرد إلى درجة الشعور بفرديته **individuality** فى المجتمع ، وتدفعه إلى القيام بواجبه فيه ـ لايقام لها وزن عند الله ـ ولا يحظى صاحبها بدرجة القبول عنده .

وانظر إلى سيد الرسل عليه الصلاة والسلام وهو يحذر ابنته مما يدخل فى مجال « المسئولية الفردية » قوله : يافاطمة بنت محمد ، لاأغنى عنك من الله شيئا » بهذا التحذير المحمدى لأقرب المقربين إليه ، لفلذة كبدة فاطمة ، يقر رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه مبدأ من أهم المبادىء الإسلامية ، وأساسا من أسس العقيدة الإلهية ، (كل امرىء بما كسب رهين) حيث لايغنى أحد عن أحد شيئا ، لامعول إلا على العقيدة الشخصية ، ولا اعتماد إلا على السلوك الفردى ، بعيداً عن المحسوبية والإستثناءات والمحاباة .

وخائن العقيدة له ميقات لاتنفعه فيه قرابة ، ولا تشفع له صلة ، ولا يجديه نسب ولا تغنى عنه صلات قرباه لأقرب الأشخاص إليه ، ولو كان رسولا من عند الله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ... فكل فرد مسئول عن ذاتيته وعقيدته وسلوكه الفردى والجمعى وهذا المبدأ الإسلامى قد قرره القرآن بادىء ذى بدء عندما عرض لنا شرائع للايمان الذى نبت وسط أشواك الكفر ومفاسد الشرك ، وشرائع الإيمان الذى ولد فى محيط العقيدة السليمة الصحيحة .

وأنظر إمرأة نوح عندما خانت زوجها الرسول الصالح خيانة عقيدة ، وليست خيانة فحشاء ، حيث ظاهرت أعداءه ، وناصرت شانئيه ، وأسهمت مع خصومه فى السخرية والاستهزاء به .. وكذلك امرأة لوط التى كانت تدل قوم لوط على ضيوفه

وهى تعلم سوء وخشاء صنيعهم مع هؤلاء الضيوف .. لم تشفع هذه الآصرة التى تربط كل واحدة من هاتين المرأتين بزوجها، ومن ثم كان مصيرهما أسوأ مصير ، فلا شفاعة ولا إستثناء فى شأن الكفر بالله وعدم الإيمان به . وعن هذه الزاوية المظلمة ، وعن هذه المسئولية الفردية يقول القرآن الكريم « ضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأة نوح ، وإمرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل أدخلا النار مع الداخلين » . (التحريم آيات ١٠ ، ١١ ، ١٢) .

وعلى العكس من ذلك نجد آسيا إمرأة فرعون التى فرت إلى ربها ، وهى تتقلب فى أعطاف النعيم الحسي ، باعتبارها السيدة الأولى فى المملكة الفرعونية ، هذه السيدة لم تعش ناظريها أبهة الملك ومظاهر العظمة وألوان الترف الذى تستمتع به .. ونبذت ذلك كله ، وطرحته وراءها ظهريا ، وولت وجهها شطر السماء ، تسأل الله أن ينجيها من فرعون وعمله ، ومن شره وأشره ومن عقيدته وحاشيته فنجاها الله . وكذلك العذراء مريم إبنة عمران البتول الطاهرة ، المحصنة ، العفيفة الشريفة التى حافظت على طهارتها فى البيئة الفاجرة المدنسة ، والتى حافظت على إيمانها فى البيئة الكافرة الملحدة، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، كما كانت قانتة عابدة متبتلة ، شاكرة فى زمن عز فيه العابد الشاكر ... وعن هذه الزاوية المضيئة وعن المسئولية الفردية وعن هذا الإيمان الذى لم تزعزعه ريح الكفر يحدثنا القرآن الكريم « وضرب الله مثلا للذين آمنوا إمرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » و« ومريم إبنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وتصور لنا سورة الكهف الفرق بين الفرد المؤمن الفقير والفرد الكافر الثرى ومايجره البطر من كفران حق المنعم ، وماينتهى إليه حال المؤمن الذى ملأ الله قلبه بالإيمان وملأ صدره بالثقة ، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظرة للأمور المتنقلة والأعراض الزائلة المتحولة ، فلو منحها شكر ، ولو حرمها صبر ، وهو فى كل ذلك كبير الفؤاد عزيز النفس ، بعيد عن الدنايا وارتكاب الخطايا .

ومامسرده الله من تحاورهما يصور للانسان بأجلى بيان ، كيف ينفخ الشيطان فى أنوف أصحاب المال ويطغيهم حتى يدهورهم فى مهاوى العدم . وكيف يعلو الإيمان

بنفس صاحبه ويهبه أعظم العلم بالحياة ، وتكاليفها ، والأمور وتصاريفها ، فيجعله مؤيداً بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويجعل له حسن العاقبة فى الدارين ، فإن العالم لا يقوده إلا إلى العقل والعلم والثروة مسخرة له[1] . وفى هذا يقول القرآن الكريم « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين[2] من أعناب وحففناهما[3] بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا . وفجرنا[4] خلالهما نهرا وكان له ثمر[5] ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا[6] . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد[7] هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا[8] . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة[9] ، ثم سواك رجلا . لكنا[10] هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا[11] من السماء فتصبح صعيدا زلقا[12] . أو يصبح ماؤها غورا[13] فلن تستطيع له طلباً ، وأحيط بثمره[14] فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً . (الكهف ٣٢ - ٤٢) .

وبصفة عامة فإن الإسلام يتميز بكتابه الذى يربط بين : العلم والعمل ، بين الفرد والمجتمع ، وبين الله والإنسان ، لاسيما وأن الإسلام دين محض أساسه الوحى الإلهى ،

---

(١) كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والنبوية ، صفحة ٧٨

(٢) جنتين : حديقتين .

(٣) وحففناهما : أحطناهما .

(٤) فجرنا : أنبعنا .

(٥) ثمر : أنواع أخرى من المال .

(٦) أعز نفرا : أقوى أعوانا .

(٧) تبيد : تفنى .

(٨) منقلبا : مرجعا .

(٩) نطفة : ماء الرجل .

(١٠) لكنا : لكن أنا .

(١١) حسبانا : صواعق .

(١٢) صعيدا زلقا : أرضا ملساء لا شىء عليها .

(١٣) غورا : غائرا .

(١٤) أحيط بثمره : أهلكت أمواله .

وأنه ختم المراحل الدينية ، فلا دين بعد الإسلام ، ولا وحي تكليفي بعض القرآن ، وفي نفس الوقت فإن الله قرر بقاء الحياة الدينية ببقاء القرآن. وأن الإسلام هو الحكم التشريعي العادل مادامت الحياة على طبيعتها ، فإذا ألمت بالإنسان الفرد وبالحياة عوامل قهرية _ كمجاعة عامة أو حرب مهلكة ... فإن الإسلام يبيح الملكية العامة .

الجمهرة Crowd

هذا الإنسان الفرد أثناء سيره في الطريق قد يرى حادثة، أو أي شيء غير مألوف، فيدفعه حب الاستطلاع إلى الوقوف لمعرفة ماذا حدث ؟ أو كنه ذلك الشيء غير المألوف. وبعد فترة قصيرة يجد حوله عديدا من الأفراد دفعهم الفضول إلى التجمع لرؤية ذلك الذي حدث . ووحدات مثـل هذا التجمع _ أي أفراده مثلا _ يتميز كل منهم بالاستقلال التام عن الآخر . وبالتالي فإنه يتلاشى بمجرد انفصال وحداته عن بعضها البعض ، أي بمجرد الوقوف على نوعية الحادث ... ومن هنا فإن كل وحدة من وحدات « أفراد » هذا التجمع لن تتغير نتيجة لتقاربها أو لتباعدها عن الأخرى . فالجمهرة بسيطة في تجمعها ، لا هي بالمتماسكة ولا هي بالمستقرة ، أهدافها قريبـــة ، وذكرياتها كوحدة اجتماعية معدومة أو ضعيفة، سرعان مايتجمع أفرادها ، وسرعان ماينفض شملهم .

والجمهرة مثل التجمعات البشرية ، تلك التجمعات التي كانت تتكون من هؤلاء الذين يتجمعون من أجل البحث عن الغذاء ، وهي أقدم الصور البدائية للجماعات ، ذلك أن الأوائل من الأفراد عاشوا على الأرض ، دون أن يشكل موقفهم مما موقف الوحدة الاجتماعية المتكاملة ، بحيث لم يكن لكل منهم _ مكانة فيها _ محددة لدى الآخر « عالية أو منخفضة » ولم تكن علاقات الدور تربط بين كل منهم والآخرين، ولم يكن لهم مجموعة من القيم والمبادىء والمعايير النابعة منهم لتنظيم سلوكهم .. الخ ، بمعنى أنهم كانوا أشبه بركاب القطار الذين لا يعرف كل منهم الآخر ، كما لا توجد بينهم أي فكرة عامة ، عدا أنهم مسافرون على نفس الطريق وفي نفس الوقت ، ولا يوجد لكل منهم دور نحو الآخر ، أو مكانة لديه في علاقاتهم معا .

و « الجمهرة » مثل « التجمع » قد تكون أمام المحلات الإستهلاكية من أجل الحصول على سلعة إستهلاكية غير متوافرة ، حيث يتجمهر الأفراد بشكل غير منظم من

أجل الحصول على تلك السلعة . وقد تكون جمهرة نوعية مثل مظاهرات الطلاب . ولذلك تعرف بأنها « الجمهرة مجموعة من الناس تستجيب عاطفيا لمثير مشترك » والاستجابة العاطفية الحادة هي أهم مايميز الجمهرة عن بقية الأنواع الأخرى من التجمعات والجماعات . ويلاحظ أن « الاتصال » الشخصي بين أفراد التجمهر أتم وأكمل منه فى حالة الجماعة ، وهذا الاتصال الشخصى يزيد من قوة الجمهرة على أفرادها غير أن الجمهرة مثل التجمع تتسم بأنها مؤقتة ، والتفاعل بين أفرادها مؤقت ، وليست لعلاقات أفرادها صفة الاستمرار[١] . وهذا التجمع أو تلك الجمهرة ليست لهما أهمية — الجماعة — فى علم الاجتماع لخلوهما من العلاقات والتفاعل الاجتماعيين ، اللذين يتميزان بالاستمرار والنمو .

ومن هنا فإن موقف التجمع أو الجمهرة يوصف بأنه موقف معية **Togetherness situation** وليس موقف جماعة **Group situation** غير أن موقف التجمع أو الجمهرة إذا تكرر عدة مرات وبنفس الأشخاص فقد يتحول إلى موقف جماعة نتيجة التفاعل الاجتماعي الذى يستمر فترة طويلة تؤدى إلى نشأة علاقات وثيقة بين أفراد التجمع أو الجمهرة . ويتباين عدد أفراد الجمهرة من الحفنة القليلة من الناس إلى الحشد الضخم ، وتختلف الاستجابة العاطفية للجمهرة من تخريب وصياح إلى فزع وخوف ، إلى غير ذلك من الاستجابات المختلفة ، فالجمهرة الثائرة لهزيمة ١٩٦٧ تختلف عن الجمهرة التى تجمعت فوق سطح باخرة توشك أن تغرق . وهذه وتلك تختلف عن جمهرة أمام أحد المجمعات الاستهلاكية للحصول على « علبة » من أعواد الثقاب أو بضع دراهم من الشاى . . . كما كان يحدث فى أعقاب إنتصار مصر على إسرائيل فى حرب ١٩٧٣ ولا يزال حتى الآن .

الجماعة Group

الجماعة من وجهة نظر علم الاجتماع هى الأداة التى يستخدمها المجتمع فى تنشئة أو تطبيع أفراده . وتعرف الجماعة بأنها « شخصان أو أكثر مشتركان فى المعايير والمبادىء والقيم التابعة منهم ، ويكون لكل منهم دورا حيال الآخر من أجل الوصول

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : وسائل وأساليب الاتصال .. مرجع سابق ، صفحة ١٥٤

إلى هدف معين ، يؤدى إلى إشباع حاجاتهم الاجتماعية ويكون وجودهم معا خاضعا لقواعد إجتماعية محددة بصورة تسمح بأن يتوقع كل من أفرادها سلوك الآخر توقعا واضحا بدرجة دقيقة أو أقل دقة » ومن هذا التعريف ينبغى أن تتوافر فى الجماعة العناصر التالية :

١ ـ أن يكون تـكوين الجماعة خاضعا لقواعد إجتماعية معينة ، مثل عقود الزواج ومايتصل بها من عادات وأعراف وتقاليد ، أو قواعد توزيع التلاميذ على الفصول « الفصل جماعة دراسية » أو قواعد تـكوين الفرق الرياضية « فريق كرة القدم مثلا ، جماعة نشاط رياضى » أو قواعد توزيع العاملين داخل الوزارات والمصالح الحـكومية وكذلك داخل هيئات ومؤسسات وشركات القطاع العام أو الخاص « فـكل مجموعة موظفين فى مكتب عمل أو إدارة أو قسم ... وكل مجموعة عاملين فى ورشة ... تشكل جماعة عمل .. الخ وهذه القواعد تحدد حقوق وواجبات كل طرف من أطراف الجماعة حيال الآخر .

٢ ـ أن يتوافر شرط التفاعل الاجتماعى المباشر[١] ، وعلى أن يكون هذا التفاعل شرطا من شروط تـكوين الجماعة ، فالفتى الذى يعجب بفتاة ـ مثلا ـ ويتحول هذا الإعجاب إلى تفاعل إيجابى ، يدفعه إلى أن يطلب يدها ، وتسير الأمور إلى أن يشكلا معا جماعة أى أسرة .. الخ . وهـذا التفاعل قد يكون اتصالا أو تنافسا أو صراعا أو تـكيفا أو تمثيلا أو تنشئة إجتماعية ، كما سنوضح ذلك عند الحديث عن العمليات الاجتماعية الإسلامية .

٣ ـ أن يكون لـكل من أفراد الجماعة دور محدد ، فالأب فى جماعة الأسرة له دور واضح باعتباره راعيا لتلك الأسرة ، والأم أيضا لها دور واضح باعتبارها شريكة الزوج فى رعاية الأسرة ، والأبناء لهم دور أيضا وهو تلقى أسس التربية فى الأسرة وأسس التعليم فى المدرسة أو المعهد أو الـكلية ، وبصورة تعتمد على المواظبة والتحصيل من أجل النجاح والوصول إلى درجة معينة من النضج الاجتماعى المطلوب للمواطن الصالح . وكذلك ملاحظ العمل Foreman فى المصنع له دور واضـح وهو توزيع

Faec — to — Face interaction , (1)

الأعمال على جماعة العاملين ومراقبة قيام كل منهم بواجبه ، وكل عامل له دور وهو القيام بما يسند إليه من أعمال ، شأنه شأن كل من زملائه ... الخ .

٤ ـ شرط الهدف ، فكل جماعة ينبغي أن يكون لها هدف تسعى إلى تحقيقه ، مثل الفرق الرياضية التي يكون هدفها هو الفوز في مختلف المباريات الرياضية ، ومثل جماعة العمل التي يكون هدفها ليس مجرد الإنتاج بمعدل معين فحسب ، وإنما زيادة الإنتاجية أيضا ، ومثل جماعة الأسرة فهي « سكن » لكلا الزوجين ، يتحقق فيها حب الحياة ، بقـاء واستمرار النوع ، تحقيق الغاية من الوجود الاجتماعي وإشباع الدوافع الجنسية ، وتحقيق العواطف والانفعالات الاجتماعية ، مثل عواطف الأبوة والأمومة والأخوة والغيرية وما إلى ذلك . فالأسرة هي الوسط الذي اصطلح عليه المجتمع لإشباع غرائز الإنسان ودوافعه الطبيعية والاجتماعية .

٥ ـ شرط التوقع ، وهذا التوقع يستند إلى حقوق وواجبات أعضاء الجماعة التي تحددها قواعد تكوينها ـ فالزوجة التي لا تقوم بواجباتها المنزلية في حينها ، تتوقع من زوجها المؤاخذة أو التأنيب وربما الضرب ... والعامل أو الموظف الذي لا يقوم بأعباء عمله أو وظيفته بالمعدل المعتاد للعمـل يتوقع من رئيسه اللوم أو التوبيخ أو العقاب الإداري .. واللاعب في الفريق الرياضي الذي لا يؤدي دوره في اللعب بالصورة المتوقعة منه ، يتوقع من رئيس الفريق وربما من المشجعين أيضا القصاص منه ... ومن هنا فإن « التوقع » في السلوك بين أعضاء أي جماعة من شروط وجـود هذه الجماعة .

وجماعة المصلين التي لا تنطبق عليها هذه الشروط ليست بجماعة .

وترتيبا على ذلك فإن الإنسان كائن إجتماعي لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين في المجتمع ، وإنما من الضروري أن يعيش في جماعة ، بل في جماعات ، حتى يستطيع إشباع مختلف حاجاته الاجتماعية . وقد يعيش في أكثر من جماعة حتى يحصل على كل احتياجاته غير أن الجماعة لا تقوم بإشباع حاجات الفرد وتحقيق رغباته دون قيد أو شرط . وإنما هي تضع له القواعد والأسس التي يتم في نطاقها إشباع دوافعه وتحقيق رغباته . ومن ثم فإن على الفرد ـ إذا أراد إشباع دوافعه أن يقوم بعـدة عمليات للتكيف الاجتماعي مع الأوضاع السائدة في الجماعة ومن هنا تنعكس تأثيرات الجماعة على شخصيته ، أو بمعنى آخر تبدأ الجماعة (الأسرة) منذ لحظة ولادته في تشـكيل

طبائعه ، حتى تأخذ كل منها السمة المعينة التى تميزه عن غيره . فالجماعة تساعد الفرد منذ لحظة وصوله إلى العالم الواقعى — على تحويل قدراته الفطرية إلى إستعدادات ومهارات — طبقا لمستواها الحضارى — حتى يصبح له شخصية خاصة مميزة بخصائص اجتماعية ونفسية وعقلية وبدنية[1] . غير أن هذا الفرد عندما يصل إلى درجة من النضج الاجتماعى وتتوافر لديه القدرات العقلية العليا ، قد يعمل على التأثير فى المجتمع بصورة ما ، مثل كثير من الزعماء المخلصين والعلماء والعباقرة .

وأصغر أنواع الجماعات هى التى تتكون من شخصين : كالزوج والزوجة ، أو كصديقين تجمعهما مناقشة ما ، وتتلخص علاقتهما الاجتماعية فى تأثر أحدهما بالآخر ، وفى تأثيره فيه .. وعندما يزداد عدد أفراد الجماعة إلى ثلاثة ، تزداد — تبعا لذلك — العلاقات الاجتماعية التى تنشأ بين فرد وآخر ، وتظهر علاقات أخرى جديدة تربط الفرد بالجماعة . وعلى سبيل المثال فإن الأسرة التى تتكون من أب وأم وإبنة . فان العلاقات الاجتماعية التى تربط بين أفراد هذه الجماعة الثلاثية تتلخص فى ثلاث علاقات فردية ، وثلاث علاقات فردية جماعية ، بمعنى أن العلاقات الفردية تبدو فى علاقة الأب بالأم ، وعلاقة الأب بالإبنة ، وكذلك علاقة الأم بالإبنة ، على حين أن العلاقات الفردية الجماعية تبدو فى علاقة الأب بالأم والإبنه معا ، وفى علاقة الأم بالأب والإبنة معا ، وفى علاقة الإبنة بالأب والأم معا .

هذا وتختلف النهاية العظمى للعلاقات باختلاف عدد أفراد الجماعة ، فالنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من فردين تساوى علاقتين ، والنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من ثلاثة أفراد تساوى ست علاقات . والنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من أربعة أفراد تساوى ١٢ علاقة . وهكذا يستطرد بنا التحليل السوسيومترى إلى أن نصل إلى النهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من (ن) من الأفراد تساوى [ن (ن — ١)] علاقة . ولا ريب أن لكل نوع من هذه

---

(1) Evans, K. N. : Sociometry and Educrtion. Routledge and Kegan, London, 1966, pp. 1—2 .

العلاقات صفات إجتماعية تميزه عن بقية أنواع العلاقات الأخرى داخل الجماعة[1] . هذا وتصنف الجماعات إلى :

أ ـ جماعة داخلة In—group أو أولية Primary أو تلقائية Spontaneity ومن أهم الأمثلة على ذلك الأسرة ورفقاء اللعب . والجيران ، وزملاء الدعوة ، والعاملين فى الإصلاح الاجتماعى، حيث يتطلب الأمر أن ينتمى إليها الشخص ويدين لها بالولاء، ويعمل مع أفرادها ، وتكون العلاقات فيها وجهاً لوجه بحيث يتأثر الأفراد فيها بعضهم البعض تأثراً شخصياً ، وينتمى إليها الإنسان بصورة تلقائية ، أى بحكم مولده . ومن أمثلة ذلك أيضاً أبناء القرية أو الحى الذى يولد فيه الإنسان وكذلك الطبقة التى ينتمى إليها . فالجماعة الداخلية هى التى ينتمى إليها الفرد، على حين أن الجماعة التى لا ينتمى إليها هى جماعة خارجية بالنسبة له ، وبين الجماعتين فوارق وحدود قائمة .. وقد تحدد الجماعة الداخلة أو الأولية أو التلقائية على أساس أسبقية ظهورها فى حياة الفرد .

ويعرف « كولى » الجماعة الأولية بأنها تلك التى يتصـــل فيها الناس اتصالا قويا مباشراً[2] . وتسمى أمثال هذه الجماعة بالجماعة الأوليـة لأنها تشتمل على المؤثرات الجوهرية الأساسية التى تقوم عليها حياة الفرد الاجتماعية ، والاتصال المباشر يؤدى إلى إندماج الفرد فى الشكل العام الذى ينتظم تلك الجماعة . وتصبح ذات الفرد نفسها جزءاً قويا فى الحياة العامة المشتركة لهذه الجماعة ، والتى تساير أغراضه وأهدافه .

ودراسة أثر الجماعة الأولية فى السلوك الاجتماعى ـ الذى يعنى الأخصائى الاجتماعى أو رجل الدين بالدرجة الأولى ـ تؤدى بنا إلى فهم سلوك الفرد فى الجماعات الكبرى المعقدة المتشابكة التى يدين أفرادها بمختلف الألوان المتباينة من الثقافات المتعددة ، فالأسس الأولى لهذا السلوك تتكون فى الجماعات الأولية وتسرى منها إلى الجماعات الثانوية ، على اعتبار أن استجابة الطفل لسلطة أبيه أو أمه تفسر للباحث الاجتماعى الأسس النفسية والاجتماعية لاستجابة الإنسان للقانون أو لأولياء الأمور .

---

(١) انظر رسالتنا للدكتوراه بعنوان « منهج القياس الاجتماعى ووسائله فى قياس العلاقات الاجتماعية، مع دراسة تطبيقية على بعض جماعات العمل فى بعض المصانع » مطبوعة بالاستنسل ومودعه بمكتبة جامعة القاهرة ١٩٧١ صفحة .

(2) Cooly, ch. : Social Organization. N.Y., 1909 .

ب ـ جماعة خارجة Out — group أو ثانوية Secondary أو طوعية Voluntary وهى الجماعة التى لا يكون التأثير بين أفرادها وجها لوجه ، ويكون انتماء الإنسان إليها معتمدا إلى حد كبير على رغبته، مثل جماعات الفرق الرياضية والنوادى والهيئات العلمية والنقابات والأحزاب السياسية ، وجماعات الأديان الجديدة . هذا ويتميز تكوين هذه الجماعات عن الجماعات الأولية بالقصد والاختيار ، بمعنى أن هذه الجماعات تمثل الرغبات والحاجات العامة للأفراد ، ولا تعتمد دائما على العلاقات الحاسية المباشرة بين الأفراد والتى تقوم على مقابلة أفرادها لبعضهم البعض ، وجها لوجه ، بين الحين والآخر . وإنما تقوم على وسائل الاتصال غير المباشر ، أو وسائل الاتصال الجمعى مثل الصحف والإذاعة والتليفزيون والمؤلفات الأدبية والعلمية والمحاضرات وخطب الجمعة والعيدين ... الخ فقد ينتسب الفرد إلى جمعية علمية ويصبح عضوا فيها دون أن يقابل جميع أعضائها . ويقاس على ذلك انتماء الفرد للهيئات السياسية والجمعيات الدينية ومختلف النقابات .

ومن أشهر الجماعات الإسلامية التى تنتمى إلى هذا النوع من الجماعات جماعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ورفاقه التى تم تكوينها فى المدينة المنورة باستخدام المسجد كبوتقة يمتزج فيها صهر الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار ليتحولوا إلى جماعة جديدة تختلف عن الجماعات المتناحرة السابقة على الإسلام .

الطبقات الاجتماعية Social Castes

لقد ساد نظام الطبقات فى بعض المجتمعات القديمة مثل مصر والصين والهند ، حيث يقوم نظام الطبقات institutions of Castes على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات منغلقة تتخصص كل منها فى عمل معين ، وتكون لكل منها مكانة اجتماعية تختلف عن بقية الطبقات الأخرى . وفى الغالب يستند مثل هذا النظام إلى أساس دينى . ومن أهم الأمثلة على ذلك نظام الطبقات فى المجتمع الهندى القديم ، حيث كان المجتمع ينقسم إلى:

١ ـ طبقة البراهمانيين ، وأفراد هذه الطبقة أكثر أفراد المجتمع الهندى امتيازا . فهم وحدهم الذين يعلمون الناس أسفار « الفيدا » أى الكتاب المقدس ، وهم الذين يستأثرون بالسلطة والنفوذ والجاه ، معتمدين فى ذلك على الطبقات الأخرى التى تؤمن بذلك التقسيم وبتلك الامتيازات وتعمل من أجل حمايتها .

٢ ـ طبقة الكشاتريين : وأفراد هذه الطبقة تتكون منهم فصائل الجيش وهم الذين يدانمون عن الطبقة الأولى ويحافظون على هيبتها الاجتماعية .

٣ ـ طبقة الفسيائيين : وأفراد هذه الطبقة يعملون بالتجارة والصناعة والزراعة ووظيفتهم إنتاج وتبادل مختلف السلع الاستهلاكية والإنشائية .

٤ ـ طبقة السودريين : وأفراد هذه الطبقة هم العبيد والأرقاء ، وهؤلاء ليست لهم وظيفة إلا خدمة الطبقات السابقة ، مع عدم وجود أية حقوق أو امتيازات لهم .

ويقضى النظام الطبقى الهندى بحرمان الطبقتين الثانية والثالثة من الحرية السياسية، بمعنى أنه ليس من حق أفرادها الوصول إلى كراسى الحكم . كما يقضى هذا النظام باحترام الطبقات الأخرى، أى باحترام البراهمانى وإجلاله بسبب نسبه وحده، وأن أحكامه هى وحدها الحجة ، وأن له وحده حين الحاجة أن يمتلك مال أى فرد من السفلة ـ أى من العبيد ـ لأن العبد وماملكت يداه ملك لسيده . وكان محرما ـ طبقا لقواعد الديانة البراهمانية ـ على أفراد الطبقة المنكودة ، أى طبقة العبيد ، أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم به ، وإلا حل به عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه أو شق لسانه وتقطيع جسمه .

ولا ريب أن أى نظام طبقى من هذا النوع أو قريب منه يتعارض مع المساواة الاجتماعية بين المواطنين ، ومن ثم فإن سيادة النظام الطبقى فى أى مجتمع تؤدى إلى تعويق نموه الاجتماعى طوال استمرار وجود ذلك النظام .

وقد تطور نظام الطبقات فى بعض المجتمعات إلى نظام طبقى حرفى **Règime des castes** ويقوم هذا النظام على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات مهنية تتخصص كل منها فى مهنة معينة ، ولا يسمح لأفرادها بمزاولة أى مهنة أخرى ، كما لا يسمح لأى فرد من طبقة مهنية بمزاولة مهنة خاصة بأى طبقة غير طبقته . ومن هنا فإن ابن المزارع يصبح مزارعا ولا شىء غير ذلك ، وكذلك إبن النجار والحداد ... الخ . ومن جهة أخرى لا يجوز لأى فرد من طبقة المزارعين أن يتزوج فتاة من طبقة النجارين أو العكس ، وإنما من الضرورى على كل فرد أن يتزوج فتاة من طبقته ـ ذلك أن هذا النظام ، يقوم كذلك ـ بجانب الأساس الاقتصادى ـ على أساس دينى ، باعتبار أن الآلهة قد فرضت هذا التقسيم على أفراد المجتمع ، وبالتالى فإن على الجميع احترامه .

ومن الواضح أن نظام الطبقات سواء أكان على أساس دينى أو على أساس حرفى يعتبر أداة من أدوات التعويق الاجتماعى التى تحول بين المجتمع وبين التطور إلى أفضل .

ولم يأخذ الإسلام بالنظام الطبقى الذى كان سابقا عليه ، فقد ظهر الإسلام فى عصر كان الرق فيه من الدعائم التى يرتكز عليها المجتمع العربى فى جميع نواحى الحياة الاقتصادية كما تعتمد عليه جميع فروع الإنتاج فى مختلف أمم العالم يومئذ ، بمعنى أن المجتمع العربى حينئذ كان ينقسم إلى طبقة الأحرار وطبقة الأرقاء والعبيد . وبمعنى آخر كان المجتمع العربى من طبقتين ، أى طبقة حرة تعيش على أكتاف طبقة مسترقة .

ولما كان المجتمع الاسلامى ينبغى أن يكون كل أعضائه من الأحرار كأسنان المشط من حيث المكانة الاجتماعية . ولما كان من المستحيل تحريم الرق تحريما قاطعا ناجزا لأول وهلة ، على اعتبار أن محاولة كهذه ، كان من شأنها أن تعرض أوامر الشرع للمخالفة والامتهان ، مهما أوتى هـذا الشرع من وسائل وأساليب الضغط والإرغام لإكراه الأفراد على تنفيذ ما أمر به . كما أن تلك المحاولة يمكن أن تعرض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهزة عنيفة ، بل إن مثل هذا التشريع يمكن أن يؤدى إلى أضرار بالغة لاتقل فى سوء مغبتها عما يمكن أن تتعرض له حياتنا فى الوقت الحاضر إذا ألغى بشكل مفاجىء نظام البنوك والشركات المساهمة ، أو إذا حرم استخدام العمال ، وقضى بذلك على كل مالك أو صاحب عمل أن يعمل كل احتياجاته ويمارس كل أنشطته من تجارة وزراعة وصناعة بنفسه أو بيديه ، أو إذا أبطل إستخدام السكك الحديدية أو الكهرباء أو البخار . . . فالرقيق كطبقة اجتماعية فى المجتمع العربى قبل الاسلام ، كان مثله مثل البخار أو الكهرباء للجهاز الاقتصادى فى تلك العصور .

ولذلك اتجه دعاة المجتمع الإسلامى إلى تقريب الطبقات عن طريق إقرار الرق ، غير أن الاسلام أقر الرق فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء على هذا النظام الطبقى الجائر بالتدريج ، وبدون أن يترتب على ذلك أى أثر سىء فى نظام المجتمع الانسانى ، بل بدون أن يشعر أحد بتغيير مجرى الحياة الاجتماعية .

والوسيلة التى استخدمها دعاة المجتمع الإسلامى من أجل تحقيق تلك الغاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا أو أصدقها نتيجة ، وهى تتلخص فى العمل على تضييق الروافد التى تمد طبقة الرقيق وتغذيها وتكفل بقاءها ، مع توسيع المنافذ التى تؤدى إلى العتق والتحرر . وبذلك أصبح الرق أشبه شىء بنهر كثرت مصباته وانقطعت

عنه منابعه التى يستمد منها الماء . وخليق بنهر هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف. وبذلك كفل الإسلام تحويل تلك الطبقة من حالة الرق إلى حالة الحرية فى صورة سلمية هادئة . وأتاح العالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئا فشيئا من هذا النظام الذى يتعارض مع مبادىء الاسلام (١)

ومن الأمثلة التى تؤكد إيمان الإسلام بإلغاء التفرقة الطبقية فى المجتمع . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب عندما سمع أبو بكر يقول لبلال فى ثورة غضب يا إبن السوداء ... وقال « طف الكيل ، ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء إلا بالتقوى » فوضع أبو بكر عنقه على التراب ، وطلب من بلال أن يطأه بقدمه ، فعفا عنه .

وليس معنى ذلك أن المساواة فى المجتمع الإسلامى مساواة مطلقة، أو أن الطبقات غير موجودة فى المجتمع الإسلامى ، وإنما المساواة فى الإسلام هى مساواة فى الانسانية بمعنى أن الإنسان المسلم يساوى الإنسان المسلم ولا يفضل أحدهما على الآخر إلا بالتقوى . ولذلك فإن الصفة الطبقية فى الإسلام تأتى من ناحية الملكية لقوله تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات (أى فى ملكية المال) ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » (الأنعام ١٦٥) مع مراعاة أن الذى يملك المال فى الإسلام لا ينبغى أن يطغى بالمال ولا أن تتحقق له سيادة نافذة فى المجتمع عن طريق ملكيته له . فالإسلام ينظر إلى المال على أن له وظيفة اجتماعية . وهى أن منفعته سواء لمن يملكه ولمن لا يملكه . على اعتبار أنه طالما أن المال لله على الحقيقة ، والله للجميع ، فإن منفعته يجب أن تكون كذلك للجميع . وإن وقع استخلاف البعض دون البعض الآخر : يقول الله سبحانه وتعالى « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » (النحل ٧١) .

وإذا كانت منفعة المال لمن يملك ولمن لا يملك على السواء على هذه الصورة ، فإن

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : أسس المجتمع الاسلامى والمجتمع الشيوعى ، دراسة مقارنة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦ صفحة ٧٥ — ٧٦

المالك يصبح شأنه شأن العامل سواء بسواء ، كلاهما له مصلحة فى المال وكلاهما له مصلحة فى العمل فيه ، فصاحب المال إن بدت له مصلحة فى العمل فى ماله ، فإن العامل له أيضا مصلحة حقيقية فى مال صاحب المال ، بالإضافة إلى أنه يؤجر على عمله فيه ، ذلك أن المجتمع كصورة من صور عمارة الكون تقوم عمارته على المالك والعامل معا ، بمعنى أن المالك يحفظ أو يحرس ماله ويباشر تنميته ، والعامل يعمل فيه ويؤجر على عمله ، ولا تتم هذه العمارة بسيادة الملاك وحدهم عن طريق المال ، ولا بملكية الدولة لوسائل الإنتاج تحت سيطرة البروليتاريا .

وملكية الدولة لوسائل الإنتاج تحت زعم ملكية الشعب لتلك الوسائل ، هى ملكية اعتبارية ، ذلك أن الواقع — والأمر كذلك — يؤكد أن المال — أو وسائل الإنتاج — قد أصبحت بدون مالك ، وبالتالى بدون حراس ورقباء . والمجتمع الذى تملك فيه الدولة وحدها هو مجتمع بدون مالكين ، أو مجتمع عاملين فقط . وذلك ضد طبيعة الوجود لأن الوجود فى طبيعته يقوم على «التزاوجية» أى على الشيء ومقابله . والنوع الإنسانى إذ وجد على أساس الذكورة والأنوثة معا ، فإن قيام مجتمعه وصلاح أمره يقوم على التقابل نفسه ، يقوم على وجود من يملك فيه المال ، ومن لا يملكه ، ولكن يعمل فيه . وبالتالى فإن المجتمع الإسلامى يقر بوجود طبقة الملاك وطبقة الأجراء ولكن بخصائص معينة تختلف عن خصائص الطبقات بالمعنى الماركسى . والقرآن الكريم يؤكد وجهة النظر هذه بقوله تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » (الزخرف ٣٢) .

غير أن اعتراف الإسلام بالطبقات أو بتفاوت الناس فى ملكية المال ليس الهدف منه إيجاد المناخ الملائم للصراع الطبقى بالمعنى الماركسى ، وإنما هدفه إيجاد المناخ الملائم للتكافل الاجتماعى . وهو تكافل صاحب المال مع صاحب الطاقة على العمل . فقسمة الله لمعيشة الناس فى الحياة الدنيا ، إقتضت أن بعض الناس يملكون ، والبعض الآخر لا يملك منه شيئا ، وإنما يملك القدرة والاستعداد المهنى على العمل ، فوجود المالك ووجود العامل معا هو لتحقيق التزاوج والتماسك فى المجتمع . ومن ثم فإن المجتمع الإسلامى

ليس مجتمعا لطبقة الملاك دون العمال أو لطبقة العمال دون الملاك ، وإنما هو مجتمع الملاك والعمال أى مجتمع كل الطبقات دون استغلال أى طبقة للأخرى .

هذا وقد تطور مفهوم « الطبقة » فى العصر الحاضر إلى أن أصبح المجتمع ينقسم — فى الغالب — إلى طبقات ثلاث هى :

— طبقـــة الأثرياء (الطبقة الارستقراطية) وهؤلاء هم الذين يملـكون أموالا وعقارات أو أطيان زراعية تزيد فوائدها ودخولها أو ريعها عن حاجاتهم الضرورية بشكل واضح . ومثل هذه الطبقة تنقسم إلى فئات مثل فئة الارستقراطيين الزراعيين وهم فئة كبار الملاك وفئة الارستقراطيين الصناعيين والتجاريين وهم كبار أصحاب رءوس الأموال، وأصحاب الأعمال وكبار الموظفين ورجال المهن الحرة .. الخ .

— الطبقة الوسطى (الطبقة البرجوازية) وهم الذين تـكفيهم دخولهم ، بعيـــدا عن الإسراف أو التقتير . وهذه الطبقة تنطوى على مجموعة من الفئات مثل فئات أصحاب المزارع والمتاجر والمصانع المتوسطة ، ومتوسطى الحال من الموظفين وأصحاب المهن الحرة .. الخ .

— طبقة الفقراء ، وهؤلاء هم الذين لا تـكفيهم دخولهم بالمرة وبالتالى فإن حياتهم الاجتماعية تمتلىء بمختلف ألوان المشكلات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية . ومثل هذه الطبقة تشمل بعض الفئات مثل فئات صغار الملاك والعمال الزراعيين والصناعيين وأصحاب الحرف .. الخ .

هذا وقد اختلف علماء الاجتماع فى تعريف الطبقة ، فقـــد عرفها عالم الاقتصاد الفرنسى سيمياند Simiand بأنها « فئة من الأفراد تتشابه فى دخلها وفى ثروتها ، كما تتشابه فى طريقة صرف هذا الدخل وتلك الثروة » ويعرفها « أندريه جو سان » تعريفا قريبا من ذلك(١) . والطبقة لا تدل على وضع اقتصادى فحسب ، بمعنى وجود فروق فى الثروة بين فئة وأخرى، وإنما هى تدل أيضا على اختلاف فى العقلية وفى الصفات النفسية . ومما يؤكد ذلك أننا إذا اخترنا فردا من كل طبقة من الطبقات الثلاث وأعطيناه مبلغا

---

(1) **Joussan, A. : Les Classes Sociales (Que sais—je ?) Alex., 1949, P. 12 .**

من المال يعادل ما أخذه كل من زملائه ، فإن طريقة إنفاق كل منهم لهذا المبلغ سوف تختلف عن الآخر بصورة تعبر عن اختلاف تفكير كل منهم وفلسفته وحالته النفسية . ويرجع ذلك إلى أن لكل من هذه الطبقات مستوى معينا من الدخل ، كما أن لكل منها أبوابا خاصة للانفاق لما يسميه الاقتصاديون بميزانية الأسرة . فإذا كان الجزء الأكبر من ميزانية الأسرة ينفق على المأكل والمشرب والملبس فى حالة الطبقات الفقيرة ، فإنه يصرف على تعليم الأولاد ومحاولة الظهور بمظهر الاكتفاء .. الخ ، لدى الطبقة المتوسطة أو البورجوازية على حين أنه ينفق على الكماليات وعلى إنتاج ثروات أخرى جديدة لدى الطبقة الغنية أو الأرستقراطية .

الفئة الاجتماعية Social Category

وهى جمع من الناس يمتاز أفراده بصفة معينة ، تجعل المجتمع ينظر إليهم نظرة خاصة ، وهذه الصفة تؤدى إلى تفرقة هذا الجمع عن غيره من الجموع الأخرى التى تعيش وسطها . ومن الأمثلة على ذلك نقابة المهن الاجتماعية، حيث يتميز أفرادها بثقافة اجتماعية ، بالإضافة إلى تخصصهم فى الأعمال الاجتماعية ، وكذلك الحال بالنسبة لنقابة الأطباء ونقابة المهندسين ونقابة أئمة المساجد .. الخ ومن الأمثلة الأخرى فئات الأيتام، المطلقات ، والأرامل ، أرباب المعاشات ، والمرضى بأمراض عقلية أو بأمراض معدية .. الخ . وقد يقسم المجتمع إلى فئات على أساس سياسى كما هو الحال فى المجتمع المصرى ، إذ يقسم طبقا لما جاء فى الميثاق الوطنى إلى قوى « فئات » العمال والفلاحين والمثقفين والرأسمالية الوطنية والجنود . بحيث يعبر تضامنهم عن مجموع الشعب ، وذلك هو مضمون عبارة « تحالف قوى الشعب العامل » وإن كان قد تبين أن الهدف من هذا التقسيم هو استعداء بعض الطبقات على بعضها لصالح الآخرين .

التدرج الاجتماعى Stratification in Society

والتدرج فى المجتمع يرتبط بالطبقات وبالفئات الاجتماعية . ودراسة التدريج فى المجتمع هى الدراسة التى تتناول تقسيمات المجتمع إلى فئات لكل منها خصائصها ، ويمكن التعرف عليها بسمات معينة تميزها عن الفئات الأخرى . وعلاقة التمييز هى العنصر الشائع الوحيد بين التدريج فى علم الاجتماع والتدريج فى الجيولوجيا ذلك أن

التدريج فى الجيولوجيا يعتمد على الحيز الفراغى Spatially distant الذى ينفصل بصفة مؤقتة ، بمعنى أن كل طبقة تسبق طبقة وتتبعها أخرى فى الزمن الجيولوجى . على حين ان المقصود بالتدريج الاجتماعى هو إنقسام المجتمع إلى فئات مثـل تلك التى بين الحاكم والمحـكومين ، القائد والأتباع ، المعلم والمتعلمين ، العسكريين والمدنيين ... الخ.

وإذا نظرنا إلى أفراد المجتمع ، لوجدنا أنه بالرغم من تشابههم فى العادات والأعراف والتقاليد وفى الأخلاق والسلوك أو فى الأنماط الاجتماعية التى يسيرون عليها ، نجد فروقا بينهم قد ترجع إلى السن أو المهنة أو المركز الاجتماعى أو الثروة ... الخ ومن ثم فإن الأفراد الذين يتـكون منهم المجتمع ليسوا متساوين فى كل شىء كأسنان المشط، وبالتالى يتكون ما يطلق عليه علماء الاجتماع اصطلاح التدرج الاجتماعى وعلى ذلك يمكن القول إن المجتمع يتكون من فئات Categores لـكل منها ميزات معينة تميزها عن الفئات الأخرى ويفرق علماء الاجتماع بين نوعين من الفئات .

- نوع رأسى Vertical category مثل فئات السن الواحدة ، ومن أوضحها فئات الأطفال ، الشباب ، الشيوخ ، القادرين على العمل والعاجزين عنه ، والمثقفين وغير المثقفين ويضاف إلى ذلك الفئات المهنية التى تتكون أو تتجسد فى نقابات مهنية أو منظمات حزبية سياسية ... الخ.

ونوع أفقى Horizontal Category وهى تلك التى يدخل فيها عنصر الارتفاع والانخفاض ، بمعنى أن الفئات من هـذا النوع مرتبة الواحدة تلو الأخرى ، ووفق نظام خاص ، مبتدئة بالفئات العليا ومنتهية بالفئات الدنيا .

والنوع الثانى من الفئات هو المقصود بالتدرج الاجتماعى ، أو هو الذى يعبر عن التدرج الاجتماعى .

والفئات الاجتماعية هذه هى التى يطلق عليها خطأ فى بعض المجتمعات إسم الطبقات Strata or Classes لأنها مرتبة الواحدة تلو الأخرى . ومما تجدر الإشارة إليه أن التدريج الاجتماعى ظاهرة اجتماعية لايخلو منها أى مجتمع من المجتمعات .

وفى المجتمع الحديث فإن نظام الطبقات Social Classes يختلف عن نظام الحرف ونظام الإقطاع Feudalism وهو نظام وسط بين نظام الطبقات الحرفية ونظام الطبقات بالمفهوم الحديث ، فهو يقوم على نفس الأسس التى يقوم عليها نظام الحرف فيما يختص

بوراثة المهنة والزواج والاستقرار الاجتماعى والتطور المحدود والأسس التى يقوم عليها، ولكن بشكل مخفف ، حيث لا نجد لكل طبقة حرفية Caste كهنوتا خاصا ورجالا دينيين ومعابد خاصة بهذه الطبقة دون سواها ، وإنما نجد خضوع الطبقات بالمعنى الإقطاعى لمذهب دينى واحد وكنيسة واحدة وثقافة واحدة تشمل جميع طبقات المجتمع.

بينما نجد جميع الأفراد فى الجماعة الحديثة متساوون أمام القانون فى الحقوق والواجبات وترجع ظاهرة التساوى بين الأفراد إلى الإسلام ، الذى أقرها كقاعدة عامة واستمرت قائمة وإن كانت قد اختفت فى عصر الخلافة العثمانية ولم تعرفها أوربا إلا فى سنة ١٧٨٩ عقب الثورة الفرنسية ، ولم تعرفها مصر ــ وهى إحدى الأجزاء الرئيسية فى المجتمع الإسلامى ــ إلا حوالى سنة ١٨٥٨ بعد إلغاء نظام الرق فى مصر .

وبذلك أصبحت الطبقة عبارة عن فئة اجتماعية مفتوحة ، بمعنى أنه لا يوجد ما يمنع أحد أفراد طبقة من الطبقات إذا حدثت تغيرات اجتماعية جذرية ، تؤدى إلى ثراء هذا الفرد وحصوله على مركز اجتماعى ممتاز من أن يخرج من طبقة ويدخل فى أخرى . والفئة بهذا الواصف تعتبر جماعة ثانوية ، أى تخلو من التفاعل المباشر والتأثير القائم على المواجهة الشخصية .

الحراك الاجتماعى Social mobility

هذا والحراك الاجتماعى يرتبط بعلاقة وثيقة بالنظام الحديث للطبقات ، ذلك أن الحراك الاجتماعى عبارة عن تغيير مركز الأفراد الاجتماعى . وإن كان الحراك منعدم تقريبا فى نظام الحرف ونظام الإقطاع ، فإنه نشيط وواضح فى نظام الطبقات .

ويرتبط بمصطلح الحراك الاجتماعى ، وبموضوع هذا الكتاب ، اصطلاح أنماط الأعمال المهنية Career patterns وهو مصطلح الحراك المهنى occupational mobility يرادف مصطلح الحراك الاجتماعى حيث يمكن أن يطلق عليه البعض « حراك الوظيفة » job mobility وقد يطلق عليه البعض « حراك العمل » Labor mobility ويميل دارسو الحراك الاجتماعى فى الوقت الحالى إلى اعتبار المهنة وحدها دليلا كافيا للمكانة الاجتماعية الاقتصادية ، ومن ثم دليلا وعكسا للحراك الاجتماعى . ومعنى ذلك أن الحراك المهنى يساوى ويعادل الحراك الاجتماعى .

غير أن الحركة فى اتجاه الحراك تسير إلى حد كبير فى اتجاه الحراك الأفقى فى

أوساط العمال دون زيادة مقابلة فى الحراك الرأسى . . ذلك أن أكثر العوامل قوة فى إحداث الحراك الرأسى هو « التعليم » على اعتبار أن الرقى الاجتماعى **Social graces** لايتحقق إلا عن طريق التعليم الذى يجعل الحركة إلى أعلى ميسورة فى البناء الاجتماعى وهانحن أولاء نشاهد وظائف أصحاب الياقات البيضاء تتزايد بالقياس إلى الأعمال اليدوية ، وهذا يعنى أن أناسا كثيرين يستفيدون من هذا النوع من التعليم الذى يؤهلهم لتلك الوظائف . . . غير أن الحقيقة القائمة تؤكد أن تلك المنافذ إلى الطرق الرئيسية للحراك مغلقة تماما أمام جزء كبير من الناس الذين يستبعدوا باستمرار بعيدا عن فرصة تحسين مكانتهم .

إن الحراك الرأسى غير المقيد — بدون هدف أو غرض — لهو ضار بالمجتمع تماما ، مثل التقييد العشوائى للحركة ، وفى كلتا الحالتين ، فإن علاقة الحراك باللاضبط واضحة فى ذاتها .

نخلص من هذا إلى أنه « يقصد بالحراك الاجتماعى أى تغيير فى الوضع الاجتماعى للفرد أو الهدف الاجتماعى أو القيمة الاجتماعية — أو أى شىء يمكن أن يخلق أو يعدل بواسطة النشاط الإنسانى — إلى وضع إجتماعى آخر »[1] .

والشكل التالى يبين كيفية حدوث الحراك الاجتماعى فى المجتمع :

شكل رقم (١)

(1) Social mobility is any transition of individual or social object or velue—anything that has been Created or modified by human activity—from one social position to another ".

(٢) دكتور زيدان عبد الباقى : علم الاجتماع المهنى . مكتبة دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨ ، ١٩

المجتمع المحلى Community

المجتمع المحلى قد يكون قرية أو حي « جزء من مدينة » أو مدينة بكاملها أو محافظة من المحافظات أو إقليم من الأقاليم أو ولاية من الولايات طبقا للتقسيمات الإدارية لكل مجتمع . والمجتمع المحلى بهذا التحديد عبارة عن جماعة من النـاس يعيشون متجاورين في منطقة جغرافية ذات حدود إدارية معترف بها داخل المجتمع ، ولهم مراكز مشتركة لنشاطهم ولمصالحهم ، ويعملون سويا فى إنجاز المشروعات الضرورية لحياتهم . وعلى هذا يمكن تعريف المجتمع المحلى بأنه منطقة من الأرض ذات حدود إدارية معترف بها داخل المجتمع ، تعيش عليها مجموعة من الأفراد فى شكل أسر وجماعات داخل قرى أو مدن صغيرة أو أحياء من مدن كبيرة ، وتنظيم العلاقات والمعاملات بينهم طبقا للقوانين المكتوبة والقوانين غير المكتوبة (عادات وأعراف وتقاليد وقيم ومبادىء ومعايير ...) ولهم حكومة (هيئة إدارية) تشرف على تنفيذ تلك القوانين ، تحت إشراف رئيس ، والذى قد يكون عمدة ، رئيس حى ، رئيس مدينـة ، محافظ وما إلى ذلك من مختلف المسميات .

المجتمع Society :

يعرف « تيما شيف » المجتمع بأنه يتكون من « بنى الإنسان فى وجـودهم الذى يقـوم على الاعتماد المتبادل »[1] بمعنى أن المجتمع يسمح بنوع من الإكتفاء الذاتى فى الغالب ، ذلك أن الجماعة لاتسمح بمجالاتها الضيقة ، كما لا يسمح المجتمع المحلى ـ أيضا ـ بإشباع كل حاجات الإنسان بالمستوى الحضارى المعروف ، مالم تتكامل كل تلك الجماعات مع غيرها من المجتمعات المحلية الأخرى ، والتى من مجموعها يتشـكل المجتمع بالصورة التى يمكن أن يتوافر فيها العديد من المنظمات والنظم الاجتماعية التى تستطيع بامكاناتها الفسيحة أن توفر كل وسائل ومتطلبات الإشباع الحضارى للانسان . وعلى ذلك فإنه إذا كانت الثقافة هى طريق المجتمع وأسلوبه ، فإن المجتمع هو الحياة عينها ، ذلك أن المجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الإنسان ، لايستطيع بدونه أن يشبع دوافعه إشباعا

---

(1) Timasheff, N. : Sociological Theory. Its Nature and Growth. Second printing, Third Edition, Random House, N. Y., 1976, P. 10 .

حضاريا ملائما، فما لاريب فيه أن المجتمع يجعل الحياة الاجتماعية ميسورة. بل إن المجتمع هو الذى يصنع أفكار الفرد وقيمه الاجتماعية ، ويحدد أدواره وأنماط سلوكه ، ومن ثم فإن وجود الفرد يتوقف على وجود المجتمع ، وبالتالى فإن الثقافة لا توجد بدون وجود المجتمع . وعلى هذا فإن أهمية المجتمع للفرد وأهميـة الفرد للمجتمع لا تحتاج إلى تأكيد .

هذا ويرجع إلى الشعور الغريزى لدى الإنسـان بالإحساس الجمعى **Inherent Sociability** الفضل فى ضرورة قيام المجتمع ، ولذلك فإن الحد الأدنى للشروط المطلوب توافرها فى أى جماعة من الناس لكى يطلق عليها « مجتمع » هو ـ كما يرى جنزبرج ـ أسرتين أو أكثر ترتبطان بروابط قرابة معينة ، وأنسب وصف لهذا المجتمع هو العشيرة **Clan** ومن بعدها القبيلة **Tribe** ثم القرية ثم المدينـة المستقلة ، ثم الدولة ، ثم الإمبراطورية .

وعلى الرغم من أن العشيرة أو القبيلة ، يمكن أن تكون ـ أقل عددا فى الحقيقة ـ من القرية أو المدينة ، فإن القبيلة تأخذ معنى المجتمع مثلها مثل القرية أو المدينة . غير أن القبيلة ذات ديمومة ذاتية **Self — perpetuating** بشكل يفوق ديمومة أفرادها ، على اعتبار أن الفرد فان والقبيلة باقية ، بل وقابلة للزيادة ، طالما كانت قادرة على ضم أعضاء جدد من المواليد الجدد . وليس معنى ذلك أنها دائمة إلى الأبد ، وإنما يمكن أن تتفكك كلية ، أو أن تذوب فى مجتمع آخر أكبر منها ، أو أن تحتفظ بكيانها دون أن يكون لها وضع متميز ، مثلما حدث للقبائل التى هاجرت من الجزيرة العربية أو من المغرب العربى إلى مصر ، وأدخلت بالتدريج فى نظام إجتماعى أوسع للحكم ، مما أدى إلى غطاسها **emerged** فى ثنيـات ذلك المجتمع ، بحيث أصبحت أثرا **Relic** يستحق الذكر[1] . وذلك بعكس الحال فى مجتمعات القرى والمدن .

ومما سبق يمكن تعريف المجتمع « كجماعة منظمة من الناس ومرتبطة بروابط تضامنية فى شكل أنساق للحياة ، تقام لتوفير إمكانية التفاعلات الطبيعية من خلال نظم

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى: علم الاجتماع الريفى والقرى المصرية . مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٤ ص ١٩٢ ومابعدها .

تضمن لهم الدفاع عن أنفسهم وتوفـير متطلبات الحياة لهم(١) .

وهذا التعريف ينطوى على بعض المصطلحات والمفاهيم الإجرائية ، التى يتطلب الأمر – من أجل – فهم مصطلح «المجتمع» ضرورة تناولها بالدراسة ، ومن أمثلتها مايلى :

١ — التنظيم Organization

إن المجتمع – مهما كان – مستوى تحضره ، بدائيا كان أو بربريا ، متخلفا أو متقدما ، متحضرا أو غير متحضر .. فمن الضرورى أن يظهر فيه نمط من الحياة الاجتماعية يميزه عن أى مجتمع آخر غيره . ذلك أن الحياة الاجتماعية تتطلب وجـود قواعد وتنظيمات لتوجيه أنماط السلوك ولتوقيع الجزاءات Sanctions على المخالفين لتلك القواعد السلوكية ، أو للمعتدين على النظام الاجتماعى . ووجود مثل تلك القواعد والتنظيمات فى المجتمع « ضرورة اجتماعية » لتيسير القيام بأعباء الأعمال والواجبات الناتجة عن خاصية الإنتماء إلى المجتمع فى شكل متـكامل .

وترتيبا على ذلك فإن كل جماعة من الناس لا تملك تلك القواعد والتنظيمات ليست أهلا لأن يطلق عليها اصطلاح « مجتمع » مادامت قد فشلت فى وضع القواعد التى تنظم حياتها الاجتماعية . وبالتالى فإن مثل تلك الجماعة تعتبر منظمة اجتماعية غير فعالة ، ومن النادر أن تـكون غير ذلك . ومن هنا فإن الجماعة التى توصف عن جدارة « بالمنظمة الاجتماعية » هى التى يعرف كل عضو فيها ماهو متوقع منه ، ويعرف ماهو متوقع من الجماعة ، بل ومن كل من أعضائها . وبالتالى يؤدى دوره ، كما تؤدى الجماعة دورها فى وضوح كامل وفى تـكامل وتساند .

وإستمرار الأخذ بتلك القواعد والتنظيمات يتحول على المدى البعيد إلى عادات مكتسبة تؤدى إلى توفير الجهود فى العلاقات والمعاملات بين الأفراد ، وتسمح للجميع

---

(1) Society is an organized group of people with solidary ties through whose interactione, systems of life and institution ore established to allow for the posibility of natnre, defence and survival .

بأداء واجبات متعددة بصورة لا شعورية Unconsiously فى الوقت الذى يكون فيه كل إنتباههم موجها إلى أعمال أو أشياء أكثر أهمية وأكثر وضوحا .

هذا ولا يجوز الخلط بين التنظيم والتخطيط، ذلك أنه يوجد بالطبيعة تخطيط من نوع معين على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع ، تخطيط من أجل توفير الأطعمة للغد ومابعد الغد ، وأثناء الحروب وما إلى ذلك . وقد يكون التخطيط من أجل زيادة الإنتاجية ، أو من أجل إجراء تغيرات اجتماعية جذرية فى التنظيم الاجتماعى القائم ، على حين أن التنظيم يتكون من مجموعة من القواعد والتنظيمات التى تنشأ تلقائيا من تفاعل وجدانات أعضاء المجتمع وتفاعلهم كأفراد وجماعات .

٣ — التضامن : Solidarity

لا يقوم المجتمع ـ كما أوضحنا من قبل ـ بدون روابط معينة تربط الأفراد والجماعات بعضهم البعض داخل المجتمع . ومن أول وأهم تلك الروابط فى المجتمع ، الرابطة الزواجية Conjugal ties التى تتمثل فى الأسرة أو التى تقوم عليها الأسرة . وترجع أهمية تلك الروابط إلى أنها تنطوى على أسس بيولوجية ونفسية بجوار الأسس الاجتماعية وبجوار تلك الروابط ، توجد الروابط القانونية وروابط الجوار والزمالة وما إلى ذلك . وهذه الروابط ترجع قوتها أو ضعفها إلى الأسس الاجتماعية التى تقوم عليها . ومن هنا فإن معرفتنا لبناء المجتمع Social Structure يمكن الإستدلال عليها من معرفتنا لطبيعة تلك الروابط .

وكلمة « البناء » من الكلمات العربية الأصيلة، وإن أستخدمت بعدة معان ، فهاهى إمراة عوف الشيبانى تنصح ابنتها فى ليلة بنائها ـ أى زفافها ـ نصيحة سيدة حكيمة وخبيرة بالنفس البشرية ونوازعها وأبعادها الاجتماعية ، خبيرة بأوضاع « البناء الأسرى » مما يدل على قدرتها الفائقة فى التوجيه الاجتماعى ، فقد قالت هذه السيدة لابنتها .

« أى بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن إمرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وعدم حاجتها إلى الزوج ، لكنت أغنى الناس عنه . ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال » .

« أى بنيه - إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة، يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك زخرا وهى :

- أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة .

- وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

- وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة .

- وأما السابعة والثامنة : فالإحتراس بماله ، ورعاية جسمه وعياله .

- وأما التاسعة والعاشرة : فالحرص على شرفه فى حضوره وغيبته والحرص على سمعته .

ثم تختتم تلك النصيحة التى لاتزال من أهم النصائح لكل عروس حتى يومنا هذا بقولها « واعلمى إنك لا تبلغين ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت ، والله يخير لك »[1] ... تلك هى النصيحة التى تنطوى على أهم أركان البناء الأسرى، لاسيما فى المجتمعات الآخذة فى النمو .

وقد إستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام مفهوم « البناء » بما يفيد معنى « البناء الاجتماعى » فى مجال توضيحه للعلاقات الاجتماعية التى تربط المجتمع الإسلامى مشبها إياها « بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ولكن هذا البنيان من جماد كما هو واضح ، ولكن بالإضافة إلى ذلك إستخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم فى وضع « البناء الاجتماعى الحى » فعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا إشتكى منه عضو ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » .

---

(١) الدكتور زيدان عبد الباقى : المرأة بين الدين والمجتمع . مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٧ صفحة ٩٩

ويلاحظ أن البناء الاجتماعى بالمعنى الإسلامى له جانبان : أحدهما ثابت لا يتغير باعتباره بمثابة الوعاء الضرورى للحفاظ على صورة التنظيم الأساسى للمجتمع الإنسانى ، أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (١٣ – الحجرات) وذلك ليكفل للبناء الاجتماعى الاستمرار والإطراد ثم الثبات . وثانيهما وهو الجانب المتغير والذى يتجسد فى شكل العلاقات الاجتماعية : مثل المؤمن وغير المؤمن ، المتزوج والعزب ، المواطن والمهاجر النزيل ... الخ . وفى الجانب الأخير تظهر بوضوح سمات البناء الاجتماعى ، إذ يمكن بالرجوع إلى التاريخ الإسلامى التعرف على الأمم السابقة وكيف إنهار بناؤها الاجتماعى نتيجة عدم الإطراد الإيجابى للعلاقات الاجتماعية ، وذلك بشيوع عادات سيئة تخالف الأوضاع الطبيعية الملائمة لحياة الإنسان فى المجتمع .

هذا وإذا أخذنا مجتمعا أبسط مثل القبيلة ، فإننا نجد التضامن يقوم فيها على روابط الدم Blood ties وبعبارة أخرى ، فإن افراد القبيلة الذين تسودهم روابط الدم يعتبروا من الجماعات الأكثر إلتحاما kint وداخل رابطة الدم هـــذه تنمو روابط القرابة kinship التى تؤدى إلى زيادة التماسك الاجتماعى Social Cohesion وهذا التماسك الاجتماعى يجعل من القبائل فى الحروب قوة مخيفة . ذلك أن القبائل العربية فى صدر الإسلام إستطاعت – بتضامنها – الإنتصار على القوى الأرقى تكنولوجيا والأكثر عددا ، نتيجة روابط الدم والدين التى كانت تربط قبائل قريش

وقد أطلق « دوركايم » على الوحدات الاجتماعية إسم الوحدات التى تقوم على الصلة الدموية Groupements Consnguins ودعامة هذه الوحدات الإنحدار من سلالة واحدة . وهناك أنواع مختلفة منها طبقا للمجتمعات المتنوعة ، فهناك الأسرة La famille والعشيرة La clan والقبيلة La tribu والإتحاد La phratrie والأسرة الرومانية Gens والأسرة الجرمانية Sippe ou sib كل هذه جماعات تقوم على صلة الدم والطفل يدخل فى عداد إحداها منذ ولادته ولا يخرج منها إلا بالموت وأعضاء هذه الوحدات ينحدرون – أو على الأصح – كانوا يعتقدون فى الماضى أنهم إنحدروا عن جد واحد ancétre Commun وسواء أكان هذا الإنحدار مقررا أو مفروضا أو كانت هذه السلالة حقيقة أو وهمية ، فإن ذلك لا يؤثر فيما نحن بصدده من

التقسيم[١] . فاعتقاد الأفراد أو إدعاؤهم بأنهم إنحدروا عن جد واحد يحملون إسمه على الدوام،هو فى ذاته تعبير عن رغبتهم فى تكوين وحدة دموية . فالأسرة – إذن – بما تتضمنه هذه الكلمة من اختلاف عظيم فى أشكالها تعد أهم الوحدات البيولوجية التى يقوم على دراستها علم الاجتماع .

وكان « دوركايم » من أوائل علماء الاجتماع الذين صاغوا نظرية علمية فى « التضامن الاجتماعى » حيث أوضح أن المجتمع البسيط « البدائى » الخالى من التمايز الفردى ، والذى يخضع لقوانين صارمة وقامعة . . مثل هذا المجتمع يسوده التضامن الآلى الذى يتكون من الروابط الشخصية ، حيث ينقاد فيه الأفراد وراء كبار رجال القبائل دون استخدام عقولهم فيما ينساقون إليه .

أما المجتمع الذى ينطوى على قدر قليل أو كثير من التمايز الفردى « شبه المتحضر أو المتحضر » والذى تسوده العلاقات التعاقدية ، ولا يخضع للقواعد القامعة ، وإنما تكون العلاقات والمعاملات فيه قائمة على أساس من الاعتماد المتبادل بين أجزائه . . مثل هذا المجتمع يسوده التضامن العضوى الذى يتكون من الروابط اللاشخصية القائمة على تبادل المنافع الإقتصادية الناجمة عن تقسيم العمل ، ومن ثم فهى قائمة على المصلحة . وبهذا الشكل تصبح تلك الروابط سلبية .

غير أن هذا لا يعنى أنها روابط غير قوية ، ذلك أن « المصالح » التى تؤثر فى معيشة الأفراد لها أهميتها . وبهذا الشكل ، فإنها تؤثر فى حياة الإنسان ، بل وتشكل مصدرا من مصادر التهديد ، سواء أكان التهديد قائما على عداوة حقيقية أو خيالية . وبالتالى فإن التضامن الذى يتولد عنها يكون قويا بدرجة ملحوظة ومن ثم تكون له القدرة على توجيه أفراد المجتمع فى جبهة قوية لمواجهة ومقاومة أى تهديد أينما وجد وحيثما كان .

---

(١) الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوى : المدخل فى علم الاجتماع من ترجمته وتأليف « رينيه مونيه » مطبعة دار نشر الثقافة ، الاسكندرية ١٩٤٩ ص ٣٦

الفصل الرابع

التفاعل والعمليات الاجتماعية

لعل التفاعل الاجتماعى Social Interaction من أهم المصطلحات التى ذكرت فى تعريف المجتمع ، ذلك أن أى نشاط إجتماعى منظم « ظاهرة إجتماعية » فى المجتمع عبارة عن نتاج تفاعل إجتماعى بين الأفراد أو الجماعات . ذلك أنه عندما يكون المجتمع Society فى شكل جماعة Group من الناس فى تفاعل مستمر ، كل مع الآخر ، يصبح التفاعل من أهم المفاهيم الأساسية فى دراسة الحياة الاجتماعية وفى كل دراسات علم الاجتماع . وعلى ذلك فإن « حقيقة الحياة الاجتماعية » ليست شيئا آخر أكثر من الأسلوب الذى يتفاعل به الأفراد والجماعات .

هذا ويتحقق التفاعل الاجتماعى من خلال ثلاثة مواقف هى :

ـ التفاعل وجها لوجه Face—to—Face أى بين فرد وفرد آخر أو أفراد آخرين .

ـ التفاعل الداخلى Inteernal ذلك أن الفرد يستطيع من الناحية النفسية أن يقيم داخل نفسه موقفا ما ، يؤثر فيه ويتأثر به ، أو يغير اتجاهه إلى نفسه أو إلى الآخرين .

ـ التفاعل عن طريق وسيط Medium مثل الكتاب ، وذلك مثل التفاعل بين المؤلف والقراء ، وبين القراء وأنفسهم ، حينما يقعوا تحت تأثير المؤلف ، فإن الواسطة هى « الكتاب » وقد يزداد تأثير مثل تلك « الواسطة » فتأخذ شكل وسيلة اتصال جماهيرية Mass Media مثل الإذاعة ، الصحافة ، التليفزيون ، الكتب ، والمجلات . الخ . ولهذا فإن التفاعل الذى يتحقق من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية يمكن أن يؤثر على عقول ووجهات نظر ملايين الناس من خلال تفاعلهم مع بعضهم البعض . ولهذا يوصف « الاتصال الجماهيرى » بأنه من أعظم الظواهر الاجتماعية فى العصر الحديث .

تلك هى المواقف التى يتحقق فيها التفاعل الاجتماعى . . أما الأشكال أو العمليات

الاجتماعية التى تتحقق بواسطة التفاعـل الاجتماعى ، فإنه يمـكن تناولها على الوجه التالى ، وذلك مع مراعاة أن « العملية الاجتماعية »ليست عمليات جراحية يستخدم فيها مبضع الجراح ، مع كميات من القطن والشاش والمراهم والفيتامينات والحقن وما إلى ذلك . وإنما العملية الاجتماعية عبارة عن « تفاعل » بين شخصين أو أكثر من خلال موقف إجتماعى مثل « الدراسة » .. ذلك الموقف الذى قد يدفع طالبين إلى «التعاون» فى الاستذكار ، أو إلى « التنافس » أملا فى أن يفوز كل منهم بالمركز الأول بين الناجحين . وقد يتحول هـــذا التنافس بينهما إلى « صراع » . وعندما يشتد هذا الصراع بينهما ، فقد يتدخل زميل ثالث لهما ، ويحاول « تلطيف الجو » بينهما،فيتحول الصراع إلى « تـكيف » إجتماعى ، ثم ينتهى الأمر بأن « يتمثل » كل منهما مبادىء وأهداف الطرف الآخر ، وبالتالى يصبح «الاتصال» بينهما إيجابيا وترتيبا على ذلك يمـكن القول إن « الموقف الاجتماعى » يمـكن أن يؤدى إلى عمليات إجتماعية متعددة، تعتبر من أهم وسائل التغير الاجتماعى فى المجتمع .

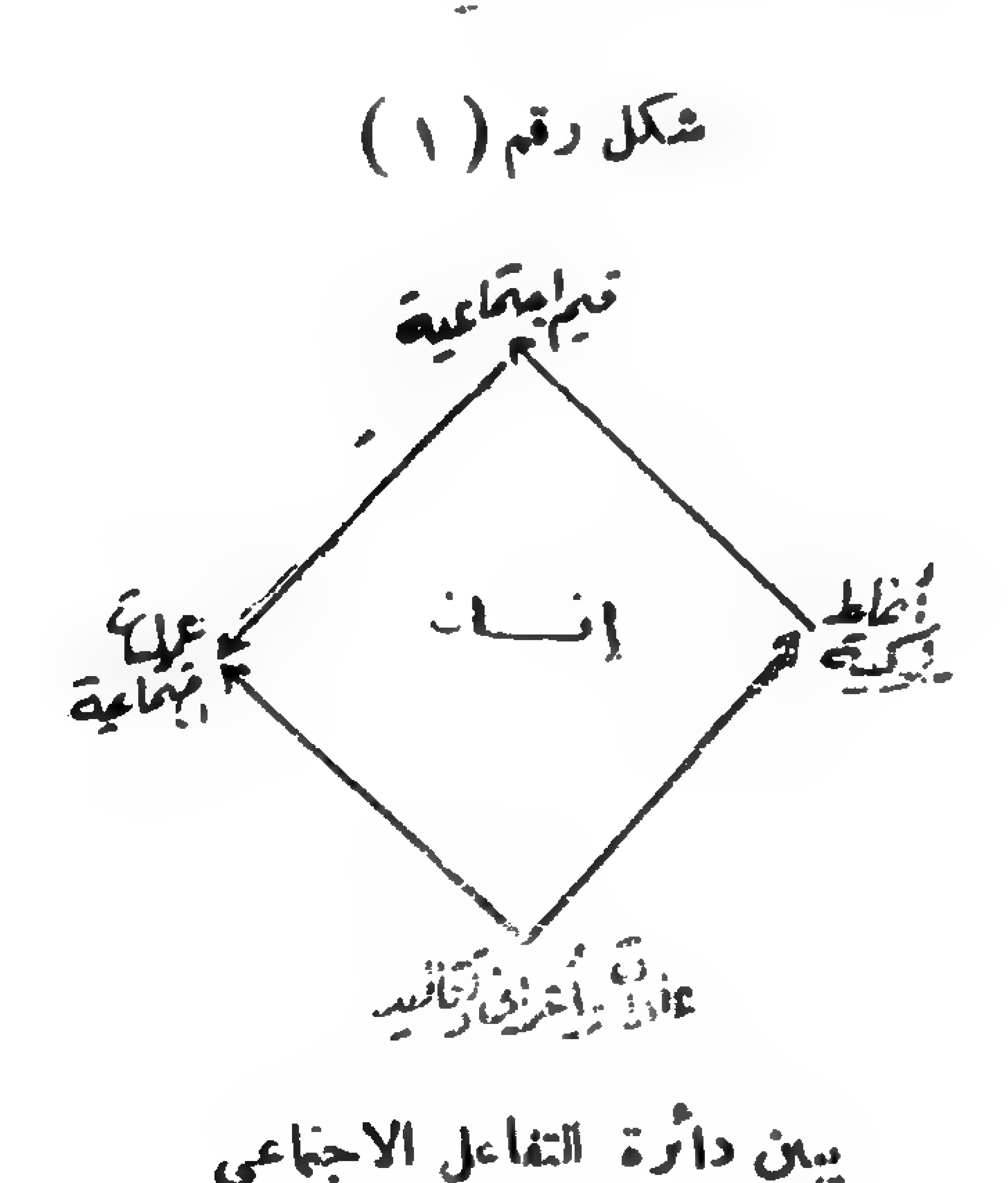
هذا وتتميز الدعوة المحمدية بالتـكامل فى كل أجزائها من العقيدة ، إلى العبادة ، والخلق ، والمعاملة ، ونظم الحياة والروابط العائلية والمدنية والإنسانية ... وتلك يطلق عليها علم الاجتماع إسم العمليات الاجتماعية ــ كما قدمنا ــ وفى هذا الفصل سوف نتناول دور الرسول الـكريم عليه الصلاة والسلام فى تحديد خصائص العمليات الاجتماعية ــ وإن لم يكن هذا المفهوم معروفا يومئذ ــ والدعوة إلى التمسك بالجوانب الإيجابية منها، حتى يرتقى المجتمع ويتقدم إلى الأمام . وحتى تـكون الأمة الإسلامية كما جاء فى القرآن الـكريم « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر وتؤمنون بالله » (١١٠ ــ آل عمران) .

والحياة الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ــ مثل غيره من المجتمعات ــ تقوم ــ كما يرى علم الاجتماع ــ على إشتراك أفراده فى أداء الأنشطة التى يتطلبها استمرار المجتمع . ومن خلال ممارسة هذه الأنشطة يلتقى الناس ليعملوا معا ، وليتبادلوا المنافع . ومن خلال هذه اللقاءات يحدث مايسمى بالتفاعل **Ineraction** وهذا التفاعل قد يكون إيجابيا وقد يكون سلبيا . والتفاعل بنوعية يؤدى إلى مايسمى « بالتيلية » **Tele** أى مايؤدى إلى تـكوين علاقة بين المشتركين فى هذا التفاعل . وتـكون لهذه العلاقة نفس

صفة التفاعل ، بمعنى أنه إذا كان التفاعل إيجابيا ، كانت العلاقة إيجابية ، وإذا كان التفاعل سلبيا كانت العلاقة سلبية .. الخ . وهـــذه العلاقات هي عمليات إجتماعية Social processes ويرى بعض المفـكرين أن العلاقات الاجتماعية Social Relations هي نتيجة مباشرة للتفاعلات أو العمليات الاجتماعية .

فإذا عرفنا أن الجماعة الإنسانية أينما وحيثما وجدت فإن التيليه الاجتماعي Sociotele يتحول فيما بينهم إلى خيوط للارتباط الاجتماعي ـ أي العلاقات ـ التي تـكون أساسا لعملية التفاعل الاجتماعي ولنمو الجماعة وتمايز تركيبها . ونوعية هذا التفاعل تعتمد على القيم الاجتماعية والعادات والأعراف والتقاليد السائدة في الجماعة ، وعلى نوعية سلوك أفرادها ، والشكل التالي يوضح دائرة التفاعل الاجتماعي .

شكل رقم (١)



يبين دائرة التفاعل الاجتماعي

وهذه الجماعة سواء أكانت أسرة أو فصل دراسي أو مجموعة من الشباب الصغار الذين يقفون على نواصي الشوارع أو فريق من فرق الألعاب الرياضية في أحد النوادي الرياضية أو جماعة من جماعات العمل . فإن طبيعة التفاعل الاجتماعي تحدد نوعية العمليات الاجتماعية . وبالتالي تحدد الدور الذي يؤديه داخل الجماعة . وبذلك يصل بعض الأفراد إلى بؤرة التفاعل الاجتماعي أو إلى مراكز قريبة من تلك البؤرة ويصبحوا هـــدفا

للاستجابات الاجتماعية لبقية أفراد الجماعة ، سواء أكانت هذه الاستجابات موجبة أو سالبة وقد نجد أحد أفراد الجماعة أو أكثر قد رضى بالعيش على هامش الحياة الاجتماعية للجماعة ، وأصبح بعيدا عن بؤرة التفاعل الاجتماعى للجماعة ويوصف مثل هذا الفرد بأنه « منعزل » وقد تضطر الجماعة إزاء عدم تفاعله معها إلى عزله، فيوصف بأنه « معزول » وموقف مثل هذه الجماعة قد يسمح لبعض أفرادها بالأمن والطمأنينة فى علاقاتهم مع الآخرين . وقد يؤدى إلى معاناة الآخرين من القلق والاضطراب نتيجة للرفض الاجتماعى والإحباط Frustration من باقى أفراد الجماعة .

والعمليات الاجتماعية إذا حللناها من زاوية التنبيهات المتبادلة والاستجابات بين الأشخاص والجماعات نجد أن الأشكال الرئيسية للتفاعل هى : التعارض (ويشمل التنافس والصراع). والتعاون أما الانعزال Isolation فهو درجة الصفر فى التفاعل الاجتماعى .

هذا ويمكن تعريف التفاعل الاجتماعى بأنه « مجموعة من الأفعال وردود الأفعال التى تصدر عن أفراد الجماعة فى موقف من المواقف الاجتماعية » والتفاعل الاجتماعى بهذه الصورة يؤدى إلى تمايز تركيب الجماعة وتكوينها نظاميا ، بمعنى أن تفاعل الأفراد عمليا أو لفظيا إنما يؤدى إلى ظهور الزعامات والقيادات داخل الجماعة ويؤدى كذلك بالتبعية إلى إعادة تنظيم مجال الجماعة تبعا للقيادات التى ظهرت فيها . وتفاعل الأفراد يؤدى إلى ظهور المهارات الفردية السلوكية والقدرات الاجتماعية التى يمكن أن تستفيد بها الجماعة وبالتالى يكون هناك تمايز وتنظيم فى تركيب الجماعة نتيجة لتفاعل أفرادها

ولما كانت القيم الاجتماعية ـ باعتبارها الأساس الثانى فى تكوين العمليات الاجتماعية ـ بعد التفاعل ، إتمثل المراكز النشطة فى النسق الاجتماعى النفسى لكل فرد ، والذى يستقبل الأحداث بصورها المختلفة ، ثم يقوم بعملية إنتاج السلوك الذى يقود بدوره إلى تكوين العمليات الاجتماعية فى مختلف الجماعات . فإن تلك القيم هى التى توجه سلوك الفرد فى حياته اليومية .

والقيمة الاجتماعية فى أبسط صورها تنشأ وتتكون فى مواقف المفاضلة والاختيار ، حيث يتحتم على الفرد إختيار أحد حلين بقدر ماتسمح به إستعداداته وإمكاناته . وكلما

إزدادت خبرة الإنسان بمواقف المفاضلة ، زاد رصيده من القيم الاجتماعية التى تصقلها الأيام يوما بعد يوم إلى أن تتحول إلى نسق يستطيع عن طريقه الحكم على الأشياء والأحداث .

هذا وتعرف القيم الاجتماعية بأنها «مجموعة من الاتجاهات الاجتماعية التى تكون فيما بينها نسقا System شبه مقنن Standardized يستخدمه الفرد فى قياس وتقدير المواقف الاجتماعية » والقيم الاجتماعية بمقتضى هذا التعريف تتطور مع الأيام إلى وحدات معيارية فى الضمير الاجتماعى لدى الإنسان وأثناء هذا التطور والنمو تأخذ القيم الاجتماعية صفة الثبات النسبى . ومن هنا تصبح القيم الاجتماعية ركنا أساسيا فى تكوين العمليات الاجتماعية ، وتحديد أشكالها (إيجابية أو سلبية) ذلك أن القيمة هى التى تنتج السلوك ، والسلوك (التفاعل الاجتماعى) هو الذى يؤدى إلى تكوين شبكة من العمليات الاجتماعية وهذه الأخيرة تؤثر مرة أخرى فى تكوين القيم وتطويرها .

والأساس الثالث لتكوين العمليات الاجتماعية هو قنوات الاتصال بين أفراد الجماعة ، وقنوات الاتصال هذه تقوم بتوصيل التفاعل من نقطة إلى أخرى فى مجال الجهد الاجتماعى لربط تلك النقاط ببعضها البعض لتكوين شبكة من العمليات الاجتماعية فى الجماعة(١) . واللغـــة سواء أكانت منطوقة أو رمزية ، أى تعتمد على الرموز والإشارات ، أو لغة مكتوبة مثل النشرات والمؤلفات وما إلى ذلك ، أو لغة وسائل الاتصال الجمعى مثل الراديو والتليفزيون والصحافة والسينما ... التى هى قنوات الاتصال الرئيسية ، وهى فى نفس الوقت التى تحدد نوع وطبيعة العمليات الاجتماعية فى أى جماعة من الجماعات .

وعن طريق قنوات الاتصال هذه ، يمكن إحداث الضغوط الاجتماعية المختلفة التى تؤثر على القيم السائدة . وبالتالى يتأثر السلوك البشرى والتفاعل الاجتماعى ، فينتج نوعا من العمليات الاجتماعية يتناسب فى الكيف والمدى مع الوسائل والضغوط . ومن

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى: وسائل وأساليب الاتصال فى المجالات الاجتماعية والإعلامية . الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٩

هنا فإن القيم تعتمد إلى حد ما على الضغوط الاجتماعية التى تحدث عن طريق وسائل الاتصال الجمعى والفردى .

ونتيجة للأهمية الواضحة للعمليات الاجتماعيـــة كعمليات مجمعة Associative Processes تؤدى إلى الترابط والتماسك فى المجتمع إذا كانت إيجابية مثل التعاون ، التنافس ، والزواج .. الخ أو كعمليات مفرقةأو مفـكـكة Dissociative Processes تؤدى إلى الاضطرابات والفوضى مثل : الصراع ، الـكراهية ، الطلاق ، والحرب .. الخ فقد كان لمثل هذه العمليات أهمية واضحة تبدو محددة فى توجيهات سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه على النحو التالى :

١ ـ التنشئة الاجتماعية Socialization

يصل الوليد البشرى إلى عالم الواقع وهو فى حالة عجز كامل ، لـكى يصبح هذا المخلوق البشرى ـ بعد حين من الزمن ـ إنسانا أو عضوا متنجافى المجتمع الذى ينتمى إليه . ومن ثم يحتاج إلى عملية اجتماعية ، وهى عملية « التنشئة الاجتماعية » لـكى يتعرف من خلالها على حضارة مجتمعة وطبيعة الحياة فيه . كما يتعلم القواعد التى تدور على أساسها عجلة الحياة الاجتماعية ، ويعرف ما يتوقعه من الناس ، وما يتوقعه الناس منه ، أى يعرف الدور الاجتماعى المطلوب منه(١) .

وترتيبا على ذلك فإن الوليد البشرى لا يصل إلى المستوى الإنسانى مالم يمر بتلك العملية الاجتماعية . ومما يؤكد ذلك ما حدث للطفل الهندى الذى يوصف بالطفل الذئب Wolf child والذى أطلق عليه اسم « رامو » المتوحش Feral حيث نشأ فى الأحراش بعيدا عن المجتمع البشرى . وعندما عثر عليه سنة ١٩٥٤ كان يمشى على يديه ورجليه فى آن واحد ، وكان يأتى أصوات بعض الحيوانات ، ويأكل اللحوم النيئة ، ويرفض التواجد بين الناس ... وكذلك حالة الطفلتين « آنا وإيزابيل(٢) » اللتين عزلتا فى حجرة مظلمة بعيدا عن الحياة الاجتماعية ، على إعتبار أن كلتاهما طفلة غير شرعية ، كما كانت أم الثانية خرساء . وقد توفيت الأولى فى سن العاشرة ، دون أن

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : علم النفس الاجتماعى فى المجالات الإعلامية . مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٩

(٢) Anna and Isabelle .

تتمكن من أداء أى نوع من المهارات ، بحيث لم تكن تستطيع الحديث أو السير .. على حين تولى أحد معاهد الإصلاح الاجتماعى الطفلة الثانية التى ظلت تخاطب الآخرين بالإشارة حتى سن السابعة . وبإخضاعها لبرنامج تدريبى تربوى إجتماعى نفسى،تمكنت هذه الطفلة من إستيعاب التعلم الذى يستوعبه من كان فى مثل عمرها[1] . وخلاصة القول إن عملية التنشئة الاجتماعية ضرورة لا غنى عنها لكل طفل .

هذا والأهداف الرئيسية لعملية التنشئة الاجتماعية هى أن يكتسب الفرد المعرفة والقدرة والرغبة فى النمو ويستوعبها تدريجيا من خلال استدخاله للقيم والمبادىء والمعايير التى تنطوى عليها الثقافة الاجتماعية السائدة فى المجتمع[٢] .

ويتحقق ذلك من خلال عدة مراحل هى :

(ا) المرحلة الانفرادية العشوائية الوقتية[٣] :

والتى تستمر طوال السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل ، حيث يحاول خلالها أن يفهم مظاهر الحياة ويتحكم فيها وتعتبرها رموزا تمثل معانى معينة ، وإن كان لا يستطيع التفرقة بين « حلمة » ثدى أمه « وحلمة » البزازة مثلا . . كما أنه لا يستطيع التفرقة بين « الأنا » و « الهو » . وفى هذه الفترة ــ أيضا ــ يتعلم الطفل كيف يتحكم فى طلب الأشياء التى تمثل مصدر غذائه[٤] ، كما يمر بمراحل يتعلم فيها قواعد الحياة الاجتماعية ومعايير السلوك الاجتماعى فى المجتمع .

(ب) مرحلة التمركز حول الذات[٥] :

حيث يقوم الطفل فيها بالتشبه بالآخرين وتقليدهم بحيث يتحقق له من خلال ذلك

---

(١) Davis, K. : "Final Notes on a case fo Extereme Isolated" The American jaurnal of Socio'ogy. Vol. 52, March, 1947, pp. 432 — 437.

(٢) Brim, O. G. and wheelers, S. : Socialization after child hood John wiley, N. y., 1966, p. 25.

(٣) Stage of erratic and ephemeral individualism.

(٤) Piaget, J.: The Construction of Reality in the child. Routlodgea nd Kegan paul. Lodnon, 1950.

(٥) Ego — Centric Stage .

الشعور بالسعادة وبالاستحسان الاجتماعى، وتستمر من أواخر السنة الثانية إلى الخامسة من عمره .

(ج) مرحلة التعاون الأولى[١] :

وفيها يبدأ الطفل فى إتباع القواعد السلوكية الاجتماعية فى مواقف محددة، ولفترات مؤقتة ، وتستمر فيما بين السابعة والثامنة من عمر الطفل .

(د) مرحلة التبنى الفعلى للانماط السلوكية الاجتماعية[٢] :

وهى المرحلة الأخيرة من مراحل التنشئة الاجتماعية، وفيها يشرع الطفل فى إعتناق القواعد السلوكية والإقتناع بها ، وإعتباره إياها جزءا من شخصيته ، وإدراك أن هذه القواعد لها وجودها الخارجى الذى يفرض نفسه على أفراد المجتمع ، باعتبارها ظاهرة إجتماعية .

ولا ريب أن الأسرة ممثلة فى الأم فى المرحلة المبكرة من عمر الطفل ، مع بقية أفراد الأسرة فى المرحلة التالية من مراحل التنشئة الاجتماعية هى التى تتولى تعليم وتدريب الطفل وتلقينه مبادىء حسن المعاملة واللباقة والأدب ، ومبادىء القراءة والكتابة ، وتكوين الشعور بالمسئولية لديه نحو الجماعة والمجتمع ، لكى يتحول إلى شخص صالح لمشاركة الأسرة حياتها وتحمل تبعاتها . ومن هنا فإن عمليتى التربية والتثقيف هما لب عملية التنشئة الاجتماعية،وهدفهما هو ترويض الطفل وإكسابه مبادىء وقيم ومعايير المجتمع .

وترتيبا على ذلك فإن الأسرة — من وجهة نظر علم الاجتماع — هى الأداة التى يستخدمها المجتمع فى تنشئة أو تطبيع أفراده إجتماعيا . ومن هنا فإن نوع التنشئة أو التطبيع الذى يقدر للفرد ، يتوقف على قدراته الفطرية من جهة ، وعلى نوع الجماعات التى ينتمى إليها من جهة أخرى . وعلى هذا فإنه إذا قدر للطفل أن ينشأ فى جماعات إجتماعية سليمة توفر له مناخا إجتماعيا ملائما لنموه ، فإنه ينشأ وينمو بسمات وخصائص

---

(١) Stage of incipient Cooperation.

(٢) Stage of Codification of Rules.

تجعل منه مواطنا صالحا فى المجتمع . وبالعكس من ذلك ، فإنه إذا نشأ فى جماعات غير سليمة ، فإن نموه الاجتماعى يضطرب وتتأثر سماته الشخصية ، وتصبح شخصيته معتلة من الجوانب الاجتماعية والنفسية ، بل والبدنية . وبالتالى يصبح تكيفه الاجتماعى فى المجتمع صعبا للغاية . وكذلك فإن مستقبل الإنسانية ومايلتظرها من مصير مشرق أو مظلم مرهون بصلاحية الجماعات البشرية ومدى استعدادها لتنشئة وتنمية الأجيال القادمة بصورة سليمة ، تمكن الأفراد من إكتساب القيم الاجتماعية البناءة ، والمبادىء الأخلاقية القويمة التى تكفل للبشرية النجاة من العبث المدمر للجماعات غير السوية(١) .

أما العزلة Isolation فإنها تخلو من التفاعل الاجتماعى ، ولذلك يطلق عليها نقطة الصفر فى التفاعل الاجتماعى ، أو الموقف الذى تنعدم فيه العملية الاجتماعية .

والتنشئة الاجتماعية بهذه الصورة تعتبر من أهم العمليات الاجتماعية فى حياة الإنسان، ومن ثم فإن حياة الإنسان وسلوكياته وشبكة علاقاته الاجتماعية تتأثر فيما بعد بوقائع تلك الفترة ، بمعنى أنه إذا كانت تلك الوقائع تحبب الطفل فى الخير وتبعده عن الشر ، فإن هذا الطفل ينشأ إجتماعيا إيجابيا . وإذا كانت تلك الوقائع تحبب الشر إليه وتزهده فى الخير ، فإن هذا الطفل ينشأ « غير إجتماعى » Anti — social أو إجتماعى سلبى . ومن هنا فإن التنشئة الاجتماعية غير السوية تعتبر عملية إجتماعية سلبية والعكس صحيح .

ولقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة فى مجال التنشئة الاجتماعية ، كما بذل من صفاته الرائعة الكثير حتى يقف الناس على كل زوايا معانى الرسالة التى جاء بها صلى الله عليه وسلم ، فقد كان خلقه القرآن، كما كانت سجاياه الرحمة . وكيف لاتكون سجاياه الرحمة وهو الرحمة المهداة إلى العالمين، وصدق الله العظيم إذ يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولفظ العالمين يشمل الإنس والجن والحيوانات وجميع المخلوقات . كما أن رحمته لم تكن نابعة من عقد يعانيها أو رد فعل ليتمه . . لا ، بل هى رحمة الأقوياء البازلين . وكانت هذه الرحمة نبعا فياضا يستقى منها الرائح والغادى حتى أنها

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : علم النفس الاجتماعى فى المجالات الإعلامية . مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٩

شملت الوليد فى مهده ، كما أصابته وهو فطيم يلعب على ردنيه وهو فى صلاته ، فلم يزجره ولم ينهه ، وإنما كان به شفوقا عطوفا .. فقد سمع ذات مرة بكاء طفل فأمر أمه بأن تهدهده وتمسح عنه بكاءه بيدها الحانية بقوله « ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى » .

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى أطفالا يلعبون ويمرحون ورأى طفلا منزويا باكيا ، فذهب إليه الرسول الكريم وقال : مايبكيك أيها الغلام ؟ فقال الطفل : دعنى يارجل فقد مات أبى فى الغزو مع الرسول الأعظم ... فقال صلى الله عليه وسلم : أترضى أن أكون لك أبا وفاطمة لك أختا وعائشة لك أما . فقال الطفل : عفوا يارسول الله ، ثم أخذه الرسول إلى منزله وأطعمه وكساه وأعطاه نقودا ثم قال له الرسول الكريم : إلعب مع إخوانك . فلما رآه الأطفال مزهوا فخورا ، قالوا : مالك أيها الطفل ؟ كنت منذ لحظات باكيا والآن نراك فرحا مسرورا ؟ فقال الطفل مجيبا : لقد رأيت أبا خيرا من أبى وأما أكرم من أمى .. الخ .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم » وقوله أيضا « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله .... » .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف للعلاقة الأبوية مكانتها التربوية وأثرها فى تنشئة الأطفال ، فقد أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال : إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » ويزيد هذا المعنى تأكيدا ما إشتهر عنه من حدب وعطف على الأطفال حيث روى أنه صلوات الله وسلامه عليه مر ببيت فاطمة فسمع حسينا يبكى فقال لفاطمة : ألا تعلمى أن بكاءه يؤذينى » .

ومما يروى أن أحد أبناء فاطمة قد علا منكبيه وهو ساجد فى صلاته فأطال سجوده حتى لا يشق على الطفل من طول اعتلائه المنكبين . ولقد إمتدت رحمته من محيط أسرته إلى الصبيان من غير أسرته من أتباعه وأحبائه ، فقد لاحظ ذات يوم فى مجلس عائشه رضى الله عنها إمرأة رثة الثياب , وتعلو على قسمات وجهها الجميل كآبة ، كما كانت كثيرة الزنوات زرية الهيئة ، فيسأل صلى الله عليه وسلم عن أمرها ، ولعله كان يعلم عنها أنها ينبغى أن تكون فى بحبوحة من العيش ورغادته ، فيخبر أن زوجها

عبد الله ابن عمرو بن العاص يصوم دائما ويقوم الليل كله ، صارفا وقته كله للعبادة ولا شيء غيرها ... ومن هنا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم تعهد عبد الله بالنصح والإرشاد قائلا له : بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل ، فلا تفعل فإن لجسدك عليك حقا ولعينيك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا .. صم وأفطر ... وانصرف عبد الله ، وبعد حين عادت زوجتـه لزيارة عائشة وهي طليقة المحيا متعطرة ، ترفل في الجديد والنظيف من الثياب ، مزدانة بالدين السمح ، مزدادة به تمسكا . وكان عطفه على الكبير والصغير ، يعم كل ضعيف حتى الحيوان فهو القائل « من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا فليس منا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يربي الناس على الرحمة بالحيوانات لكي تكون مدخلهم إلى الرحمة بالإنسان فمن عبد الله بن جعفر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بستانا لرجل من الأنصار ، فاذا فيه جمل ، فما أن رأى الجمل النبي ، حتى جن وذرفت عيناه .. « فأتاه رسول الله ، فمسح عنه فسكت . وقال الرسول الكريم : من رب هذا الجمل ؟ فقال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكى لي أنك تجيعه وتدئبه . » ومن الدروس التربوية المشابهة أيضا قوله صلى الله عليه وسلم « عذبت إمرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، لاهي أطعمتها وسقتها ولاهي تركتها حتى تأكل من خشاش الأرض » وتلك أمثلة لتوجيهاته التربوية حول الحيوانات ، فما بالك بتوجيهاته حول الإنسان ؟

ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على تربية الناس على احترام مشاعر الآخرين والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد كان حريصا — على سبيل المثال — على شعور وكرامة السيدة صفيه بنت حيي بن أخطب زوج رسول الله ، والتي كانت من يهود بني النضير . فقد حدث خلاف بينها وبين السيدتين عائشة وحفصه زوجتا رسول الله ، فقالا لها : نحن أكرم على رسول الله منك . فشكت ذلك للحبيب المصطفى فقال لها : ألا قلت لهما وكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى . وماروى من أن السيدة عائشة أم المؤمنين لقبتها مرة باليهودية ، فهجرها رسول الله شهرين كاملين عقوبة لها وتأديبا .

وعني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنشئة الاجتماعية السليمة للشباب فكان

يتعهده بالموعظة ويلقنه المبادىء الصحيحة ، والأخلاق الكريمة ، تقديراً منه لرسالته، وأنه عماد الأمة وقوتها فقد قال عليه الصلاة والسلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وقال مرة لابن عباس وكان راكباً خلفه : أيا غلام ، ألا أعلمك كلمات يحفظك الله بهن ؟ فقال : بلى يارسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم إن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

ولقد إقتدى به شباب الإسلام فصاروا أقوياء أجلاء ، عظماء أعزاء ، أتقياء أولياء، يصلون ما أمر الله به أن يوصل وينهون عن الفساد فى الأرض . كما إكتسبوا منه شدة البأس وعزة النفس فكانوا صورة مثالية لإيمان المخلصين وسلوك الراشدين وثبات المتقين . وهذه صورتهم مرسومة فى القرآن الكريم .

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة والانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » (الفتح ٢٩)

والشباب بهمته وقوته ، بشجاعته وقدرته ، باستعداده وحيويته ، قادر على النضال والاحتمال ولذا فقد صنع منهم الإسلام الأبطال وكون الرجال ... فهذا على كرم الله وجهه ينام على فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة مستهيناً بالحياة فى سبيل الله ، وفى سبيل حماية صاحب الدعوة عليه السلام . وهل كان رسول الله بين الشباب والشيوخ والأطفال إلا سراجاً منيراً يستضيئون بهديه ويقتدون بسنته وينشرون رسالته الخالدة التى ملأت الأرض عدلا وأمناً وسلاماً .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً بالشباب فقال « أوصيكم بالشباب خيراً فإنهم أرق أفئدة . إن الله بعثنى بشيراً ونذيراً فخالفنى الشباب ، وخالفنى الشيوخ » .

ولا ريب أن تربية الشباب تربية قرآنية تسعد الأسرة وتنهض بالأمة . والأخلاق هى الأساس والمقياس ، وهى قاعدة البناء السليم ودعامة السلوك المستقيم ، لأن الإيمان إذا استقر فى النفوس قادها إلى هداها ونهاها عن هواها. وفى هذا يقول سبحانه وتعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (الشمس ٦ — ١٠) ذلك أن الإسلام بطبيعته ديناميكى الحماس يرفض الجمود والسلبية ويدعو إلى العمل والإيجابية .

ولم ينس صلى الله عليه وسلم آداب المعاملة ، فقد طلب إعرابى يوما من النبى صلى الله عليه وسلم شيئا فأعطاه ، ثم قال له : أأحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار النبى إليهم بأن كفوا ؟ ثم دخل منزله وأرسل إلى الإعرابى وزاده شيئا ثم قال : أأحسنت إليك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبى : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى تذهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم ، فلما كان الغداة ، جاء فقال النبى : إن الإعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أ كذلك يا إعرابى ؟ فقال الإعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى : إن مثلى ومثل هذا الإعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فأنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها . . . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

وفى واقعة أخرى مشابهة ، وفيها يروى أن يهوديا كان له دين ، فأراد أن يطلب دينه قبل حلول أجله ، فاعترض رسول الله — فى طريق المدينة — فقال : إنكم بنى عبدالمطلب قوم مطل « مماطلون » ورأى عمر ذلك فاشتدغضبه وقال . ليأذن لى رسول الله فاقطع عنقه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : أنا وصاحبى أحوج إلى غير هذا يا عمر ، مره بحسن التقاضى ومرنى بحسن الأداء ، ثم إلتفت إلى اليهودى وقال : يايهودى ، إنما يحل دينك غدا . وهكذا كانت التربية الإسلامية التى تقوم على الحلم ، وما أعظمه من حلم ، حبذا لو إقتدينا به فى كل علاقاتنا ومعاملاتنا .

ومن التوجيهات التربوية للرسول الكريم التى أكدتها النظريات البيولوجية ،

ما يتصل بالوعاء الذى يتكون فيه الجنين ، وضرورة أن يكون وعاء طاهرا بعيدا عن الدنس . ولما كانت التنشئة الاجتماعية للطفل تبدأ قبل ولادته، فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على سلامة تلك التنشئة عن طريق الاهتمام بالأسرة الإسلامية ، التى يعرف فيها كل فرد حقوقه وواجباته بحيث تستقيم أمورها على دعائم الدين الحنيف ، لكى تكون أسرة مثالية فالدين يمهد لها الطريق القويم ويجعل سبيلها الإيمان وقبلتها رضوان الله ، ونبضات فؤادها لا إله إلا الله وأنفاسها محمد رسول الله . والزواج الذى تقوم عليه الأسرة الإسلامية شركة بين رجل وامرأة يسعيان إلى معيشة صالحة وتقديم مواطنين صالحين للمجتمع بما تقوم عليه من حسن اختيار طرفى الزواج لبعضهما البعض طبقا لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» وطى التكافؤ بين الزوجين من حيث المستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى حتى يتيسر لها الاستقرار الاجتماعى الضرورى للتنشئة الاجتماعية السليمة .

فالوعاء الطيب لا يخرج منه إلا طيبا ، فكثيراً ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يؤكد ذلك بالحديث عن عراقة أصله وطهارة نسبه ، وأن سلسلة بيته لم تتلوث بسفاح الجاهلية وقد روى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء» . وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لم يلتق أبواى قط على سفاح ، لم يزل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفا مهذبا لا تنشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما» .

ونبينا الكريم بسماته هذه جاء استجابة لدعوة جده إبراهيم الخليل بأن يكون من نسل ولده اسماعيل نبى مرسل بهذه الصفات ، كما جاء فى الآية الكريمة «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» ... صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، فقد اختارك ربك من سلالة كريمة المحتد ، طيبة المنبت ، أصيلة المجد ، عريقة النسب ، شريفة الحسب ، وها أنت تتمدح بذلك فتقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار» .

وفى الواقع ونتيجة لطهارة وعائه فقد كان الرسول الكريم من عشاق الفضائل منذ نعومة أظفاره عف عن الدنايا منذ طفولته وفى مقتبل عمره ، فكانت حياته كلها حافلة بعظائم الأمور ... كان غلاما يترفع عن مألوف الغلمان ، وكان فتى له تفكير الساسة المحنكين ، وكان شابا فيه خلال الكبراء وهيبة الشيوخ رغم أن طور الطفولة وطور الشباب عاملان يدعوان إلى النزق والطيش ويحملان على الإسفاف والضعة .. ولكن الرسول فى هذه الأطوار كان مثالا للاباء والشرف

هذا وقد أوتى الرسول جوامع الكلم فى دروسة التربوية فى مجال التنشئة الاجتماعية وفى غيرها من العمليات الإجتماعية ، فقد روى الإمام أحمد عن وابصه بن معبد رضى الله عنه ، قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أريد ألا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه ، فقال لى : ادن يا وابصة فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته ، فقال يا وابصة : أخبرك بما جئت تسأل عنه؟فقال أخبرنى يارسول الله،فقال صلى الله عليه وسلم: جئت تسألنى عن البر والإثم ؟ قلت نعم : فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت فى صدرى . وقال : ياوابصه ، استفت نفسك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والاثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وأن افتاك الناس وافتوك »

وهكذا كان أسلوب معلم الإنسانية الأول فى التنشئة الاجتماعية لأفراد المجتمع ، ولا غرو فى ذلك فالقرآن الكريم يقول عنه « وما ينطق عن الهوى،إن هو إلا وحى يوحى » الآيات ٣ ، ٤ من سورة النجم وكذلك قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى القدوة الحسنة لمن سيجىء بعده من خلفائه ، حيث كان يزور ضعفاء المسلمين ويلاطفهم ، ويواسيهم ويؤانسهم ، ويجالس معهم ويعود مرضاهم ويحضر جنائزهم . وكان يدعو ربه إذا توجه إلى المسجد ، كما جاء فى صحيح مسلم . ومن دعائه صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل فى قلبى نورا ،وفى بصرى نورا ، وفى لحمى نورا ، وفى دمى نورا ، وفى شعرى نورا وفى بشرى نورا » رواه الشيخان :

ولقد سارت التربية فى المجتمع الإسلامى على أساس أن يعمل المؤمن المسلم أو المؤمن

غير المسلم « المسيحى أو اليهودى » على تربية نفسه على مكارم الأخلاق ـ فمن أراد أن يتحلى بالحلم ويجعله خلقا من أخلاقه ، فعليه أن يتعود ضبط النفس وكظم الغيظ ـ وذلك حتى تستقر لديه خاصية الحلم ، بل والكرم إذا أراد أن يكون الكرم من سماته ، فعليه ـ كذلك ـ أن يؤمن بقيمة الخير ويعمل دائما على ترويض نفسه على السماحة والبذل ، حتى تستقر لديه صفة الكرم ، فالحلم والكرم هما جناحا الاخلاق ، تلك التى قيل فيها :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

و ريب أن هذا المنهاج التربوى كان استجابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى « قد أفلح من تزكى » وقوله تعالى « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » والفلاح هنا شرط لقدرة الانسان على تربية نفسه على الفضائل وتنمية نوازع الخير فيها ، وتنحيه دوافع الشر عنها .

والتزكية الواردة فى الآية الكريمة السالفة الذكر تشتمل أيضا على التطهر من الرذائل والتربية على الفضائل ، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلس بين يديه وقال يارسول الله : ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتى إليه من قبل شماله ، وقال يارسول الله : ما الدين ؟ قال حسن الخلق ، ثم أتى إليه من ورائه وقال يارسول الله : ما الدين ؟ قال حسن الخلق . . وهنا أضاف الرجل : أما تفقه ! ؟ ! أى ألا تغضب ! ؟ ويرجع عدم غضب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى كبحه لجماح نفسه وتمرينها على الانضباط والتحلى بمكارم الأخلاق ، فالحليم هو الذى يضبط نفسه عند الغضب وحلمه هذا وكرمه الأخلاقى ورقة قلبه ، كانت السبيل الأساسى إلى جمع الناس حوله واستمساكهم به وحبهم له ، وحرصهم على رضاه . وكل ذلك كان فيه رحمة الله به وبالناس . ولا غرو فى ذلك فهو القائل « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

فطوبى لمن اتبع سبيل خاتم النبيين وسلك الصراط المستقيم والمنهاج القويم فى تنشئة أبنائه باتباع توجيهات الرسول الكريم « الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وهل يترك الله حبيبه محمدا حامل لواء الحق والعدل لعدوان عبدة الأصنام والأوثان ؟ كلا ، فهو الذى وجده يتيما فآواه ووجده ضالا فهداه ، ووجده عائلا فأغناه . . وهو الذى قرن إسمه

بإسمه وأمرنا بالصلاة والسلام عليه فقال « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يأيها الذين آمنوا صلوا علية وسلموا تسليما » .

وفي ظل النظريات التربوية تنصح كل ذي أبناء أن يسترشد بأسلوب رسولنا الكريم في التنشئة الاجتماعيه لابنائه بنين وبنات ، حتى تمتد إليه يد الرحمن بالهداية والإرشاد، تصديقا لقوله تعالى « قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مـــدا حتى إذا رأوا ما يوعدون ، إما العذاب وإما الساعة ، فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » الآية ٧٥ من سوره مريم.

ولا ريب أن الصيغة المثلى لصنع المجتمع الإسلامي على نفس المنوال الذي يحدده القرآن الكريم ، مجتمع رائد ، متماسك ، ناهض، دينامي كمجتمعك الذي ساد بالفكر المتطور والوحدة النقية الوثقى ، والقوة الواعية .. فليس كالاسلام دينا ينشد السلام، ويعمل جاهدا على تحقيقه وتدعيمه، معتمدا على المنطق والحجة، في إطار الحرية الكاملة لعقل وفكر الإنسان ... الإنسان الذي كرمه الله جلت قـــدرته ، وفضله على سائر المخلوقات .

تلك هي التنشئة الإجتماعية بالمعنى الإسلامي والتي وضع أسسها من كانت تنشئته الإجتماعية على يدى الله ، حيث كانت عناية الله ترعاه في كل طور وفي كل مرحلة، عاله وهو يتيم فقير ، وكفله وهو راع صغير ، ووفقه وهو تاجر أجير ، ثم شاء لأمر يريده أن يصنعه على عينه ، فأدبه بأدبه ، وعلمه من علمه ، وعصمه من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية، حتى صار اليتيم العديم سيدا للجزيرة العربية ، والراعي الصغير راعيا للعالم كله ، والتاجر المتجول فاتحا للأرض ومؤسسا لنظام اقتصادي يقوم على العدالة . ولما كان الله قد زودة قبل كل ذلك بسمات الصبر والصدق والإيمان والثبات والجهاد والخلق والرجولة ، فقد أثمر الغرس وتم النور ، واتحـدت الكلمة واتسعت الرقعة فصارت المدنية دينا ، والقلة ملة ، والقرى الثلاث : مكه والطائف ويثرب، أشبه بنيويورك ولندن وباريس .

٢ — التعاون عملية اجتماعية : Cooperation

ويقصد بالتعاون أن يعمل إثنان أو أكثر سويا من أجل تحقيق هدف مشترك ،

وعلى سبيل المثال الذين يتعاونون من أجل الحصول على كسب مشترك ، أو للدفاع عن أنفسهم ، أو لمساعدة الآخرين ... الخ .

فالتعاون من العمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية ، ذلك أن كل إنسان فى المجتمع يتعاون مع الآخرين بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، فالاستاذ فى قاعة الدرس يتعاون مع زملائه من أساتذة الجامعة فى تعليم أبناء الشعب ، وكذلك الحال بالنسبة المدرس فى المدارس بمختلف مستوياتها .. بينما يتعاون أولياء الأمور مع باقى المواطنين فى تيسير توفير كل احتياجاتهم واحتياجات الأساتذة والمدرسين وغيرهم من مأكل ومشرب وملبس ومواصلات وخدمات متنوعة أخرى ... ذلك أن كل فرد لا يستطيع أن يزرع ويحصد ويطحن ويخبز القمح الذى يأكله فى صورة « خبز » يوميا أو حتى شهريا وإنما كل فرد يتعاون فى المجتمع بما يقوم به من عمل مع الآخرين فى تيسير الحياة الاجتماعية على نفسه وعلى الآخرين ، وليس هناك « عمل » أهم من « عمل آخر » ذلك أن امتناع أعضاء مجلس محافظة الجيزة عن العمل لمدة شهر لن يؤثر على سكان المحافظة فى شىء . على حين أن امتناع « جامعى القمامة » عن العمل لمدة أسبوع واحد فقط يؤدى إلى انتشار الأوبئة والأمراض فى المدينة ...

والتعاون ضرورى — أيضا — من أجل زيادة الدخل القومى ، ومن أجل طرد الجيش الإسرائيلى من سيناء ، ومن أجل زيادة التضامن الاجتماعى .. الخ . وقد يكون التعاون على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات ، أو على مستوى الدول ، مثل تعاون الدول العربية فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

إذاً التعاون بهذه الصورة يعتبر من الأسس الضرورية لقيام الحياة الاجتماعية ، غير أن للتعاون حدوداً ينبغى ألا يتعداها ، حتى لا يقضى على شخصية المتعاونين بعيداً عن المساعدة المتبادلة Mutual Aid التى يقتضيها التعاون بصورته الطبيعية ، وإلا تحول التعاون إلى نوع من الاسراف فى التنظيم Overorganization أو التنظيم المسرف الذى هو شكل باهت من أشكال التعاون . ولعل الإسراف لدينا فى مصر تنظيمات الشباب — على سبيل المثال — سواء داخل دور العلم أو خارجها ، هو الذى جعل مشاكل الشباب المصرى تستمر بدون حلول جذرية نتيجة التنافس غير البناء بين سائر الأجهزة العديدة المنوطة بشئون الشباب .

وكلما كان التعاون لمثل هذه الأهداف فهو تعاون إيجابى ، أما إذا كان التعاون من أجل تحقيق أهداف هدامة كما نهى الله عنه فهو تعاون سلبى :

وعن التعاون يقول القرآن الكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان الآية ٥ من سورة المائدة ، بينما الرسول الكريم وهو يؤسس المجتمع الإسلامى الأول عمل على أن يغرس فى نفوس أفراد هذا المجتمع القيم ومكارم الأخلاق. وجدير بكل مسلم أن يترسم خطى نبينا صلوات الله وسلامه عليه الذى جاءنا بالإسلام عقيدة وعملا ، مسجدا ومجتمعا .. وأراد لأتباعه أن يكونوا نماذج طيبة وعناصر صالحة بما غرس فيهم من قيم خلقية ومبادىء فاضلة . والمسلم الذى يتمسك بكل هذا لا يكون منعزلا عن مجتمعه ولا سلبيا فى حياته ، وإنما متعاونا أشد ما يكون التعاون . فالمسلم الذى يتمسك بهدى نبيه هو الذى يعايش الناس ، ويمارس معهم كل العمليات الاجتماعية المعروفة ، ويتجاوب مع كل عمل طيب فيـــه تعاون يعود بالخير على المجتمع كله .

فالعلاقة بين العبد وربه لا ينبغى أن تبقى عقيدة مستترة فى ضمير الفرد،وإنما ينبغى أن تكون لها مظاهر عملية يعرف بها المسلم من غيره . ذلك أن العقيدة الإسلامية والتوجيهات النبوية تبنى المجتمع الإسلامى على البر والتقوى . ولذلك فإن النبى صلى الله عليه وسلم اهتم بعلاقة المسلم مع أخيه فى الإنسانية ونهى عن ظلمه بقوله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه » والإسلام بما افترض من زكاة ،فإنما لكى يكون هناك « تعاون »وتكافل اجتماعى بين أبناء الأمة الإسلامية . ونرى التوجية التعاونى السديد للمسلم فى كل معاملاته ، فقد أوجب الإسلام عليه الصدق عند البيع والشراء ، وأن تكون معاملته قائمة على الأمانة والإخلاص ، فالتعاون فى هذه الأمور هو الأرض الخصبة الصالحة لنمو العواطف الإنسانية التى تؤدى إلى الترابط بين القلوب على أسس من الأخوة والمحبة ، لاسيما وأن الرسول الكريم شبه الأمة الإسلاميـــة « بالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وهذا التشبيه يقصد به أن يكون « التألم » إيجابيا « تعاونيا » وليس « لفظيا » وتتأتى الإيجابية بعمل الآخرين قدر جهدهم على تخفيف آلام الناس بمشاركتهم أتراحهم قبل أفراحهم . وقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله « من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا

والآخرة » والتيسير هنا هو أرقى صور التعاون . وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله سبحانه وتعالى ، لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام »

وهذا الحديث الشريف يبين منزلة الإنسان العطوف الودود الذي يمد يده بالإحسان ويحرك لسانه بحلو الكلام ، والذي يصلي والناس نيام ... فعلاقة المسلم بربه تفرض عليه أن يكون متعاونا بصورة إيجابية مع بقية الناس في المجتمع .

وينفر الرسول الكريم من التعاون السلبي بقوله « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » ويضيف عليه الصلاة والسلام إلى ذلك قوله « خير الأصحاب عند الله ، خيرهم لصاحبه وخير الجيران خيرهم لجاره » وتلك أرقى صور التعاون الإسلامي . فالتعاون هو أحد الأسس الرئيسية للمجتمع الإسلامي . والمجتمع الإسلامي هو المجتمع المتآخي المتعاطف ، الكل فيه يعرف ماله وما عليه نحو أشقائه في المجتمع . والقرآن الكريم يقول « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله » .

ومن أرقى صور التعاون الإسلامي تلك التي أمر الله بها في الحرب في قوله تعالى « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا »

وهذا نوع من التعاون في مجال الحرب ، بحيث تتعاون كل فرقة أو بعضها في حماية الأخرى أثناء الصلاة ، حتى لا يؤخذوا على غرة من الأعداء .

٣ – التنافس عملية اجتماعية : Competition

ويقصد بالتنافس العملية الاجتماعية التي بواسطتها تجد شخصين أو أكثر أو جماعتين أو أكثر تجتهدان في الوصول إلى هدف معين أو أهداف معينة . والتنافس قد يكون

إنشائيا Constractive وهو التنافس الفضل فى الإسلام ، وقد تكون التنافس اتلافيا Destructive وهو التنافس الذى لا يقره الإسلام .

وهـذا التنافس يأخذ أشكالا كثيرة ، فقد يكون تنافسا ذهنيا Intelleciuall بين البنات والبنين فى الفصول الدراسية ، وقد يكون تنافسا مزاحيا Playful كما فى ممارسة الأنشطة الرياضية وسائر الأنشطة المتعلقة بأوقات الفراغ الأخرى ، وقد يكون تنافسا فى مجال العمل بهدف الاستحواذ على النفوذ أو المناصب أو للحصول على زيادة فى المرتبات أو الثروات .

والشرط الأساسى للتنافس هو أن يتم بين اثنين من الأفراد أو الجماعات ، كل منهما يكافح من أجل تحقيق نفس الهدف ، أى هدف واحد ومتنافسين اثنين على الأقل . وبالتالى فإن الإنسان لا يتنافس مع نفسه ، وإن كان الميسور أن يتفوق على نفسه .

ومثل هذا التنافس قد يكون إتلافيا Destructive أو إنشائيا Constructive فإذا كان هدف المتنافسين أن ينجح واحـد أو أكثر على حساب الآخرين ورسوبهم ، فإن التنافس هنا يصبح إتلافيـــا ، أما إذا كان التنافس بحيث ينجح كل طالب بالمجموع الذى يتفق مع جهده فى الاستذكار ، فإن التنافس هنا يصبح بنائيا « ومن هنا يمـكن القول بأن المتنافسين بصورة إتلافية يحاول كل منهم القضاء على الآخرين بشتى الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، استنادا الى ماجرى عليه العرف من أن « الغاية تبرر الوسيلة »[1] على حين أن التنافس الإنشائى يهدف إلى تحقيق المصلحة العامة للجماعة أو للمجتمع ، مثل تنافس جنود الجيش المصرى فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ على اصطياد أكبر عدد من أسرى الأعداء الإسرائيلية ومثل تنافس جنود المطافىء — يوم ٢٦ / ١٩٧٨/٨ على إطفاء الحريق الذى أتى على محلات « جاتينيو » بالقاهرة والتى كانت تحتوى على سلع يصل ثمنها إلى مليون ونصف مليون جنيه قبل أن تأتى عليها النار .

والتنافس الإسلامى عملية تنبثق عن « التعاون » فى العمل أو فى الدراسة أو فى اللعب فقد يكشف ميدان العمل عن بعض الاستعدادات والمواهب الخاصـة لبعض الأفراد فى حدود أى جماعة ، أيا كان نطاقها . وهو عملية محببة إلى النفس فى مختلف

---

(1) Le bat justifie les moyens .

ميادين النشاط الاجتماعي سواء بين أفراد الأسرة، أو ذوى القربى ، أو أهل الجيرة ، أو طلاب المدرسة أو المعهد أو الكلية أو بين فرق الألعاب الرياضية فى مختلف النوادى أو بين المنتجين والمستوردين والمصدرين أو بين المتنافسين على عضوية مجلس الشعب أو بين الراغبين فى الجلوس على منصب العمدة فى الريف وما إلى ذلك طالما كان التنافس فى حدود الاعتدال . . وكلما كان التنافس قائما على أسس أخلاقية مستمدة من الدين فهو تنافس إيجابى مطلوب لإطلاق القوى الكامنة لدى أفراد المجتمع واستثمارها فيما يفيد الناس .

ومن صور التنافس لدى النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يسابق السيدة عائشة فى الجرى فسبقته يوما وسبقها يوما ، فقال لها « هـذه بتلك » وكان صلى الله عليه وسلم يدعو الأطفال .

إلى التنافس حيث كان يداعب عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس ويقول « من سبق إلى فله كذا ، فيستبقون إليه فيقعدهم إلى صدره ويقبلهم ويلتزمهم» كما كان عليه الصلاة والسلام يدعو إلى التنافس فى رعاية الأيتام حيث قال « خير بيت فى المسلمين ، بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين ، بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم فى الجنة وأشار بأصبعيه ».

وكان صحابته وأنصاره رضوان الله عليهم أجمعين يتنافسون فى العطاء وفى الحرب، فانظر إلى سعد بن معاذ يقول قبيل « بدر » لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن الأنصار « صل من شئت ، واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ماشئت ، واعطنا ماشئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركته وما أمرت فينا من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك . . »

وانظر إلى الأب المحزوز الهرم ينافس أبناءه الأقوياء الشجعان فى الجهاد أسوة برسول الله المثل الأعلى لانسانية الإنسان ، فهذا عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وله أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا ، يأبى هذا الشيخ إلا أن يشهد غزوة « أحد » فيقول له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فيذهب عمرو إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يشكو إليه أمر أبنائه ويقول : إن بنى هؤلاء يمنعونى أن أخرج

معك ، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتى هـــذه فى الجنة ... فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ... وقال لبنيه : وما عليـكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة . ومن ثم فقد خرج مع بنيه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم « أحد » شهيداً .

والأمثلة التى تدور حول التنافس فى الإسلام كثيرة ومشهورة ومعروفة ، تذخر بها كتب السير والتراجم وكلها شاهدة بما أحدثه هذا التيار النورانى الإلهى الذى انبعث من البشير النذير والسراج المنير فى أمة كادت تموت فأحياها رسول الله بروح القرآن الـكريم ، فإذا هى تبعث من جديد، تنفض غبار الزمن وتواصل مسيرة الحياة، لتنقذ الإنسانية بين الضياع والهلاك ، وصدق قول الله فى رسوله الحبيب « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الـكتاب والحـكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

بينما التنافس الإتلافى فى التجارة مثلا يكون فيه هدف المتنافس هو الربح على حساب خسارة الآخرين وهلاكهم ، فمثل هذا التاجر يستخدم وسائل وأساليب غير مشروعة مثل إغـراق السوق Damping أو البيع « بالخسارة » إلى حين ، حتى يقضى على الآخرين ، ثم يبقى هو وحده فى « السوق » وحينئذ يقوم برفع الأسعار من أجل تعويض خسائره . وفى مثل هذا النوع من التنافس، يلجأ المتنافسون إلى القضاء على منافسيهم بشتى الوسائل، بما فى ذلك الخداع والغش ، أو العنف والقوة ، طبقا لمبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » وهو مبدأ لا يقره الإسلام بالمرة .

وكان عليه الصلاة والسلام ينافس أصحابه فى سائر ألوان الشجاعة والبسالة والدفاع عن القوم وفى الـكرم والجود ، فمن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أحسن ـ الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، فلقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا ، وكان قد سبقهم إلى الصوت ــ وهو على فرس لأبى طلحة ــ وفى عنقه السيف ، وهو يقول « لم تراعو ، لم تراعوا » .

وانظاره صلى الله عليه وسلم فى تنافسه مع أبى جهل ـ فرعون الجزيرة العربية ـ الذى الذى استـكثر الرسالة الالهية على محمد النبى الأمى ، الذى كان من أطهر الأنساب

وأزكى الأصلاب ، فكان سيد الأولين والآخرين وقدوة المتقين وأسوة العاملين وإمام المرسلين ، والذى نصره الله على الجبابرة ... ولكن هذا الفرعون قد جن جنونه عندما رأى محمد يبعثه الله رسولا ، حتى بلغ به الطيش مبلغا لاحد له ، حتى أنه راح يتفنن فى أشنع ألوان التعذيب لمن آمن به، حتى لقد طعن إمرأة ضعيفة لمجرد إيمانها بالله وبمحمد رسولا ، حيث طعنها فى مكان العفة منها فماتت على الفور . ومع ذلك لم يندم على فعلته الخسيسة الدنيئة التى يخجل لها كل إنسان مهما قسا قلبه وغلظ طبعه، فكان الهوان جزاء كبريائه وطغيانه وفجوره وعصيانه وجبروته واستعلائه حيث سمع أبا مسعود يقرأ القرآن فتنتفخ أوداجه كبرا وهو يقول : حتى رعاة الغنم تبلغ بهم الجرأة إلى حد المجاهرة بالقرآن على ! ؟ . وعلى ملأ من الناس يصفعه أبو جهل وهو يقول له : حتى أنت يارويعى الغنم ! ؟ ! .

غير أن الله لم يؤخر القصاص لهذا الرويعى ففى يوم « بدر » يسقط الطاغية قتيلا يتهاوى على الأرض وهو يتخبط فى دمائه ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وتشاء الصدفة أن يعثر عليه راعى الغنم عبد الله بن مسعود ، فيضع نعله على رقبته فيقول له وجسده المسترخى الذى انهار ، وانهار معه الكبرياء العنيد ، فيقول فى يأس : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعى الغنم ، أسرع وأجهز على وأبلغ محمدا أنى لا زلت عدوه الألد، ويحمل عبد الله بن مسعود رأس الطاغية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحكى له ماحدث فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فرعونى أشد من فرعون موسى .. إن فرعون موسى أدركه الغرق فقال إنى آمنت .. وفرعونى حين أدركه الموت يأبى إلا أن يصر على عناده وكفره . وهكذا كانت شدة التنافس بين هـذا الفرعون وبين الرسول الكريم ..

هذا وكثيرا ما كان يضفى الرسول الكريم على تنافسه أرقى صور الإنسانية، فانظر إليه مع الأسرى ، فما أبره بهم ، وما أنبل عطفه عليهم، واهتمامه الإنسانى الفذ بالأخذ بأيديهم كى ينالوا حريتهم .. فمن يملك المال منهم يستطيع أن يفتدى نفسه بما له ، ومن لديه العلم، فبما لعلم يستطيع أن يقدم الفدية الهينة الميسورة من بعض علمه ، بحيث يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة وبذلك يصبح حرا .. ومن لا يملك مالا ولا علما ، فما كان أسرعه صلى الله عليه وسلم بالإنعام عليه بالحرية وهذا الأسلوب الانسانى فى التعامل جعل الكثيرين منهم، ما أن يحصلوا على حرياتهم بهـذا الأسلوب

اليسور ، حتى تشدهم تلك القواعد السامية إلى الاسلام ، فلا يفارقون معسكر الأسر وإنما ينضمون طواعية إلى المجتمع الاسلامى أحرارا، زادتهم الحرية إيمانا بصدق الرسالة المحمدية والتصاقا برحاب النبى الحبيب ... حتى أنهم جميعا صاروا – بكل اليقين وبكامل الاقتناع – من أشد المتحمسين لنصرة الدعوة المحمدية .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم فى معاملة الأسرى معاملة راقية « استوصوا بالأسرى خيرا » ولذلك عاملهم المسلمون معاملة رحيمة أثرت فى نفوس كثير منهم ، وعرفوا للاسلام نبله ، حتى قال أحدهم معترفا بجميل المعاملة « إن من وكل إليه أمره كانوا يقدمون إليه أفضل ما فى دارهم من الطعام، ويكتفى أهل البيت بالتمر والماء . وبالاضافة إلى ذلك فما أغاظ الرسول ولا المسلمون لأسير قط ، ونهى الرسول عن التمثيل بهم ، ففى رواية أن عمرا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو، لتخرج لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا ، فلطالما كان قاسيا عليك بلسانه» . فكان جواب النبى عليه الصلاة والسلام « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقف موقفا لا تذمه ، وقد تحققت نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام حيث أسلم سهيل وحسن إسلامه . وقد كانت له مواقف مشهورة فى الخطابة مدافعا عن الإسلام فى حرب الردة .

وحث الرسول الكريم الناس على التنافس فيما اشتهر فيه العرب من خصائص تتفق مع الإسلام ، مثل إكرام الضيف وإكرام الجار والنجدة والشهامة والفروسية باعتبارها من الصفات العربية الأصلية التى كانت على لقاء تام مع مبادىء الاسلام الحنيف ، دين الفطرة ... وكذلك حث الناس على التنافس فى عبادة الله عن طريق التعمق فى الدين واتباع أوامره واجتناب نواهيه حتى تنتشر العقيدة الاسلامية . ذلك أن انتشارها يحتاج إلى أفراد أقوياء الشخصية ، أقوياء الحجة ، يملكون ناصية البيان ، ويقبضون على أزمة الفصاحة والبلاغة ، ولم يكن عند مبعث خاتم النبيين أمة أقوى جنانا وأفصح لسانا ، وأقدر على الجدل والمناقشة من العرب الذين هيأتهم حياة الصحراء بسمائها الصافية وفضائها الواسع وأبعادها المترامية الأطراف وهوائها النقى ونجومها اللامعة التى ترصع الصحراء ليلا ، والقمر الذى يزيدها بهاء ... للصبر على المجاهدة والقدرة على المجالدة وعرفوا بحضور البديهة وصفاء القريحة، فاختارهم الله دعاة لدينه ، وجعل من ديارهم مهبطا لوحيه الذى أوحى به إلى صفوة خلقه وخاتم أنبيائه .

والذى يستعرض أسماء الدعاة فى فجر قيام المجتمع الاسلامى يجد من بينهم أو على قمتهم أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، عائشة ، خديجة ، طلحة ، الزبير ، حمزة ، ابن عوف ، معاوية ، خالد ، عمرو ، سعد ، المثنى ، وأبو عبيدة ... وغيرهم ممن أثنى الله عليهم فى قوله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » ... فقد كان التنافس على أشده بين هؤلاء فى التعبد وفى الدعوة لدين الله ، وفى الزود عن تلك الدعوة ومن اعتنقوها وفى طلب المغفرة من الله ... الخ .

ولقد سرى التنافس الاسلامى بهذه الصورة فى نفوس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجهم ، حيث كانوا يسعون إلى التخفيف عن كاهل مواطنيهم ، بمعنى أنه لم يكن - مثلا - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وحده الصادق فى تواضعه وتعاونه ، حين حمل الدقيق على كاهله ليطعم أولئك الصغار الذين كانوا يتضورون جوعاً على مقربة من المدينة ... وحين راح ينضج لهم الطعام بنفسه ، وينافخ فى النار فيتخلل دخانها لحيته ، وأم الصبية لا تعلم أن ذلك الطاهر هو أمير المؤمنين عمر ، حيث قالت له : أو ما كان عمر أولى منك بهذا الذى تصنع ؟ .. ولم تكن تعلم أنه هو عمر ، بذاته . ولم يكن عمر وحده المتواضع المتعاون فى هذه الأمة التى يرعاها ، فكم بين بناة هذه الأمة ومشيديها من تواضع وتعاون وتنافس ، فلم يزل التاريخ يحفظ منافسة سلمان الفارسى أمير المدائن لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى خدمة الناس ... فقد لقيه على مشارف المدائن رجل من الشام يحمل حملا من التمر ينوء به كاهله ، فطلب من الأمير سلمان الفارسى أن يحمله عنه وهو لا يدرى أنه بين يدى الصحابى العظيم سلمان الفارسى ، ولكنه حمله عنه حملا هانئا ، فلما دخل مدينة المدائن ألقى سلمان السلام على جماعة فأقبلوا عليه وقالو : وعلى الأمير السلام ، وسألوه أن يحملوا عنه ما يحمل ... وهنا وجم الشامى حين علم أن أمير المدائن هو الذى يحمل ، فأراد أن يحمله عنه ، فامتنع وقال له « لا . . حتى أبلغك منزلك » وهكذا كانت المنافسة بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إعطاء القدوة الحسنة فى التواضع والتعاون فى خدمة المجتمع .

ومن صور التنافس الشريف التي أعطاها لنا نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، أنه عندما أصيب في غزوة « أحد » وكسرت رباعيته الشريفة وسال دمه الكريم ، فكان يتلقفه بيده المباركة وهو يقول : لو سقط منه شيء على الأرض ، لنزلت عليهم اللعنة ، فانظر إلى رحمته صلى الله عليه وسلم حتى بأعدائه في هذا الموقف . بل إن بعض أصحابه قالوا له ... هلا دعوت عليهم يارسول الله ... فقال صلوات الله وسلامه عليه : إني لم أبعث لعانا ، ولكنني بعثت هاديا ورحمة »

وإذا قارنا موقف الرسول الكريم السالف الذكر بموقف المشركين من الرسول عليه الصلاة والسلام بعد موت عمه أبي طالب ، عندما ذهب إلى الطائف وهي قرية تقع شرقي مكة يلتمس عند ثقيف العون والمنعة ، ولكن القوم ردوه جميعا وانكروا دعوته ، فمكث عشرة أيام يتردد على بيوتهم صابرا على ما يلاقي ، محتملا كل أذى في سبيل الله ، فلما رأى منهم تصميما على إنكاره وزيادة إيذائه ، هم بالرحيل وقال لهم « إذا ابيتم فاكتموا على ذلك » خشية منه أن يطير الخبر إلى أهل مكة فيتضاعف بلاؤهم ويزداد ، بل أغروا به سفهاءهم وجعلوا يقفون له صفين يسبونه ويقذفونه بالحجارة ، ولم حاول زيد بن حارثه الذي كان يرافقه في هذه الشدة الدفاع عنه ، ولكن لم تجد مع القوم محاولته ، وشج رأس زيد وسال الدم من أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم على الأرض . ولما اطمأنت أنفاسه أخذ يرفع شكايته لربه: « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته امري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

ومن صور التنافس في العمل المنتج النافع التي كان الرسول الكريم يحرص على تربية المسلمين عليها ، حيث كان يحث الناس على العمل ويبغضهم في التواكل ... كما كان يهاجم التفاخر بالأحساب والأنساب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « ومن أبطأ به عمله لم يسرع في نسبه » وكان يقول لبني هاشم « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتون الي بأنسابكم » بل قال لابنته فاطمة الزهراء « يافاطمة بنت محمد إعملي ، فلن أغني عنك من الله شيئا » وحارب المحسوبية والوساطات والشفاعات وكان يقول « إعملك

من كان قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق منهم الضعيف قطعوه ، وأيم الحق لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»

ومن ألوان التنافس الهدام ما كان بين اليهود العرب واليهود فى الدول المجاورة، حيث كانت كل طائفة منهم تنافس الأخرى فى استغلال الناس ويتباهون بذلك ،حتى استفحل ضررهم وتفاقم شرهم واستغاث المجتمع من هؤلاء المرابين والمطففين « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »فقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو حتى بينهم وبين أنفسهم ، حيث كان يهودى ينافس الآخر فى إساءة استغلال الآخرين ، ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة .

وبهذا التنافس بصورته الإسلامية البناءه أصبح الإسلام الذى بدأ بخديجة وعلى وأبى بكر وزيد ... دين الناس ودنيا العالم يقف به فى آخر الغرب عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسى ويقول وقد خوض جواده فى الماء « اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك ، اللهم فاشهد .. » ويتجه به إلى آخر الشرق قتيبة الباهلى ، ويأبى إلا أن يوغل فى بلاد الصين فيقول له أحد أصحابه محذرا « لقد أوغلت فى بلاد الترك ياقتيبة والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر »فيجيبه قتيبة « بثقتى بنصر الله أوغلت ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ؟ فرد عليه المشفق المحذر بقوله « اسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله » .

٤ - الصراع عملية اجتماعية :

الصراع عبارة عن تضارب القوى الاجتماعية ونضالها، وقد يكون هذا التضارب مستترا أو سافرا ، وقد يكون بين فردين أو فئتين أو جماعتين أو مجتمعين .. وهذان الفردان ، أو هاتان الجماعتان، قد تكونا متكافئتين وحينئذ يكون الصراع متكافئا Equal Conflict وقد تكونا غير متكافئتين . وبذلك يصبح الصراع غير متكافىء Unequal وبالتالى يكون النصر حليف الجماعة أو الفئة الأقوى.

والصراع ينشأ أو يتطور عن التنافس الانلافى ، بمعنى أن التنافس القائم على الغش والخداع واستخدام العنف والقوة، غالبا ما يتحول إلى صراع ، بمعنى أن الصراع نوع

من التنافس ، ينظم فيه المتنافس جهوده وقوته ، مركزا اهتمامه وتفكيره ، أملا فى التفوق أو القضاء على منافسية .

والصراع بهذ الشكل من الضرورات فى العلاقات الشخصية والإجتماعية ، وهو قد ينشأ داخل الفرد عندما تواجهه رغبات وعواطف وأهداف متصارعة . ومع ذلك فإنه يمكن حل أسباب الصراع والتوصل إلى نوع من التوفيق Compromise بين المتصارعين ، فإذا استعصى الصراع على الحل فإنه للمتصارعين سوف يتقاتلون من أجل إنها هذا الصراع .

غير أن الصراع لا يتوقف بين المنتصرين أو بين المنهزمين ، بمعنى أنه يتحول إلى سلسلة مستمرة من الصادمات المتجددة . ولما كان الصراع على هذه الصورة لا يمكن تجنبه باعتباره من ضرورات الحياة الاجتماعية . . فما هى الوسائل التى يمكن بها تحويله إلى صراع بناء ؟ Constractive ونجيب على هذا التساؤل ، بأن هذه الوسائل هى :

١ ـ أن يطغى جانب على آخر .. ولكن هذا ليس حلا للمشكلة ، لأن الجانب الضعيف سيستمر غير راض .

(٢) استخدام أسلوب المساومة ولكن لما كان أى من الجانبين لاينال كل ما يطلبه ، فإن هذا لا يكون حلا بالمرة .

٣ ـ أن تحلل الخلافات فى كل جانب إلى عناصرها ، ثم تجمع هذه العناصر مرة أخرى فى ترتيب جديد بشكل يجد فيه كل طرف ما يرضيه ، فإن هذا هو الحل الأمثل .

على أنه إذا كانت المنافسة بين اثنين أو أكثر يتكالبون من أجل نفس الشيء ـ كما سبق أن أوضحنا ذلك ـ فإن الصراع يكون بين اثنين يتقاسمان الحقد والضغينة نتيجة لاختلاف مصالحهما ، ومن ثم فإن صراعهما يكون من أجل أهداف متعارضة .

والصراع الذى يحل على هذا النحو يعتبر ـ من وجهة نظر علم الاجتماع ـ عملا بناءاً ، لأن كل طرف يحصل على مايريد ، وتنشأ علاقة جديدة تعود بالفائدة على الطرفين . . . وانظر إلى الرسول الكريم من خلال صراعه بالشكل الإسلامى مع القبائل عند نشأة المجتمع الإسلامى ، وكان سنده فى دعوته ما تخلق به من

أخلاق سامية وإيمان مكين ، ونفس كاملة .. كان هذا سلاحه الذى واجه به غرور الجبابرة وصلف الطغاة من القبائل المعاندة ، ومؤامرات اليهود اللئيمة الخسيسة دائما ، وطغيان قريش الغادر الباغى ، فقد تغلب صلى الله عليه وسلم على كل هـذه القوى الشرسة الباغية ، المتشكلة الألوان ، والمتعددة المرامى بالحجة والاقناع بالحـق من غير قوة مادية استجابة لقوله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة» فماذا كان يملك عليه الصلاة والسلام من قوة مادية أمام قيصر الروم وكسرى الفرس ، وأمام طغيان قريش والمؤامرات التى تحاك له من هنا وهناك؟ ... لاشىء سوى الإيمان بالله وإنـكار الذات وإيثار الحق وعرفان الواجب .

هذا وقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو للعقيدة الإسلامية سرا خوفا من أذى قريش وبطشهم . ولذلك كان انتشارها فى أول الأمر بطيئا يمشى متعثرا . ويزداد الراغبون فيها فى حذر وعلى استحياء . وكان رسول الله يخشى أن تصطدم قريش بالمؤمنين ، فأعد دار الأرقم بن أبى الأرقم وهو من سادة قريش السابقين إلى الإسلام ، مكانا يجتمع فيه بأصحابه ليفقههم فى أمور الدين ، وليعلمهم أصول الرسالة ، ليحفظهم ما يتنزل عليه من آيات الذكر الحكيم . فلما أمر بعد ثلاث سنوات من الرسالة بأن ينذر عشيرته الأقربين . وأنزل عليه قوله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ — ٢١٦ «وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون» غير أن بعض هذه العشيرة وكثير من الأقربين عادوه وتحزبوا ضـده ، وكان على رأسهم عمه أبو لهب وامرأته حمالة الحطب اللذين اندفعا فى عداوته إلى غير حد .

ومن جهة أخرى أغلظت له قريش فى الرد عندما دعاهم ليعلن لهم بتكليفه بالرسالة وأن الله أمره بأن يدعوهم إلى عبادته وحـده دون شريك ، وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، والمؤاخاة بين الناس ونشر العدل والمحبة ... أغلظوا له القول وجادلوه ، ووقفوا له بالمرصاد يحاولون صده عما هو ماض فيه ، وحاربوه بشتى الطرق والوسائل ليعجزوه عن السير قدما إلى غايته . وما علموا أن الله آخذ بناصره ، فنجز وعده . ولذلك أنقذه سبحانه وتعالى بالهجرة إلى المدينـة ، ليحفظ عليه دينه ولينطلق به إلى دنيا أرحب وأوسع .

وهناك فى المدينة استخدم معهم ما يعرف حاليا « بالصراع الاقتصـادى » وهو أسلوب يشبه أسلوب الحصار الاقتصادى إذا استخدمنا المفاهـيم الاقتصادية الحديثة ، فقد شرع الرسول الكريم الصراع الاقتصادى ومارسه ، حين لم تجد الوسائل السليمة والسلبية فى كف أذى المشركين من قريش . ويتمثل هذا الصراع الاقتصادى فى سرايا وغزوات « حمـزة ، عبيدة ، الأبواء ، بواط ، العشيرة ، سفوان ، وعبـد الله ابن جحش .. » إذ كانت أعمال هذه السرايا تشبه إحكام الحصار لتهديد « اقتصاد قريش تهديدا مباشرا ، يشعرها بقوة معسكر الإسـلام ، ومن ثم يدفعها إلى وجوب التفـكير الجدى فى إجراء « حوار » مع تلك القوة الكبرى ، لعله أن يؤدى ـ بالسلم وبدون حرب ـ إلى الاقتناع بترك الحرية لهذه الطليعة فى نشر رسالتها، وتأدية البلاغ الذى عهد به إليها ... وكانت السرايا والغزوات إلى جانب مهمتها تلك تؤدى مهمة أخرى لا تقل خطرا وهى « عقد الأحلاف والاتفاقيات مع القبائل المجاورة لما سوف يتلو من خطوات على طريق منازلة الشر ومجابهة القوة الغاشمة بالقوة الواعية » .

ولم ينس استخدام سلاح له مضاد فى المجتمعات القبلية وهو الشعر ، فنراه صلى الله عليه وسلم يقول لشاعر الدعوة حسان بن ثابت « شن الغارة على بنى عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غلس الظلام » .

غير أنه صلى الله عليه وسلم إزاء استمرار عـــداء أبى جهل لدعوته إلى درجة العليان ، حيث كان يغـير على جماعات المسلمين باستمرار ، ويكمن لأى جماعة منعزلة ويقاتلها، كما أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزرع والحدائق، وبدا للنبى عليه الصلاة والسلام أن مشاعره العدوانية للاسلام لم تتغير ، وأن هدفه لا يزال قائمـا على قتل النبى صلى الله عليه وسـلم ، ومن ثم فلم يكن هناك إلا حل واحد ـ من وجهة نظر الجانبين ـ وهو الصراع بالسيف بدلا من الصراع بالحجة والبرهان .

ولـكن الأمر بالقتال لم يكن قد صدر للرسول بعد ، ولذلك لجأ عنـــد ما نزل بالمدينة إلى التقرب إلى اليهود من سكانها ومن سكان ما حولها ، وعمل على مسايرتهم والتودد إليهم والتغاضى عن كثير من سيآتهم وتأمينهم على حريتهم ودينهم ودمائهم وأموالهم ... كما كان يجادلهم بالحسنى تارة وباللين تارة أخرى . وكان يخاطبهم ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ فى قوله تعالى : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

وبيننا وبينكم ألا نعبدوا إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله كما كان يعاتبهم بآيات قرآنية أخرى مثل قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون » فعل الرسول الكريم كل ذلك وأكثر منه مع اليهود ومع غيرهم لشىء واحد وهو تأمين شرهم ومحاولة إيقاف أو تحييد تحديهم له وانضمامهم إلى المشركين . ولكن متى كان لتلك الطائفة الباغية الضالة المضلة التى تنكرت لوحدانية الله وقد سبته عدد ، وعادت الأنبياء والمرسلين ، وتهكمت على الإسلام ورسوله ... متى كان لهذه الطائفة التى حقت عليها اللعنة أن ترعوى وتعود إلى الحق ، ويستقيم تفكيرها مع المنطق السليم ... فقد ازدادت نيران الحقد غليانا فى قلوب اليهود وازداد تهجمهم على الرسول والرسالة ، مما جعل الرسول الكريم يفكر فى أمرهم بعمق ... وكان الله أرحم وأشفق بنبيه من نفسه فلم يدعه طويلا فى تفكيره العميق ، ولم يتركه لقلقه وحيرته ، فقد أذن له الله جل جلاله بالقتال والجهاد (الصراع) لا حبا فى الدنيا ، أو طمعا فى جاه ، أو رغبة فى سيادة . ولكنه جلت قدرته وتعالى شأنه شرعه للحيلولة دون الظلم ، ولدفع الأذى والعدوان والله سبحانه وتعالى يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وفى قوله تعالى : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » وقوله تعالى أيضا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وإزاء كل ذلك اتخذ الرسول طريقا آخر من طرق الصراع لا يعتمد على المجادلة بالحسنى، وإنما يعتمد على المبارزة بالسيف .

ومن القواعد السامية التى التزم بها فى صراعه بالسيف إنه عليه الصلاة والسلام ، لم يكن يستعين بأهل الشرك على أهل الشرك ، وإنما لم يكن يقبل فى صفوف كتائبه المظفرة إلا « المؤمن » بالرسالة وبغاياتها السامية ، مهما يكن تعداد جيشه وعدته ، فى حاجة إلى أعداد أخرى من المحاربين . فقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم — ويريد بسلوكه الحصيف هذا للأجيال التى سوف تتلو أن تتعلم — أنه لا يتفانى فى الذود عن رسالة كبيرة إلا من يؤمن بها الإيمان كله ، وليس الذى « يساير الأمور » ويواكب مسيرتها كيفما اتفق ، فإذا نجحت امتطى ظهورها ، وإذا فشلت مضى فى سبيله بعيداً دونما التزام عميق وكامل بالرسالة .

وتخفق القلوب وتشرئب العقول ، إذ نستذكر من ثنايا سيرتك النبوية ، كيف

رفضت ـ صلوات الله وسلامه عليك ـ فى غزوة « بدر » أن ينضم إلى رجالك بعض الراغبين فى القتال تحت رايتك ، لاعن إيمان بالرسالة وإنما طمعا فى الفيء ، وتطلعا إلى اكتساب الغنائم ! . . فقد أبيت بحزم أن ينضم أولاء إلى زمرة الخاص البررة من المجاهدين إلا إذا أسلموا . . . وفى « أحد » التى ـ كانت فيها الحاجة ماسة أكثر إلى أعداد من الرجال أوفر ـ نظرت حولك فإذا كتيبة مجهزة بالأسلحة تقبل إلى الساحة تبغى المضى مع الركب نحو ميدان الصراع الحربى « وتسأل مستفسرا عن هوية هؤلاء ؟ ! . . ويقال لك ، صلوات الله وسلامه عليك ، إنهم رهط من يهود المدينة ، حلفاء لابن أبى ، ويظن البعض فى معسكرك ، أنك «قد» ترضى ـ هذه المرة ـ بانضمامهم . . . لكنك بعهود استمساكك بالمبدأ : تأبى ذلك أيضا وترفضه بذات الحزم وعين القوة ، وتزيد الأمر إيضاحا فتقول لمن حولك « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلموا » وهكذا كان الرسول الكريم فى صراعه الشجاع لا يحيد قط قيد شعرة عن القواعد الناصعة القويمة التى أرساها للصراع الإسلامى، بل والتنافس العادى أيضا . تلك القواعد التى كانت تسترشد بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

وفى مواجهة كل هذه الظروف سير الرسول الكريم الجيوش وقام بغزواته التى بلغت ٢٧ غزوة بخلاف السرايا التى بعث بها جنوبا وشمالا ، شرقا وغربا ، على مدى عشر سنوات قضاها فى صراع دموى وإيدلوجى ، قاتل فيها أعداءه ـ وجاهد فى سبيل دعوته ـ قتالا وجهادا هانت فى سبيله أموال المسلمين وأرواحهم وكل مايملكون . قتالا وجهادا كان يستقبله المسلمون بنفوس راضية مطمئنة، بل وكانوا يستعجلون خلاله الشهادة ليفوزوا بما وعدهم به ربهم من نعيم الدنيا والآخرة تحقيقا لقوله تعالى فى سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ـ ١٧١ « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين » ، وهذا هو الصراع الذى يقره الإسلام ، صراع من أجل العقيدة والوطن ، وليس صراعا من أجل المال أو الجنس أو الجاه أو السلطان .

لقد خاض المسلمون غمار معارك ضارية فى غزوات متعددة بذلوا خلالها دماءهم ، وباعوا أرواحهم فى سبيل العقيدة وحمايتها من الأعـــداء ، وفى سبيل إعلاء شأن الإسلام والاحتفاظ به حيا يشع نوره فى الصدور ، وفى سبيل رفع الراية الإسلامية عالية خفاقة ترفرف فى كل مكان . ومن أجل تنقية الحياة نفسها من الفساد والظلم .

ولقد كان الرسول الكريم فى كل سنوات الصراع هذه المثل الأعلى فى الشجاعة والإقدام ، لاسيما فى مواطن الشدة ، وساعات الحرج ... فها هو يوم « أحد » يقف وسط الميدان يقود المعركة واستطاع الأعداء أن يصلوا قريبا منه ، فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه حتى سالت منه الدماء ... وشاع وسط المعركة أن محمدا قد قتل، فجزع كثير من المسلمين. ويروى فى ذلك أن أنس بن النضير مر بقوم من المسلمين انكسرت نفوسهم ، وألقوا سلاحهم ، فقال لهم : ما تنتظرون ؟ قالوا : قتل رسول الله، فقال: وما تصنعون بالحياة من بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى استشهد ... ووسط هذه الشدة سمع صوت الرسول الجريح وهو ينادى أصحابه فى شجاعة نادرة « إلى عباد الله ... إلى عباد الله» فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا ومضى النبي يدعو المسلمين إليه، واستطاع بالرجال القلائل الذين معه أن يعيدوا كفة المعركة إلى صالحهم ، وأمرهم بأن ينزلوا قريشا من القمة التى احتلوها فى الجبـل قائلا : ليس لهم أن يعلونا : فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها ، وانسحبوا ولم يكسبوا من المعركة شيئا » ، فالقائد موجود ولم ينقص منه إلا قطرات من دمه الذكى ، والعاصمة وهى المدينة سالمة ، والأرض لم يحتـل منها شبر واحد .

وخرج المسلمون من هذه الحروب بدروس مستفادة ، تفيدهم فى معاركهم المقبلة مع أعداء الحق وأعداء الحياة . وقد سجل القرآن الكريم بعض هذه الدروس فى قوله تعالى : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » .

ولقد كانت قاعدة الصراع بالسيف هى تلك الآية الكريمة « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فلم يكن الإسلام فى مجتمع عربى من سماته أن العربى حميـــة ونخوة ، له كرامة ومكانة وليس من عاداته قبول الخنوع والمذلة

والهوان ... أن يطلب من هؤلاء قبول المبدأ القائل « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » لأن خصائص العربي تؤهله للتلاقي مع المبدأ الإسلامي القائل برد الاعتداء بمثله على الأقل ، ذلك المبدأ المبني على الحرية والعزة والكرامة والجهاد في سبيل الله والتفاني في سبيل نصرة الرأي والعقيدة ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت اللازمة العربية للفرد العربي في حياته الصحراوية هي اعتماده على نفسه وقوة شكيمته في رد العدوان عن نفسه ، وقد أكد الشاعر العربي « زهير » ذلك بقوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ولا جدال في أنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى في الشجاعة النادرة والبطولة الفائقة ... فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ، يعرفون له الشجاعة المنقطعة النظير . وكان الشجعان والأبطال هم الذين يجدون من أنفسهم الجرأة على الوقوف بجانبه في ساحة الحرب ، لما يشاهدونه من شدة البأس وقوة صراعه ... فمن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : « كنا إذا احمر البأس نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الشجاع منا الذي يحاذي به » وعن علي كرم الله وجهه أنه قال : « كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق ، ولقي القوم القوم ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يول ظهره ولا مرة واحدة فرارا من أعدائه ، بل الثابت أنه ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة .

فقد وقف في غزوة « أحد » يدعو الفارين من أصحابه قائلا : « إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكر فله الجنــة » ، وفي هذا يقول الله تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم » ، أي يدعوكم في الجماعة المتأخرة الذين ثبتوا مكانهم ، وظلوا يدافعون عن النبي صلى الله عليه وسلم ... وأيضا في غزوة « حنين » بعد أن تفرق عنه المجاهدون من المسلمين ، ظل ثابتا لا يتزحزح أمام جيش كثير العدد ، كامل العدة .

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق ، قال رجل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ قال : ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ... إن هوزان : كانوا قوما رماه ، وإنا لما لقيناهم حملنا

عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم ، واستقبلونا بالسهام ... فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر، فلقد رأيته ، وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وأن أبا سفيان آخذ بلجامها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

والملاحظ أنه لا مكان للصراع المسلح فى الفلسفة الإسلامية الاجتماعية ، فإن دين الله الأسمى ينهى وبقوة الحرب العدوانية ، ولا يأذن بقتال إلا من أجل دفع عدوان مؤكد مضاد . وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وغزواتك يا سيدى يا رسول السلام ويا علم المجاهدين الأمجاد ، لم تكن إلا من قبيل « العمل الدفاعى » والإجراء الوقائى، الذى يحمى حرية العقيدة، ويحفظ للانسان المسلم إلى جانب حريته : كرامته وأمنه .

وهكذا لم يكن صراع بالسيف إلا عندما استشرى خطر الأعداء ، واستفحل ظلمهم لمن آمنوا بالرسالة ... فكان الإذن الربانى بالقتال ، صدا لخطر ماثل ... وكان مع الإذن الوعد بالنصر الحق ، حيث يقول الله تعالى فى كتابه الكريم « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . ولما وقع الصراع الفعلى بينه وبين المشركين ، كان الصراع النبيل ، صراع العقيدة السمحاء الفريدة ، التى سطعت لتحرر الإنسان من إسار الجهل والضلال والعبودية فى أبشع صورها ... صراع من أنزع فى الأفق مستهدفا إرساء المثل العليا ، فهو الصراع الذى لا تمليه عصبية ، ولا تحفز عليه عنصرية ولا تشوبه أية شائبة من نوازع دنيوية أو رغائب شخصية ... صراع جديد تماما ، يقول لمن أعمتهم الجهالة ، إن الحرية والكرامة والعزة أشرقت أنوارها فلا جدوى من أية محاولات يائسة لحجب إشعاعاتها يفكر فى شنها بعض عشاق الظلام هواة الضياع والهوان ممن لا يخلو منهم زمان أو مكان « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ولكم كان الذهول عنيفا ، والانهيار شديداً ، حينما تم النصر المبين ، وأسقط فى أيدى الذين حاولوا — ذات يوم — صد التيار فاكتسحهم التيار . فظنوا أن الانتقام رهيب — لا محالة — آت ، بعد إذ لم يعد لهم حول ولا قوة ، فوقفوا مرتعدين ينتظرون أن تحل بهم الكارثة ، التى يوقنون من الأعماق أنهم يستحقونها ... وإذا بك يا أشرف المرسلين تقول لهم بيساطتك الآسرة وبسماحتك الرفيعة الشامخة « اذهبوا

فأنتم الطلقاء » ... حقا ، ذلك هو فيض خلقك العظيم في صراعك الاجتماعي : القوة كل القوة (في ساحة الوغى) ومجالاته ... أما موطن العفو والرحمة فليس أقدر منك في بني الإنسان على نشر الرحمـــة ، وعلى إشاعة المودة ... ولله در الشاعر أحمد شوقي القائل :

فإذا رحمت فأنت أم أو أب　　هذان في الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فإنما هي غضبة　　في الحق لا ضغن ولا بغضاء

هذا ويحذر القرآن الكريم من الصراع بمعنى الاعتداء على الآخرين بقوله تعالى « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ونجد دعوة الإسلام إلى السلام باعتباره الأصل في علاقة المجتمعات بعضها البعض « وإن جنحوا للسلم فاجنح لهـا وتوكل على الله » ... وكذلك نجد في كتاب الله الموحى به إلى نبيه ورسوله الكريم آخر ما انتهى إليه الفـكر السياسي في فض المنازعات الدولية عن طريق التحكيم والمصالحة والقضاء بموجب الحق والقانون والاتفاقات الدولية . فإن أبى أحد الطرفين أن يمضي في اعتدائه لأخذ ما ليس من حقه ، فقد أصبح على الأسرة الدولية أن تتدخل لردع العدوان ، فإذا تم ردع المعتدى ، فقد وجب الفصل في النزاع على أساس من الحق والعدل، وفي هذا يقول القرآن الكريم « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وهكذا كانت أسس الصراع الإسلامي وشروطه وكيفية فضه وإقامة الصلح بين المتصارعين .

٥ ـ التمثيل عملية اجتماعية : Assimilation

أوضحنا من قبل الخطوات الثلاث التي يمكن الالتجـــوء إليها للتغلب على مساوىء الصراع الاجتماعي ، وتقوم الخطوة التالية منها على تحليل الخلافات بين كلا المتصارعين إلى عناصرها ، ثم تجمع هذه العناصر مرة أخرى في ترتيب جديد وبشكل جديد يجد فيه كل طرف ما يرضيه. ومن ثم ينتهي الأمر بسيادة التـكيف الاجتماعي بين المتصارعين ثم يلي عملية التمثيل Assimilation التي هي نتيجة مباشرة لوجود صراع ، ثم تـكيف اجتماعيين ، وبمقتضى عملية التمثيل تتلاشى الاختلافات وتتوحـــد مواقف الأفراد وتتحقق وحدتهم . ومعنى ذلك أن عدم التماثل بين الجماعات هو الذي يؤدى إلى

الصراع الاجتماعى ، وبالتماثل يختفى الصراع ، ومن ثم يقال « إنهم تجسدوا حياة ثقافية واحدة ، وهذا هو المقصود بمصطلح التمثيل أو التماثل .

هذا وقد يؤدى التكيف الذى يتحقق على أسس اجتماعية سليمة إلى تماثل شديد بين الأطراف المتنازعة وهنا يقال إنه قد حدثت عملية التمثيل أو الاستمثال الاجتماعى Assimilation ومن الأمثلة على ذلك الصراع بين الإدارة وممثلى العمال فى الشركات الصناعية أو التجارية . فالعمال يرغبون فى الحصول على أعلى الأجور فى ظل علاقات (شروط) عمل مريحة . والإدارة ترغب فى الحصول على أعلى إنتاجية من العمال ، بأقل تكلفة ممكنة ، فى الوقت الذى يحرص فيه طرفى النزاع على بقاء واستمرار ونمو الطرف الآخر . ومن ثم فإن هذا الحرص يدفع كل طرف إلى تفهم وجهات نظر الطرف الآخر ، وبهذا التفهم تتوقف عملية الصراع ، ويحدث التكيف الاجتماعى الذى يؤدى إلى سيادة العلاقات الطيبة بين طرفى النزاع . وهنا يقال إن عملية « التمثيل أو الاستمثال » قد تحققت

وقد عرف « بارك وبيرجس » عملية التمثيل الاجتماعى بصورتها هذه بأنها « عملية التخلل والانتشار التى يكتسب فيها أشخاص وجماعات معينة الذكريات والأحاسيس والمواقف الفكرية لأشخاص وجماعات آخرين من خلال المشاركة فى خبرات وتاريخ كل منهم ، مؤدية بذلك إلى نسق ثقافى شامل وجديد يضم جميع هؤلاء الأشخاص وتلك الجماعات[1] » . ومثال ذلك ما يحدث عندما يتزوج شاب نشأ فى إحدى قرى الصعيد بعيدا عن كل ألوان الحضارة والتحضر ... من فتاة من مدينة الإسكندرية مثلا ، حيث يبلغ التحضر أقصاه . ومن هنا فإن النسق الثقافى لكليهما مختلف عن الآخر . وطبقا لتقاليدنا الشرقية فإن مثل هذا الفتى ومثل تلك الفتاة يصطنع عند لقائه بالآخر — لا سيما فى فترة الخطبة — سلوكا مثاليا يستدر به رضاء الآخرين . وكلاهما يضمر فى نفسه رغبة مكبوتة قوامها السيطرة الكاملة على الطرف الآخر ، بحيث يقول كل منهم لأصدقائه عندما يكون بعيداً عن الطرف الآخر « سأجعله يسير على العجين دون أن يلخبطه » ومثل هذين عندما يتزوجا ، يبدأ زواجهما بالصراع بدلا من أن

---

(1) Park, R.E. and Burgess, E.W.: Introduction to the science of Sociology — 2 nd ed. University of Chicago press Chicago, 1924, pp. 735 — 736 .

يبدأ بتبادل مشاعر الحب فى أصفى صورها . وبذلك لا يتحقق النجاح لمثل هـذا الزواج ، دون أن يتنازل كل منهما للآخر عن بعض حقوقه وحرياته ، ودون أن يتقبل كل منهما بعض أنماط سلوك الآخر على أساس الإلتقاء فى منتصف الطريق . فإن فعلا ذلك ، فإن الاستمثال أو التمثيل الاجتماعى يكون قد تحقق بينهما .

هذا وإذا استبدلنا الزوجين فى المثال السابق بجماعتين من جنسيتين مختلفتين اضطرت إحداها الظروف الصعبة إلى الانتقال والمعيشة مع جماعة أخرى فى إقليم معين فإن بداية حياتهما ستكون صراعا بين ثقافة كل جماعة . ويستمر ذلك الصراع إلى أن يحدث نوع من التكيف ثم التمثيل الاجتماعى بين الجماعتين . وهذا التمثيل الاجتماعى ينتهى بعملية ثالثة يطلق عليها الاندماج أو المزج الجنسى Amalgamation وقد يطلق عليها خلط الأجناس Miscegenation وهى عملية تتميز بالبطء الشديد ، لحاجتها إلى الإقناع من أجل أن تتحقق ، ومن الضرورى أن تسبقها عملية التمثيل كما أوضحنا ذلك . ذلك أن عملية المزج الجنسى ، أى التمثيل البيولوجى ، تعنى الامتزاج الذوبانى البيولوجى لجماعات ذات سلالات عنصرية مختلفة من خلال عملية التزاوج المختلط ومما يجدر الإشارة إليه أن عملية التمثيل البيولوجى ليست ضرورة ملزمة لإجراء عملية التمثيل الاجتماعى ، وإن كان حدوثها هذا يعتبر مظهرا واضحا للدلالة على اكتمال هذه العملية الأخيرة .

وترتيبا على ذلك فإن الناتج النهائى لعملية « التمثيل » هو : إما اختفاء جماعة من الجماعات كوحدة ثقافية متميزة لاكتسابها المحتوى الكلى لثقافة الجماعة المضيفة . . . أو ظهور ثقافة ثالثة متميزة على إثر انصهار الثقافتين القادمة والمضيفة ، وفقدانهما لسماتهما الثقافيـة الأساسية . ومن هنا نطلق على الحالة الأولى اصطلاح التمثيل الاجتماعى الآحادى الاتجاه[1] . وعلى الحالة الثانيـة مصطلح التمثيل الاجتماعى الثنائى الاتجاه[2] ، أى أن الرغبة فى الاستمثال جاءت من طرفى النزاع فى وقت واحد[3] .

---

(1) Unilateral assimilation.
(2) Bilateral assimilation.
(3) Gordon, M M.: Assimilation in American life Oxford University press. N. Y., 1964, chapters 3 and 5.

نخلص من هذا إلى أن التمثيل أو التماثل كعملية اجتماعية ليس قاصرا على النواحى الثقافية ، وإنما يشمل سائر النواحى الاجتماعية فى المجتمع . ذلك أن الزوجة والزوج فى الشهور الأولى من حياتهما الزوجية يعانيان من عدم التماثل الاجتماعى ، فكلاهما فى الغالب قادم من بيئة اجتماعية مغايرة لبيئة الآخر . ومن هنا يبدأ الصراع الخفى بينهما، أى الصراع بين الأنماط السلوكية لكليهما . وكذلك بين القيم والمعايير الاجتماعية التى تحكم ألوان السلوك هذه ... وقد يتخلى ـ فيما بعد ـ كل منهما عن جزء من قيمه ومعاييره فى سبيل الالتقاء فى منتصف المسافة الاجتماعية مع الآخر . فإذا تحقق ذلك فمن المحتمل أن يتحقق التماثل الاجتماعى بينهما ثم التكيف الاجتماعى الذى ينتج عن التقارب بين النسق القيمى لكليهما . وبعد فترة يحدث اندماج لهذين النسقين القيميين بمعنى أن يتحولا معا إلى نسق قيمى واحد، يؤدى أى تكوين خلفية اجتماعية مشتركة وجديدة من القيم والمبادىء والمعايير الاجتماعية لكلا الزوجين بالصورة التى تتفق مع ميولهما وأمزجتهما . ويحدث ذلك إذا توافرت عناصر التوافق بين الزوجين . وفى حالة عدم توافر عناصر التوافق هذه ، فإن حدة الصراع تشتد بين الزوجين ، وقد ينتهى ـ فى الغالب ـ هذا الزواج بالفشل .

ولكى يعيد الرسول الكريم صياغة أهل الجزيرة العربية صياغة إسلامية ثقافية تتفق مع متطلبات المجتمع الجديد ابتكر وسيلة لتوفير عوامل التماثل لكى يتشربها كل من كان مواطنا فى المجتمع الإسلامى الأول . وهذه الوسيلة هى « المسجد » فالمترددون على المسجد يمكنهم ـ من سماع دروس الوعظ والإرشاد ـ أن يدركوا المعانى الإسلامية للعدل والخير والجمال . وما داموا قد أدركوا تلك المعانى فسوف يعملون على تطبيقها فيما يسند إليهم من وظائف رئيسية وأعمال عادية . ذلك أن المسلم بفضل معدنه النفيس وما تم تزويده به من فضائل سيكون مواطنا مثاليا كاملا ينشد حكمة الدين كلما أعوزته الحيل ، ويحكم بما يوحى به الدين كلما كان فى موقف يتطلب ذلك ، فتتحقق العدالة والمساواة وتختفى الشرور والموبقات .

ولقد اتجه تفكير النبى صلى الله عليه وسلم إلى التمثيل أو التماثل وضرورة توفير عناصره عند بداية تكوين المجتمع الإسلامى فى يثرب ، حيث وجد أمامه :

ـ المهاجرون وهم الذين فروا بدينهم من مكة إلى يثرب .

ـ الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان يثرب .

ـــ اليهود وهم بقية متباكسة من بنى إسرائيل .

وكانت هذه الطوائف باستثناء المهاجرين تتكون من جماعات متنابذة متشاحنة كما كان بعضها من عبدة الأصنام ، وبعضها من أتباع اليهودية ... الخ وكان الرسول الكريم يرمى إلى صهر هذه الجماعات فى بوتقة تحيلها إلى جماعة إسلامية جديدة عناصرها الأفراد بالخصائص الإسلامية المعروفة ... جماعة إسلامية جديدة تحل محل جماعات الأوس والخزرج ، بنى عبد مناف ، بنى أمية ، وبنى إسرائيل وغير ذلك . وتكون هذه الجماعة الإسلامية التى ينتمى إليها المسلمون من يثرب وغيرها أيا كانت قبائلهم وأيا كانت ديارهم ... فالمجتمع المتماثل هو المجتمع التى تسوده روح الإسلام ، ويتعاون أعضاؤه وجماعاته أيا كانت دياناتهم فيما يحقق الخير للمجتمع .

وكان السبيل إلى ذلك هو البحث عن منتدى أو ملتقى لا ينتمى إلى أى من الجماعات أو الطوائف السابقة، لكى يلتقى فيه أفراد الجماعة الإسلامية الجديدة . وكان هذا المنتدى هو « المسجد » فهو مؤسسة اجتماعية ابتكرها الإسلام لكى تكون بيتا لله وبيتا للجميع وبيتا للتشاور والقضاء ، وللتجارة ، ومدرسه ومعهد أو جامعة حيث يتاح فيه للأفراد الالتفاف حول النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكذلك حول العلماء من بعده لتعلم مبادىء الدين الإسلامى ومختلف العلوم .. كما كان المسجد يستخدم للسمر أيضا ... الخ وليس من شك فى أن الذين يجتمعون برسول الله ويحضرون الصلاة معه ، ويلتقون فى الجلسات التى يعقدها المعلم الأول والرسول الأمين ويتحلقون فيها حوله ، سواء أكانوا من المهاجرين الذين باعوا الدنيا ليفوزوا بالآخرة ، أو من الأنصار الذين رحبوا بهجرته وآثروا الوقوف إلى جانبه ، وتحدوا الظلم والقسوة والطغيان معه فى سبيل العقيدة السليمة ... ليس من شك فى أن هؤلاء جميعا كانوا يجتمعون برسول الله ، ويستمعون إليه وإلى خطبه ودروسه ونفوسهم مشدودة إلى هذه الاجتماعات ، وقلوبهم مفتحة إلى هذه الخطب والدروس ، وقد جاءوا بدافع من حبهم لها ، وبعد ما سمعوا عنها الكثير ، وبدافع من تطلعهم إلى الهداية والرشاد، لم تدفعهم إلى ذلك قوة ولم تغرهم وسيلة من وسائل الإغراء الكثيرة ليس من شك بعد هذا كله ، أن هؤلاء الذين حضروا على رسول الله دروسه ، واستمعوا إلى عظاته كانوا حريصين على أن ينشروا ما يسمعون وما يستوعبون ،

ويتحدثون به إلى كل من يتوسمون فيه الخير ... الأمر الذى أدى إلى انتشار الإسلام وإلى اتساع دائرة المسلمين .

وبذلك أصبح هذا المسجد بمثابة « المدرسة أو البوتقة » التى تعاد فيها صياغة الأفراد تمهيداً لإعادة تكوين أفراد الطوائف السابقة بصورة متماثلة ـ فى القيم والمبادىء والمعايير والعادات والتقاليد والأعراف ـ فى شكل جماعة جديدة تدين بالإسلام . وكان دستور هذه البوتقة مستمد من الآية الكريمة « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن هنا فقد ساعد المسجد على توجيه الطاقات الوجهة الرشيدة فى ظل الهداية الربانية ، وأعان على كسر القيد العائق ـ التعارض والصراع ـ لتقدم البشرية وازدهار حضارتها . وساعد على تحويل الحياة من حيث المفاهيم والمقاييس التى ينبغى أن يقوم عليها وجود البشر ، والمعايير التى توزن بها أقدارهم ... ومن ثم اندفعت البشرية اندفاعا هادرا ، تعتنق دين الله وتؤمن به وبنبيه ، بعد أن انكسرت شوكة المشركين أمام قوة رسالة الله التى كان لها أبداً النصر والفوز المبين . ويؤكد ذلك قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وهنا يبدأ طور جديد ـ كما يقول الدكتور محمد حسنين هيكل ـ من أطوار حياة محمد لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل . هنا يبدأ الطور السياسى الذى أبدى فيه محمد من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشا ، ثم تطاطىء الرأس إجلالا وإكباراً ... كان أكبر همه أن يصل إلى يثرب موطنه الجديد ، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز ، وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير فى بلاد اليمن ، فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر ، فكذلك كان يسميهما . وقد كان ما انصرف إليه تفكيره بطبيعة الحال هو تنظيم صفوف المسلمين ، وتوكيد وحدتهم ، والقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم ، ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين .

وقد توصل الرسول الكريم إلى وضع نظام سياسى محكم بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف ، كما أنه ربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار

أنهم أهل كتاب وموحدين . ولقد كان هذا الاتفاق من جانبه عليه الصلاة والسلام ، مع علمه بطبيعة اليهود وغدرهم ، أكبر دليل على أنه سياسى محنك وقائد أمة عظيم وربان سفينة ماهر يعرف أن اليهود لم يتمثلوا القيم والمبادىء والأنماط السلوكية الإسلامية . ولذلك كان منهم على حذر . وكذلك سار الرسول الكريم بين الناس وبين القبائل سيرة شعارها التواضع ، والعطف الجميل ، والوفاء الحسن ، والبر بالفقير والبائس والمحروم ... وقد أورثه كل ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، ماجعل الأمر يصل بينه وبين اليهود إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد .. معاهدة لمامن أولى الوثائق السياسية ذات القيمة التاريخية . وقد وضع هذه المعاهدة سجلا دستوريا يلزمه سكان المجتمع من مسلمين وغير مسلمين ، وحتى يعرف كل حقه والواجب عليه ويضاف إلى ذلك أنه كان يعمل فى ظل التوجيه الكريم « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ويبدو التمثيل الاجتماعى فى توجيهات الرسول الكريم المتصلة بالإعداد الروحى وضرورة الاتصال بالله سبحانه وتعالى والاطمئنان إلى وعده الكريم الذى لا يتخلف فهو القائل سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » والمعنى هنا إن تنصروه بالإيمان الصادق به سبحانه وتعالى ، وبطاعته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه والخشية منه ، ومراقبته فى السر وفى العلن ، فإذا فعلنا نحن جميعا ذلك إزددنا ترابطا وتماسكا من الناحية الاجتماعية والدينية .

ولقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم من حياته حياة عادية تشبه حياة أى مواطن عادى حتى لا تكون هناك فروق اجتماعية تقلل من درجة التماثل فى المجتمع ، فكان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرقع دلوه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ويقيم البيت ويعقل البعير ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته إلى السوق ... وفى مودته لأصحابه ومواطنيه كان لا يبارى ، حيث كان يعود مرضاهم ويواسى محتاجهم ويداعب صبيانهم ويعطف على بائسهم ... الخ .

ولم يكتف بذلك ، وإنما زيادة فى التماثل بينه وبين الناس ، وكان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ... فالرسالة الإلهية لم تأخذ به إلى حياة الأبراج أو القصور ، لكى يبقى صورة أسطورية خيالية لا تتحقق فى واقع الناس ، ولا يتمكن أحد من

الاقتداء بها . . . وإنما هو البحر الزاخر يأخذ كل منه بقدر طاقته « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

ولقد كان لكل ذلك تأثيره في الصحابة أجمعين . . . وهذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : إني لم أشبع من طعام منذ أربعين عاما ، وما زال التاريخ يعي الكثير من صور ورعه وتقواه ، أليس في صورته الشاحبة وجسده الذي كاد يبليه الجفاف في عام الرمادة شاهد على ورع الراعي الذي يخاف حساب الله ، فيأبى إلا أن يأكل ما يأكله الناس إن وجدوا طعاما ، فإن لم يجدوا شدوا على البطون واستسلموا لأنياب الجوع صابرين على البلاء، شامخين في هذا الابتلاء ، وأمير المؤمنين بينهم « أول من يجوع وآخر من يأكل » .

وكان يحث الناس على التوحد في الأفكار والاتجاهات والمبادىء ، ومن ثم دعا إلى نبذ التقاليد الآثمة والعادات الباغية ، والأخذ بمبادىء الأخلاق التي جاء بها القرآن الكريم فتغيرت شخصية العربي وسمت ذاتيته من بداوة وطيش وجهالة ومثل ضارة ضالة ، إلى حياة كلها الحضارة والفكر والثقافة ، وبصر نافذة ومثل أسمى وأكرم . وهذا هو تأثير العقيدة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف عند الحث على مكارم الأخلاق ورسم قواعد السلوك وتصور الإنسان الكامل لكي يتمايل الفرد مع الآخر ، وإنما امتد نشاطه من الفرد إلى المجتمع فوضع المبادىء والقوانين والنظم التي تحكم الإنسان باعتباره عضواً في جماعة فنظم الروابط الأسرية من زوجيه وأبوة وبنوة ، وحدد لكل فرد من أفراد الأسرة حقوقه وواجباته ، فالبشرية لم تعرف قبل الإسلام دعوة للوحدة الإنسانية كما دعا إليها القرآن الكريم . وكما طبقها بالفعل سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه في حياته ، وأصبحت شريعة إسلامية بعد وفاته . وفي هذا يقول القرآن الكريم « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » .

وهكذا قرر الإسلام الأصل المشترك لبني الإنسان ، ودعا إلى التراحم بين سائر

بنى الإنسان ، وقد انبنى على هذا الأصل المشترك ، المساواة فى الطبيعة الإنسانية فلا مجال للتعصب الجنس أو الاستعلاء فلا سبيل للتفاضل بين أفراد البشر إلا بالعمل الصالح وتقوى الله ... ويزيد الأمر وضوحا فى حجة الوداع بقوله صلى الله عليه وسلم :
« يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ... ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد »

وعلى كل هذه الأسس من الأصل المشترك إلى التماثل الثقافى الإسلامى انتقل إلى تنظيم علاقة الفرد بالمجتمع وماله من حقوق وما عليه من واجبات فى مساواة نسبية ، ثم ذهب إلى أبعد من ذلك فنظم علاقة المجتمعات ببعضها البعض فى حالتى الحرب والسلم .

٦ — التكيف الاجتماعى : Adaptation

التكيف هو توائم Adjustment الجماعات والأفراد ، كل مع الآخر ، بمعنى أن التكيف عملية اجتماعية مثل باقى العمليات الاجتماعية . وهذا التكيف قد يحدث أيضا داخل الفرد نفسه . ومع ذلك يتطلب التكيف فى المجتمع اتفاق الفريقين ، بحيث يضحى كل فريق بجزء من حريته أو من مصالحه فى سبيل الصالح العام والهدف المشترك وعملية التكيف الاجتماعى بهذه الصورة تحتاج إلى وقت طويل يتدرب فيه الأفراد على هذه التضحية ، حتى تتقارب أمزجتهم وآراؤهم وأفكارهم ... الخ .

وقد يكون التكيف سلبيا عندما تصبح درجة التكيف خاضعة لإرادة ورغبة الجماعة المسيطرة التى قد تكون جماعة أقلية مثل الجماعة الارستقراطية القديمة . وقد تكون جماعة الأغلبية مثل « أصحاب البشرة البيضاء » فى أمريكا ، حيث تبتلع داخل إطارها أى جماعة أخرى . وقد يكون التكيف إيجابيا إذا أدى إلى القضاء على الفتن والمشاحنات فى المجتمع .

وهذا يتحقق عندما يتوقف المتصارعون عند حد معين دون الاستمرار إلى آخر المدى . وبالتالى تحدث عملية تكيف اجتماعى بين القوى المتصارعة ، قد تتمثل فى إعادة توزيع السلطة والنفوذ ، أو فى إعادة توزيع الأهداف النادرة التى تسعى إلى

تحققها كل من هذه القوى . ومن هنا يمكن تعريف عملية التكيف الاجتماعى بأنها العملية الاجتماعية التى تنتهى فيها ظاهرة العزلة أو النزاع من خلال تأقلم الأطراف المتنازعة كل على الآخر ، أو من خلال اتفاقهم على وضع يقبله كل منهم كحل وسط للمشكلة موضوع النزاع ، وبذلك تصبح عملية التكيف الاجتماعى نقطة النهاية لعملية التنافس الإتلافى الذى تحول إلى صراع[1] .

ولقد وجد علماء الاجتماع صعوبات متعددة فى تعريف التكيف ، فمنهم من قال بأنه يعنى من الناحية اللغوية « تمكين الفرد من أن يتكامل اجتماعيا مع أفراد المجتمع » أى ما يؤدى إلى مساعدة الفرد على تحقيق النمو الفردى الاجتماعى السليم ، وعلى خلق الاتجاهات الاجتماعية البناءة فى كيانه ، وخلق الشعور بالمسئولية الاجتماعية . . . ومن الصعوبات التى واجهتهم أيضا ليس فقط تعريف مفهوم « التكيف الاجتماعى » وإنما أيضا مفهوم « سوء التكيف الاجتماعى » الذى يستخدم بكثرة فى علوم الاجتماع ، النفس الاجتماعى ، والتربية والبيولوجيا .

هذا والتكيف قد يكون فيزيقيا Accommodation وقد يكون اجتماعيا Adaptation والنوع الثانى هو الذى يدخل فى موضوعنا . ويقصد بالتكيف كعملية اجتماعية أن يتوافق الإنسان مع البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ويتشرب كل سنتها الاجتماعية بحيث يصبح قطعة منها وعنصرا منسجما مع عناصرها » .

هذا وتقوم الأسرة بتكييف الفرد « الطفل » على الانسجام مع البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ، على حين أن التكيف الفيزيقى وظيفته ترويض أعضاء الطفل وتكوينه الجسمانى على التوافق مع ظروف البيئة الجغرافية . وكما يفقد الإنسان القدرة على الرؤية — بصفة مؤقتة — عندما ينتقل فجأة من حجرة مضيئة إلى أخرى مظلمة ، إلى أن يتسع إنسان العين من شدة الإظلام فى المكان الجديد . . فإن الإنسان — أيضا — يفقد القدرة على التكيف الاجتماعى — بصفة مؤقتة — عندما ينتقل من بيئة اجتماعية ريفية أو متخلفة إلى أخرى حضرية . ويظل كذلك إلى أن يتغلب على المقاومة الداخلية والصراع العنيف بين تراثه الراسب فى تكوينه وفى شعوره ، وبين أوضاع البيئة الاجتماعية الجديدة بكل نظمها ومنظماتها وأفرادها وجماعاتها .

---

(1) Sellem, G., Purfey, P. H. and Gaughan, W.T.: Introduction to Sociology. Harper & Brothers. N. Y., 1958, p. 323.

والرسول الكريم من أجل توفير التكيف الاجتماعى السليم فى المجتمع الإسلامى تناول بأحاديثه العقيدة والإيمان الحق بالله ، كما تناول الضعف الإنسانى ، أمراض النفس ، العلم والدعوة إلى العلم والفقه ، الاقتصاد وقيمة المال وكسبه ، والحقوق الواجبة فى المال ، التماسك الاجتماعى والحرية ، العدالة والعدل فى الحكم والقضاء ، وبين الزوجات والأولاد ، العمل ، التشريع ، الحكم ، الجهاد ، الروابط الأدبية والإخاء والكرامة والوفاء والتعاون وضبط النفس وإصلاح ذات البين ... تناول كل هذه الأمور لكى تكون واضحة لكل أفراد المجتمع ، وبصورة تجعل علاقاتهم ومعاملاتهم خالية من كل عناصر الخلاف فيتحقق التكيف الاجتماعى السليم بينهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى » .

والتكيف الاجتماعى بالمعنى الإسلامى ليس قاصراً على المسلمين فى المجتمع ، وإنما يشمل المسلمين وغيرهم ، فقد روى أن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت على أمى — وكان أبو بكر قد طلقها فى الجاهلية فهى مشتركة — بهدية من سمن وزبيب وقرظ ، فأبيت أن أدخلها إلى بيتى ، وأن أقبل هديتهـا ، وأرسلت إلى أختى عائشة لتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتدخلها ، ولتقبل هديتها ... وقد أنزل الله سبحانه وتعالى قوله « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ولما كان البر والقسط من أهم عوامل التكيف الاجتماعى ، فلم يشأ نبى الرحمة أن يحرم المجتمع الإسلامى من فائدة مثل تلك العوامل وبالتالى لم يحرم الأم المشركة من عطف إبنتها المسلمة .

ومما تجدر الإشارة إليه قيام المجتمع الإسلامى على أساس الحرية الدينية ، والحرية أيضا من أهم عوامل التكيف الاجتماعى . وفى هذا يقول القرآن الكريم « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ودعوة الإسلام إلى الحرية لم تكن دعوة نظرية ، وإنما كانت دعوة تطبيقية عملية ، حيث عايش الإسلام النصرانية واليهودية والزرادشتيه فى فارس . وهذا التعايش يصل ذورته عندما ترى الإسلام يبيح للمسلم أن يتزوج بكتابية من غير دينه ، ويصبح لزاما عليه أن يصاحب زوجته إلى الكنيسة كلما رغبت فى الذهاب

إليها . فإذا علمنا أن الدين كان هو حياة كل البشر أدركنا ما وصل إليه الإسلام من احترام حرية الإنسان ومعتقداته . وإذا كان حق الحياة والحرية والتكافل الاجتماعى هى من حقوق الإنسان ، فإن هذه الحقوق لا يمكن أن تصان إلا من خلال حكم صالح والحكم الصالح له أساس يقوم عليه ومنهاج يعمل من خلاله. أما الأساس فهو العدل، وأما المنهاج فهو الشورى . ويأمر الله سيدنا محمدا أن يشاور أصحابه ليكون قدوة فى ذلك فيقول له : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » ويضاعف من خطورة هذا التكليف لسيدنا محمد فى أن يشاور ، أنه بعد غزوة « أحد » التى انهزم فيها المسلمون نتيجة مخالفتهم لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء القرآن وطلب من الرسول أن يعفو عنهم ويستغفر لخطئهم ولا يكف عن استشارتهم ولا يكتفى بجعل التشاور منهاجا للحكم والحكام ، بل إنه ليفرضه على الفرد العادى مع أسرته فى بعض الظروف « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » والأسرة التى تقوم حياتها على التشاور تكون حياتها الاجتماعية أكثر تكيف والعكس صحيح .

ومن سمات التكيف الاجتماعى فى الرسالة المحمدية أن الرسول الكريم ذاته كان واحد ممن بعث إليهم ، فالقرآن يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» ، ولذلك كانت رحمته بالمؤمنين جميعا وكان حرصه على خير قومه خلقا من أخلاقه ، حيث جمع الله فيه ما تفرق من الفضائل فى الأنبياء قبله ، فكان المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة . ولهذا أمر الله باتباعه فى كل ما يصدر عنه بقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

ولما كان التكيف الاجتماعى من عوامل التقارب والتماسك بين الناس فى المجتمع ، فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا فى كل إجاباته على تأكيد العوامل التى تؤدى إلى التكيف الاجتماعى . فقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الشؤم فقال: سوء الخلق وسئل عن اليمن فقال : حسن الخلق وأضاف صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا » . وقال أيضا : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » ولا ريب أن الأخلاق الكريمة تساعد على تدعيم مظاهر التكيف الاجتماعى فى المجتمع .

ولكي يتكيف الإنسان مع مجتمعه ومع دينه اجتماعيا رفض الرسول الكريم الرهبانية في الدين ، كما رفض الجشع والتكالب على الدنيا أو الزهد فيها . فقد أقام مجتمعه على العدل ودعمه بالرحمة فسعدت الإنسانية بذلك المجتمع الذي كان شعاره « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

فالتكيف الاجتماعي يحتاج إلى التماثل المتكامل بين أفراد المجتمع وذلك أساس الاعتدال والاتزان في المجتمع ، وبه النجاة في الدنيا والآخرة تلبية لقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقد دعم صلى الله عليه وسلم كل ذلك بالدعوة إلى الاتحاد « واعتصموا بحبل الله جميعا » وكانت أحاديثه تدعو إلى تدعيم هذا الاتحاد بقوله صلى الله عليه وسلم . « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله » فمن ضرورات التكيف الاجتماعي تقرير مبدأ المساواة بين الناس غنيهم وفقيرهم ، عظيمهم وصغيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فالناس جميعا سواء ، فكلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذلك حرر الرسول الكريم العقول من القيود والعقائد الزائفة ، وحرر النفوس من شوائب التربية الهزلية الناقصة والتقاليد البغيضة الساقطة . كما حرر النفوس من الاستعباد والذل ، ودعا إلى القوة لصيانة مختلف الحريات .

وقد وصفه الخالق بالتواضع رجعل رسالته رحمة للعالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وكانت توجيهات الله إليه صلى الله عليه وسلم أن يكون متواضعا مع الناس ليلتفوا حوله ويحملوا أعباء دعوته . ومن تلك التوجيهات قوله سبحانه وتعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » وكذلك توجيهه السماوي « واخفض جناحك للمؤمنين » وخفض الجناح هنا يقصد به أن يكون صلى الله عليه وسلم القدوة السامية والمثل الأعلى في التواضع والرحمة أمرا وفعلا ، وأن ينهى عن القسوة حتى مع الحيوانات ... وكان في أمره ونهيه يعطي الصورة الرائعة لتعاليم الإسلام وأحكامه في ذلك يضرب الأمثلة للناس لعلهم يعقلون ... ومن هنا فإنه في تواضعه ورحمته استجابة لأوامر الله ، إنما كان يستأصل شأفة القسوة والفظاظة والغلظة من النفوس

لزيادة التكيف الاجتماعى بين الناس لكى يعيشوا فى أمن واطمئنان ، ذلك لأن التواضع والرحمة يبعثان على الراحة والسكينة .

والرحمة باعتبارها من أهم عوامل التكيف الاجتماعى تقتضى العفو والحلم والصبر وعفو الرسول وحلمه وصفحه أمثلة رائعة فى الذروة ، من اقتدى بها اهتدى وسلك الطريق المستقيم . هذا ويروى سفيان بن عيينة أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما نزل قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال جبريل : لا أدرى يا رسول الله ، حتى أسأل ربى .

وعندما عاد جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « يا محمد أن ربك يأمرك أن أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » وهكذا كانت الدعوة الإسلامية تنفر من كل ما يؤدى إلى التباغض والكراهية ، والحقد والصراع الهدام وتدعو إلى الترابط والتماسك والعطاء ، وما إلى ذلك من العوامل التى تؤدى إلى زيادة التكيف الاجتماعى بين الناس فى المجتمع .

٧ – عملية الاتصال Communication :

لا ريب من أن الاتصال كشكل من أشكال التفاعل الاجتماعى الأساسية يدخل فى نطاق العمليات الاجتماعية الأساسية[١] ، حيث يستحيل منهم تلك الحياة دون الوقوف على جوانب العملية الاتصالية ، التى لا تشتمل فقط على اللغة أو اللهجة التى يتحدث بها الناس Articulate language وإنما تشتمل – أيضا – على التلميحات والتعبيرات بمختلف ملامح الوجه والإشارات بالأيدى أو الأصابع أو بهز الرأس ، تلك التى تقوم فى كثير من الأحيـــان بتوصيل المعانى فى العملية الاتصالية بشكل أكثر دقة من الكلمات نفسها[٢] .

---

(1) The predominant forms the interaction takes may dé summarized under Five Categories :

1 — Communication ; 2 — Competition : 3 — Conflict. 4 — accommodation, and 5 — assimiltion. These forms must not be taken as mutually exclusive; on the Contrary, They are all iandep interdependend and ar present in all human relationships.

(2) Abraham, J. H.: Sociology. The English univerities press, London, 1966. p. 107.

هذا ولعملية الاتصال وظيفتان ، إحداها تؤدى إلى التفكك الاجتماعى، والأخرى تؤدى إلى التماسك الاجتماعى . ويمكننا التسليم -جدلا- بالوظيفة الثانية وهى أن عملية الاتصال تؤدى إلى التماسك والتكامل ، فإن الحقيقة الأساسية literalty true هى أن الناس فى المجتمع يتحدثون بأكثر من لغة وأكثر من لهجة . ويبدو ذلك واضحا عندما تكون الفروق الفردية فى المجتمع حادة وغير متدرجة Stratified ولا توجد وسائل للتواصل بين إقليم Segment وآخر ، أو أن لغة التخاطب spoken فى إقليم ما لا تكون مفهومة بنفس المستوى فى إقليم آخر ، وليست كذلك فى الإقليم الأخرى بيد أن الوظيفة التفكيكية لعملية التواصل تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٦ - الحجرات) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفيلسوف الصينى (كونفو شيوس) لاحظ أن المشكلات السياسية فى عهده كانت ترجع إلى سوء فهم الكلمات والمعانى ، بالإضافة إلى جانب آخر أكثر شؤما sinister وهو التشويه Distortion المتعمد للكلمات عن طريق جرأة رجال السياسة ، والمتخصصين فى الدعاية ، وكذلك المتخصصين فى إعداد التمثيليات والتمليقات والمسرحيات والبرامج وكل ما يعرض فى وسائل الاتصال الجمعى من صحافة وإذاعة وتليفزيون لإعطائها معان جديدة للتأثير فى سلوك الجماعات ، ولإشاعة العداوة Hostility وكذلك البغضاء Strife بين الجماعات والشعوب .

تلك هى العمليات الاجتماعية من وجهة نظر علم الاجتماع الإسلامى وفى ضوء الدعوة إلى إقامة مجتمع إسلامى متماسك ومترابط .

الفصل الخامس

الوقائع والظواهر الاجتماعية

تختلف الظاهرة الاجتماعية phenomenon عن الواقعة الاجتماعية Social fait ذلك أن الأولى جماعية والثانية فردية ، ولكى نوضح ذلك فإن واقعة الزواج - أو - واقعة الطلاق وما إلى ذلك هى أعمال فردية ، بينما وقائع الزواج التى تحدث فى المجتمع تعبر عن ظاهرة اجتماعية .

وكان أول من تناول الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية لم يسبقه إليها أحد، بالرغم من أن أفلاطون وارسطو والفارابى قد تناولوا بعض الظواهر الاجتماعية - ولكن باعتبار ما ينبغى أن يكون - هو الفيلسوف المسلم عبد الرحمن بن خلدون . ذلك أن ابن خلدون قد تناولها باعتبار ما هو واقع من أجل الكشف عن العلاقات التى تربط بينها وبين القوانين التى تحكمها ، على اعتبار أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير حسب قوانين لا تقل فى ثباتها واطرادها من القوانين التى تخضع لها ظواهر الفلك والطبيعة. وأضاف ابن خلدون أن الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع هو الوصول إلى معرفة القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية(١) .

وقد عرف ابن خلدون الظاهرة الاجتماعية بأنها عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التى تتخذ فى مجتمع ما أساسا لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقات التى تربط بين أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض ، وتربطهم بغيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى ... ومن هذه الظواهر ما يتعلق بشئون الدين والسياسة والتربية والتعليم والاقتصاد ، ونظم إنتاج وتداول الثروات ، النقود ، الأسرة ، نظم الزواج والطلاق والقرابة والمواريث وما إلى ذلك(٢) .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : التفكير الاجتماعى ، نشأته وتطوره . مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٤ صفحة ١٠٢ .

(٢) دكتور زيدان عبد الباقى : ركائز علم الاجتماع . مكتبة دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٤ صفحة ٢٢ .

وفيما يلي سوف نتناول بعض هذه الظواهر بالدراسة والمناقشة :

— لكل مجتمع دين معين ، ذلك أن الإنسان — منذ كان — له دين ، حتى أنه يوصف بأنه « حيوان متدين » وهذا التدين يتحول في المجتمع إلى نظام خاص للتدين ، فهناك مجتمعات تتخذ آلهتها من بعض مظاهر الطبيعة أو من بعض الطيور أو من بعض الأحداث . وهناك مجتمعات تتخذ آلهة معنوية روحية ، كما هو الحال في مجتمعات منطقة الشرق الأوسط وغيرها في الوقت الحالي . وهناك بعض المجتمعات التي تتخذ أكثر من إله ، كأن يكون لها إله للخير وآخر للشر ، وما إلى ذلك . وهناك مجتمعات تنكر وجود الله مثل المجتمع السوفيتي والصين وبقية المجتمعات الشيوعية . ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المجتمعات يلتزم أفرادها بقواعد الدين بصورة تكاد تكون واحدة ، مثل المجتمعات التي كانت مهبطا للأديان ، والتي توجد بها بعض الآثار المقدسة مثل المملكة العربية السعودية وبيت المقدس وروما وما إلى ذلك ومن هنا فإن الدين بهذه الصورة يشكل ظاهرة اجتماعية لها أهميتها في المجتمع .

والدين من الناحيه اللفظية — كما يرى بعض علماء الأديان — وعلى رأسهم العلامة « جيبو »[1] عبارة عن مصطلح مشتق من الفعل اللاتيني Religare ومعناه : يجمع أو يربط . واستناداً إلى هذا الرأى أكد العلامة « دى لاجراسرى »[٢] أن الدين هو ارتباط جماعة إنسانية بإله أو آلهة معينين ، أى أن الديانة تجمع بين الأموات والأحياء من معتنق الديانة من جانب وبين الإله من جانب آخر في مجتمع واحد يعتبر جزءاً لا ينفصل عن الكون الطبيعي والوجود الحيوي . ومعنى ذلك أن الآلهة عبارة عن كائنات حية ترتبط مع متعبديها بنوع ما من العلاقات الطيبة أو السيئة أو ما بينهما من درجات . ومن أمثلة هذه الآلهة ، تلك الآلهة أو الأبطال الذين تصورهم أساطير اليونان ، لاسيما هؤلاء الذين روت أساطيرهم « الإلياذة والأوديسا » . ولولا ارتباط هذا الفهم بالميثولوجيا الأسطورية التي تربط بين البشر والآلهة ، لكان معنى الاشتقاق السالف الذكر هو « ارتباط جماعة من الناس واشتراكهم في عقيدة واحدة وطقوس وعبادات متجانسة » هو أفضل المعاني لمفهوم الدين .

ويرى البعض الآخر ، ومن بين هؤلاء «جيفونز» Jevons وروجيه باستيد»[٣]

(1) Guyau, A.: Irreligion de L'Avenir.

(2) De la Grasserie, R.: De la Psychologie, de Religions compares au point vue Sociologique, Pario, 1899.

(3) Bastide, R.: Elements de Sociologie Religieuse, peris, 1942.

أن اصطلاح « دين » يرجع إلى الفعل اللاتيني Religere ومعناه العبادة المصحوبة بالرهبة والخشية والاحترام . وهذا المعنى لمفهوم الدين يمكن أن ينطبق على الأديان السماوية باعتبارها أرقى وأكمل الأديان ، ولا يكاد ينطبق على بعض الأديان الأرضية التي لاتلزم اتباعها من الناس بالخشية والرهبة أمام آلهتهم، لاسيما في حالات التجارب الاجتماعية الفاشلة .

ومعنى الدين لغـة يعني دانه يدينه ، أي ملـكه أو حكمه ، أو ساسه ودبره ، أو قهره وحاسبه ، أو جازاه وكافأه . وعبارة « يوم الدين » على سبيل المثال معناها يوم الحساب والجزاء ، ويقال دان فلان لفـلان ، بمعنى خضع له وخشع أمامه وأطاعه ... ودان فلان بكذا على معنى اعتقده واعتاده واتخذه مذهبا له . أي أن التعريف اللغوي للدين يتفق مع رأي الفريق الثاني الذين أرجعوا اشتقاق لفظه «الدين» إلى الفعل اللاتيني Religere وهكذا يتلاقى معنى الدين في الاصطلاح العلمي وفي اللغة على التزام ما شرعه الله من أحـكام ، مع اليقين بأنه كما قال تعـالى : « ألا له الخلق والأمر » .

هذا والعاطفة الدينية موجودة لدى الانسان ، ولـكنها لاتتبلور وتتحقق إلا اذا تجسدت في هيئة دينيـة اعتنقها جمهرة أو جماعة انسانية تشترك كلها في الأخـذ والتسليم بمقتضيات الفكرة أو العقيدة الدينيـة والتزمت بمراعاة طقوسها ومراسيمها ، وقامت بموجبات عباداتها ، أي ان العاطفة الدينية عاطفة انسانية قبل أن تكون عاطفة اجتماعية . وأن الترابط بين الناس في المجال المقدس هو ترابط اجتماعي ، وهو الذي يشكل جوهر النظام الديني . ومعنى ذلك أن تشابه العقائد والطقوس والعبادات بين جماعة وجماعة أخرى يؤكد وجـود تشابه في التركيب الاجتماعي وفي التماثل والتكيف الثقافي ، فضلا عن الامتزاج والتماثل الروحي والتعبدي والعقائدي . وكل ذلك يؤكد وجود التكامل بين الجانب المادي والجانب الروحي في محتوى الدين .

ومما تجـدر الاشارة اليه أن الدين ظاهرة اجتماعية لايخلو منها أي مجتمـع من المجتمعات دون أي تلازم بين الدين وبين فـكرة الألوهية . فقد توجـد من بـين المجتمعات من لاتدين بفكرة الألوهية ومـع ذلك يستحيل القول بلا دينية هـذه المجتمعات .

بيد أن بعض كتاب القرن الثامن عشر من الذين مهدوا للثورة الفرنسية زعموا

بأن الديانات ليست إلا نظما مستحدثه وأفكار طارئة . وهـذه النظرة تعتبر ترديدا لوجهة نظر الشكاك الذين خيل اليهم أن الانسان كان فى أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ولا وازع من خلق ، وأنه لم يكن يخضـع إلا للقوة الباطشة . وإنعكست هـذه الآراء لدى بعض الفلاسفة أمثال جان جاك روسو الذى قال بأن الأقـوام المتأخرين لا دين لهم ... استنادا الى حالة الفطرة التى إفترضها والتى عاش فيهـا الانسان ـ كما يتوهم « روسو » معيشة الحيوان ، عاش بمفرده ـ رجلا كان أو إمرأه يسعى وراء إشباع غرائزه المختلفة فحسب ... وكذلك « فولتير » الذى أكد أن الانسانية ، عاشت قرونا متتابعة فى حياة مادية خالصه قوامها الفنون الجميلة والتشكيلية مثل النحت والتصوير والموسيقى والبناء قبل أن يهتدى الى فكرة الدين .

وبالنسبة لحقيقة أو الفكرة الإله ، فقد بالغوا فى اتجاههم هذا وقالو بأنها فـكرة مخترعة بواسطة بعض رجل الدين ومن أجل مصلحتهم الخاصة . وربطوا بين هـذا الرأى وبين اتجاه الساسة والحكام إلى منافسة رجال الدين فى استخدام الدين كوسيلة لإخضاع السواد الأعظم من العامة لمشيئتهم وتسخيرهم واستغلالهم على النحو الذى يحقق أهدافهم . ومن جهة أخرى فقد شبهوا بين الدين والقانون ، فقد كان « جان جاك روسو » يرى أن الدين ليس إلا قوة تحكمية وضعت لخدمة الفئة التى إغتصبت حقوق الفئات المغلوبة على أمرها . فقد كان القانون الذى يحكمهم هو قانون الغابات ، حيث كانت الامتيازات للأقـوى ولا حقوق للضعفاء . ثم كان أن وضعت القـوانين فاختفت مظاهر الفوضى الاجتماعية . وكان اختفاؤها فى الظاهر فقط خوفا من العقوبة ، حيث إستمرت المجتمعات فى ارتكاب مختلف الجرائم ، وما هو أقل منها من مخالفات فى الخفاء وفى ظروف لاتقع تحت طائلة القانون .

وهكذا لم تكن الديانات والقوانين من وجهة نظر هؤلاء فى تصويرهم الفلسفى لها إلا ضروبا من السياسة والـكياسة التى تهدف إلى عـلاج أمراض المجتمع بـكل وسيلة ميسورة ، وإن لم ينكروا وجود الدين كحقيقة اجتماعية ثابته ، أى أنهم شككوا فقط فى قدم نشأة الدين .

غير أنه لاريب فى قدم نشأة الدين ، ولا ريب فى قدم فـكرة التدين ، حيث لم تخل منه جماعة من الجماعات فى مختلف مراحل الانسانية بمختلف مراحلها الحضارية فقد أكدت الدراسات الميدانية أن المجتمعات البدائية المتخلفة فى كافة الحضارات

لها ديانات مرسومة ومحدده ولها أركانها وعقائدها وطقوسها،مع اختلاف الظواهر الدينية فى الشكل وليس فى النوع . وقد تختلف فى المجتمع الواحد باختلاف العصور . ولكن ليس هناك مايبرر أو يثبت أن فكرة الدين قد تأخرت فى دورها عن نشأة المجتمعات فى مختلف أشكالها من العشير الى العشيرة الى القبيلة ... الى المجتمع الدولى الحديث ذلك لأن الدين مظهر هام من مظاهر الاجتماع . وبحكم أنه ظاهرة جماعية فهو شىء عام لايخلو منه مجتمع ما ، لأنه من ضرورات الفطرة الاجتماعية(١). وهذا يشبه أعضاء الجسم الحى المختلفة فهى ضمن الحيوية للانسان . وقد أكدت ذلك أبحاث « دوركايم وليفى بريل » فى فرنسا و « فريزر » فى انجلترا ، وغيرهم ، على أساس أن الدين قائم فى سائر المجتمعات المختلفة أو المتأخرة المعاصرة ، وهو أهم الظواهر الاجتماعية على الإطلاق ، لأنه يؤثر فيها ويلونها بلونه ، فالحياة الاقتصادية والحياة السياسية والفنون الجمالية ونظام الأسرة ... الخ ، كلها وغيرها تتأثر بالدين باعتبارها صورا للحياة الاجتماعية ، بل إن العقلية المتأخرة — كما سنرى — غارقة فى الاتجاه الدينى والخضوع لسيطرته (٢) .

إن آراء هؤلاء العلماء صحيحة لقيامها على الاستقراء العلمى ، والملاحظة العلمية لأعضاء البعثات العلمية فى المجتمعات المختلفه ذاتها . حيث تأكدوا بالاسلوب العلمى من أن الاعتقاد بدين من الأديان من الأمور الغريزية المشتركة بين عامة الناس فى كل عصر وفى كل مكان، بمعنى أنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما وأكدت أيضا الدراسات التاريخية تلك النتيجة ، حيث وجدت فى الماضى السحيق جماعات بغير فلسفات ومن غير علوم وفنون ، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين .

وخلاصة القول إنه لاينبغى وجود الاديان أن بعض فئات المجتمعات قد استغلت ولا تزال — الأديان كقوى محركة وموجهة ومؤثرة فى الكيان الاجتماعى والنشاط الجماعى لتلك المجتمعات .

---

(١) الاستاذ الدكتور عبد العزيز عزت : أهم نظم الجماعات المتأخرة . الطبعة الأولى ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ١٩٥٦ صفحة ١٥ .

(2) Durkeim, E : L'Anaeé Sociologique. V. 1 pp. 2 — 3.

هذا وسوف نتناول ـ فيما بعد ـ بالتفصيل كافة النظريات التى تناولت نشأة الدين بمختلف اشكاله ومختلف آلهته .

ـ بالرغم من أن نظرية السيادة تقضى « بأن السيادة من طبيعتها ألا تفشى حق إنسان على شعب ، وانمـــا تترجم عن حق شعب على نفسه ، على اساس أن السيادة لاتقوم على الملـكية الشخصية ، وانما هى ظاهرة جمعية » ومن ثم فإن هـذه النظرية التى صاغها العلامة Vattel فى منتصف القرن الثامن عشر تنـكر حق ملـكية السيادة ، وهو حق قديم إكتسبه الملوك كما إكتسبوا حق ملـكية الاقطاعيات الزراعية (١) . غير أن السيادة أو السلطة كضرورة اجتماعية ـ بالرغم من كل ذلك ـ تحولت الى نظام سياسى ، أى « القواعد التى يخضع لهـــا المجتمع فى تنظيم شئون حكومته ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى سواء من ناحية شكل الحكومة ، وأسس الحكم أو تقسيم السلطات وشئون التمثيل الداخلى والخارجى وعلاقة الفرد بالهيئة أو السلطة صاحبة السيادة » . وهذا النظام يسود كل المجتمعات ، وإن كان يختلف فى الشكل . وعلى سبيل المثال فإن النظام السياسى فى مصر جمهورى وفى المملـكة العربية السعودية والمملـكة المتحدة ملـكى ، وفى إيران إمبراطورى ، وفى الـكويت أميرى ، وفى الفاتيكان يخضع للزعامة الروحية ، وفى ليبيا يخضع لمجلس قيادة عسكرى ... الخ ومن بين ممثـلى السلطة هؤلاء ممن يجلسون على قمة النظام السياسى نجد بعضهم ديمقراطى أو مستبد أو بين حدى المدى هذين ... والنظام السياسى بهذه الصورة عبارة عن ظاهرة اجتماعية .

ـ هذا وتتباين المجتمعات من حيث نظمها الاقتصادية ، فإذا كان النظام الاقتصادى يتشكل من القواعد التى يسير عليها المجتمع فى تنظيم شئون إنتاجه وتبادل وتوزيع ثرواته واستهلاك منتجاته وتشريعاته المالية ... الخ فإن هذا النظام يختلف فى الدول الرأسمالية عنه فى الدول الاشتراكية . ففى الدول الرأسمالية يحكم النظام الاقتصادى قاعدة العرض والطلب ، وتشجيع الملـكية الفردية فى ظل نظام الضرائب التصاعدية .. وفى الدول الاشتراكية يخضع النظام الاقتصـــادى للتأميم والتخطيط الموجه من الحـكومة ... وفى الدول الآخذة فى النمو يخضع النظام الاقتصادى لسياسة الحماية

---

(١) الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب : النظريات والمذاهب السياسية ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان العربى ـ القاهرة ١٩٥٨ صفحة ٢٣٢ .

الجمركية بجوار بعض مظاهر التخطيط . وإذا كان نظام الحماية الجمركية ضرورى لحماية الصناعات الوطنية الناشئة فى البداية ، فإن هذه الصناعات لا يستطيع فى النهاية الاستغناء عن تلك الحماية الجمركية الأمر الذى يضاعف الأعباء على المستهلك ، وعلى سبيل المثال ، فإن الشركة التى تنتج السيارات المرسيدس يبيع الواحدة منها بمبلغ أربعة آلاف جنيه مصرى ، على حين أن مجرد سماح الجمارك المصرية لهذه السيارة بالدخول إلى مصر يحتاج إلى ٢٠٠٪ جمارك ، أى حوالى ثمانين آلاف جنيه مصرى . وهكذا فإن الذين ابتكروا وصنعوا السيارة يحصلون على نصف ما يحصل عليه الذين يفتحون لهذه السيارة الباب لكى تدخل إلى الأرض المصرية ... وكل ذلك — بكل أسف — على رأس المستهلك المصرى تحت زعم حماية الصناعات المحلية ، وهـــذا مثال من أمثلة كثيرة ... أما النظام الاقتصادى فى الدول المتخلفة فإنه لا توجد قواعد ثابتة تحكمه. وقد يرجع هذا إلى عوامل جغرافية أو مناخية أو ما ينطوى عليه المجتمع من ثروات طبيعية ، وقد يرجع إلى عوامل سياسية . والنظام الاقتصادى بهـذه الصورة هو — أيضا — ظاهرة اجتماعية .

— وتختلف المجتمعات — أيضا — فى نظمها القضائية ، وفى تشكيلها لقواعد المسئولية فإذا كان النظام القضائى يقصد به « تلك القواعد التى يلتزمها المجتمع فى تحديد معاملات الأفراد بعضهم مع البعض الآخر فى الأمور المدنية والتجارية ، وفى توقيع الجزاءات وتفسير المسئوليات مما يعبر عن نظامه القضائى والتشريعى » ومثل هذا النظام يتطلب وجود محاكم وطنية للفصل فى القضايا المدنية والجنائية والتجارية ، وبعض حالات الأحوال الشخصية . وبجوار المحاكم الوطنية توجد المحاكم الشعبية « مجالس الصلح » التى تتألف من بعض كبار السن من ذوى الحيثية . وهذه المجالس لا توجد إلا فى المناطق المنعزلة مثل الواحات ... والنائية مثل المناطق المتطرفة . وكان فى مصر نوعان من المحاكم — بجوار المحاكم الوطنية — وهما المحاكم الشرعية لقضايا الأحوال الإسلامية ، والمحاكم الملية لقضايا الأحوال الشخصية المتعلقة بالطوائف غير الإسلامية ... غير أنه رئى توحيد القضاء ، مع السماح للمحامين الشرعيين والمليين بالترافع أمام المحاكم الوطنية ... ومثل هـذا النظام يعتمد بصفة أساسية على نظام آخر للشرطة ... والنظام القضائى بهذه الصورة عبارة عن ظاهرة اجتماعية .

— وتتباين النظم التربوية من مجتمع إلى آخر ، فالنظام التربوى يقصد به « أساليب

ومناهج إعداد الفرد وتنشئته تنشئة إجتماعية ليتمثل نظم المجتمع ويتكيف وفق أساليبه فى التفكير والعمل والنواحى التربوية الوضعية التى تتجه بالنظم التعليمية نحو تحقيق أهداف المجتمع ومطالبه فى الحياة العملية والعلمية » ومثل هذا النظام يخضع فى تشكيله لما يسود المجتمع من قيم ومبادىء وعادات وأعراف وتقاليد مستمدة من الدين ومن التراث الاجتماعى . ومن ثم تختلف الثقافة المترتبة على كل نظام من هذه النظم التربوية . وقد يوجد فى المجتمع الواحد نظام تربوى واحد ولكنه يختلف فى مضمونه . وعلى سبيل المثال فإن النظام التربوى فى مصر يطبق بشكل يعتمد على الدين فى مدارس ومعاهد وجامعات الأزهر ، بينما يقل الاهتمام بالتربية الدينية فى مدارس وزارة التعليم وفى معاهد وكليات وجامعات وزارة التعليم العالى . وبجوار هذا كله توجد مدارس كانت خاضعة لنظم التعليم فى بعض الدول الأجنبية ... وقد تم تطويرها للتنسيق بينها وبين المدارس الخاضعة لنظام التعليم المصرى ، وإن كانت لا تزال كل كل منها تهتم باللغة السائدة فى الدولة التى كانت قد أنشأتها من قبل ، مثل اهتمام « مدارس ليسيه الحرية » باللغة الفرنسية ، ومدارس « كلية النصر فكتوريا سابقا » باللغة الانجليزية ... الخ كما أنشئت أيضا بعض المدارس النوعية ، مثل المدارس الثانوية العسكرية ... والرياضية ... والبريدية ... والتأمينية ... الخ

غير أن بعض النظم التربوية تأخذ بأحدث نظريات التربية ، بحيث تجعل من طالب العلم عنصراً إيجابيا فى العملية التعليمية ، بحيث تتم تنمية مدارك الطفل أو الطالب وتقوية شخصيته ، وتدريبه على التفكير المستقبل الحر ، وعلى وسائل الإقناع بالحجة والبرهان ... وبعضها تسودها النظريات التربوية القديمة ، حيث لا يزال الطالب عنصرا سلبيا ، أى مجرد متلق لما يتاح أو يقدم له من علم فحسب ... والنظام التربوى بهذا الشكل ظاهرة اجتماعية أيضا .

وتختلف المجتمعات من ناحية لغة التخاطب بين الأفراد ، بل إن الناس فى المجتمع يتحدثون بأكثر من « لهجة » . ومن هنا فإن النظام اللغوى يتطلب ثلاث مستويات للتعبير هى :

١ ــ المستوى التذوقى الجمالى الذى يستخدم فى الأدب والشعر ، وفيه شطحات خيالية بعيدة عن الواقع .

ب ــ المستوى العلمى النظرى الذى تستخدم فى العلوم ، ومن شروط التعبير فيه أن تكون محتويات كل عبارة أو مضامينها خاضعة لاختبار الحواس .

حـ ــ المستوى الاجتماعى الذى يستخدم فى الحيـاة العادية اليومية ، وهو أيضاً المستوى الذى تستخدمه أجهزة الاتصال الجمعى فى مخاطبة الجماهير ، وهو الأسلوب الذى يجمع بين العامية والفصحى(١) .

هذا وقد تستخدم اللغة للتعبير عن المعارف والأحداث بدقة ووضوح باعتبارها لغة اختبارية، كما هو الحال فى اللغة المعرفية التى تستخدم فى الرياضيات والعلوم الهندسية والتطبيقية ، وقد تستخدم لإثارة العواطف والانفعالات فى نفوس الناس ، أو فى نفس الشخص ذاته ، عندما يعيش عالم أحلام اليقظة ، لاسيما فى الأوقات التى يكلم فيها نفسه أو دميته . وفى تلك الحالة يلجأ الشخص إلى الرموز ، وهذه الرموز إما أن تكون معرفية تؤدى إلى « معلومات » أو « لا معرفيه » تؤدى إلى « انفعـالات غامضة وأوهام» . . . بيد أنه قد تنسلخ بعض اللهجات وتتحول إلى لغات مستقلة، مثلما حدث فى أوروبا منذ أقل من ألف عام تقريباً، حيث كانت انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا . . . تتحدث لغة واحدة بلهجات مختلفة مشتقة من اللغة اللاتينية، ثم استقلت تلك اللهجات عن اللغة الأم وتحولت إلى لغات مستقلة ، لها آدابها وفنونها وقواعدها . ويمكن القول أنه ــ بدون القرآن الكريم ــ لكانت اللهجات العربية قد تحولت إلى لغات مستقلة خلال تلك الفترة . . . واللغة بهذه الصورة ظاهرة اجتماعية.

ــ وتتباين المجتمعات من حيث نظامها الأسرى ، ذلك أن « النظام الأسرى يتشكل من الأمور التى تخضع لها الأسرة باعتبارها الوحدة الأولى فى البناء الاجتماعى من حيث تكوينها ونظافتها ووظائفها وعلاقة أفرادها ببعضهم البعض الآخر، ومحور القرابة وطقوس الزواج والطلاق والحضـانة والكفالة ، وشئون المواريث وما إلى ذلك »(٢) .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : وسائل وأساليب الاتصال فى المجالات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلامية مرجع سابق ، صفحة ١٦ .

(٢) دكتور زيدان عبد الباقى : علم الاجتماع الحضرى والمدن المصرية . مكتبة دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٤ صفحة .

وإذا رجعنا إلى الماضى البعيد نجد أن تكوين الأسرة كان خاضعا للقوة العضلية ثم إلى السبى أو الخطف ... وبظهور الأديان السماوية ثم تنظيم عمليات تكوين الأسرة طبقا لشرائع محدودة فى كل الديانات السماوية الثلاث . غير أنه مع التخلف التعليمى ، لم تكن عمليات الزواج من خطبة وتعاقد وزواج تخضع للأساليب الحضارية وإنما كان الزواج يخضع لاعتبارات أسرية تتصل اتصالا وثيقا بالناحية الاقتصادية ، حيث كانت البنات — على سبيل المثال — ترغم على الزواج من ابن عمها حتى لا يؤدى زواجها من غيره إلى انتقال ملكيتها من الأراضى الزراعية إلى من تتزوجه، وبذلك تنخفض المكانة الاجتماعية لأسرتها بمقدار ما ترثه من أراضى زراعية أو عقارات أو أموال ثابتة أو منقولة ... غير أن التعليم والتصنيع ومختلف أساليب التحضر ، قد أدى إلى تطوير النظام الأسرى بالصورة التى تلائم وتحترم كرامة كل من الرجل والمرأة ... والنظام الأسرى بهذه الصورة ... ظاهرة اجتماعية .

— ... وليست هذه هى كل الظواهر الاجتماعية فى المجتمع ، وإنما هى مجرد نماذج للظواهر الاجتماعية Social phenomena تلك الظواهر التى تتجزأ إلى وقائع إجتماعية Social facts أو أنماط اجتماعية Social patterns .

وخلاصة القول إن الظواهر الاجتماعية هى منطقة نفوذ علم الاجتماع ، بمعنى أنه العلم الذى لا يشاركه علم آخر فى دراستها ، وفى الكشف عن القوانين التى تحكمها والعلاقات التى تربط بينها ، دراسة وصفية تحليلية ، مثله فى ذلك مثل علم الكيمياء .

وقد يعترض قائل بقوله إن عالم الكيمياء يستطيع وضع السوائل على بعضها البعض بمقادير معينة للحصول على سوائل ذات خواص جديدة لم تكن موجودة فى السوائل السابقة، وعلى سبيل المثال، فإن الكيميائى يستطيع وضع الأكسجين مع الإيدروجين بنسبة إثنين إلى واحد فيحصل على ماء من خواصه الإرواء والسيولة ، وتلك خواص لم تكن موجودة من قبل الأكسجين أو الأيدروجين ... فهل فى مقدور عالم الاجتماع أن يضع مجتمعا على آخر أو جماعة على أخرى لكى يخرج لنا بمجتمع جديد أو بجماعة جديدة ؟

والإجابة على ذلك أنه يمكن نقل جماعة لكى تعيش مع جماعة أخرى فى نفس المجتمع أو فى مجتمع آخر ، وتبدأ حياتهما بالصراع الاجتماعى إلى أن يتحول إلى

تمثيل أو استمثال اجتماعى ، عن طريق المزج الجنس كما سبق أن أوضحنا ذلك ، ثم يتحولان إلى جماعة واحدة بثقافة واحدة ... وعندنا فى مصر نقلنا سكان النوبة إلى محافظة أسوان ، وهجرنا الكثيرين إلى مديرية التحرير ، ووافقنا على تهجير بعض الفلاحين إلى جمهورية العراق ... وهذه كلها تجارب اجتماعية يمكن أن تخضع لقواعد التجريب العلمى . وبالإضافة إلى ذلك فإن موقف علم الاجتماع مثل موقف علم الفلك ، ذلك أن علماء الفلك يدرسون الحركات الشمسية ، وحركة الأرض والكواكب عامة من أجل استخلاص القوانين التى تحكمها والعلاقات التى تربط بينها، دون وضع الشمس على القمر مثلا داخل معمل معين . وكما توصل علماء الفلك إلى قوانين علمية تحكم الظواهر الكونية ، فقد توصل علماء الاجتماع إلى قوانين علمية تحكم الظواهر الاجتماعية .

وبناء على دراسات وبحوث علماء الاجتماع وما تنتهى إليه من تعميمات أو قوانين علمية توضع خطط الإصلاح الاجتماعى ، وكذلك تحدد أسس التخطيط الاجتماعى .

وما دامت الظواهر الاجتماعية بهذه الأهمية فى دراسات علم الاجتماع ، فإنه من الضرورى تحديد خصائصها بدقة ، بحيث يدرك كل باحث أو أخصائى اجتماعى إطار الظواهر الاجتماعية وما تنطوى عليه من وقائع وأنماط اجتماعية .

خواص الظواهر الاجتماعية :

وإذا كان ابن خلدون قد عرف الظاهرة الاجتماعية فى القرن الرابع عشر ، عندما وضع أسس علم العمران – أى علم الاجتماع – فإن عالم الاجتماع الفرنسى « إميل دوركايم » قد وضع تعريفاً جديداً للظاهرة الاجتماعية ، وحدد خواصها بصورة دقيقة أيضاً . فقد وجد « دوركايم » أن تحديد الطبيعة والخواص النوعية للظاهرة الاجتماعية من أهم موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع لارتباطه أشد الارتباط بإمكانية قيام علم الاجتماع واستقلاله

ذلك شخصية علم الاجتماع كانت قد تعرضت يومئذ لكثير من التشويه بشكل كاد يقضى على العلم . ومن هنا فقد خصص جانبا كبيرا من كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » لتحديد ماهية الظاهرة الاجتماعية ، وتفنيد كل ما أثير من شكوك حول استقلال علم الاجتماع .

وقد حرص « دوركايم » على تعريف الظاهرة الاجتماعية وتبيان خصائصها التى

تميزها عن غيرها . فهذه الظاهرة ليست كل شيء يحدث فى المجتمع ، كما ظن بعض الباحثين ، وإلا لكان النوم والأكل والشرب ، والتأمل ، بل والهذيان ... ظواهر اجتماعية . فمن الضرورى إذن والحالة هذه أن توجد طائفة معينة من الظواهر لها خواصها الذاتية التى تجعلها صالحة لأن تكون موضوعا لعلم خاص . وكان تعريفه للظاهرة الاجتماعية هو أنها « كل حزب من السلوك يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد ، أو هى كل سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية »(١) .

ومعنى هذا أن الظاهرة الاجتماعية عبارة عن حزب من السلوك العالم، واتجاهات وأساليب وأوضاع يصب فيها الإنسان تفكيره وأعماله . وليست هذه الظاهرة من صنع فرد أو بضعة أفراد ، ولكنها من صنع المجتمع ، وهى عامة ولها كيان خاص مستقل عن الصور التى تتشكل بها فى الحالات الفردية ، ومزودة بقوة ملزمة ومجبرة .

وفيما يلى نعرض لخواص الظواهر الاجتماعية كما حددها دوركايم :

١ — خاصية الموضوعية : Qbjectivity

والمقصود بخاصية الموضوعية أن الظاهرة الاجتماعية توجد خارج شعور الأفراد ، وليست داخل ذواتهم مثل الأحاسيس والمشاعر . فالظاهرة الاجتماعية ليست من صنعى أنا أو أنت أو هو ، وإنما يتلقاها كل منا والآخرون عن المجتمع الذى نشأنا فيه . ومن هنا ليست وليدة تفكير واحد منا ، وإنما من وليد تفكيرنا جميعا ومن هنا تتميز الظاهرة الاجتماعية بأنها شيئية(٢) ، أى مثل الأشياء المحسوسة ، فالأسرة مثلا كظاهرة اجتماعية موجوده خارج ذواتنا ، بحيث يستطيع الباحث أنه يعد الأسر الموجوده فى أى مدنية ويحدد أشكالها ومستوياتها ، ومتوسط دخول أفرادها وما إلى ذلك . والمقصود بالشيء هنا هو أن « الشيء » يقابل « الفكره » بمعنى أن معرفتنا الشيء تأتى من الخارج . على حين أن معرفتنا بالفكره تأتى من الداخل . والشيء هو ما يصلح أن يكون ماده للمعرفة ، ولكن بشرط أن تسمح له طبيعته بأن يندمج

(1) Est fait Social toute maniére de fair, fixè ou nom, Suspectible d'exercer sur l'individu une Contrainte extérieure, ou bien encore, que est générale dans l'etedue d'une Société donnée toute en ayant une existence propre, independant de ses manifistation individuelles.

(2) Comme des choses.

فى العقل الذى يدركه . وأوجب « دوركايم » على الباحث الاجتماعى فى دراسته الظواهر الاجتماعية أن يتمسك بالمبدأ التالى وهو « أنه يجهل كل شىء عن حقيقة الظاهرة الاجتماعية ، وأنه لا يستطيع الكشف عن خواصها الذاتية ، أو عن الأسباب المجهولة التى تخضع لها عن طريق الاستبطان Introspetion مهما بلغت هذه الطريقة مبلغاً كبيراً من الدقة » .

وكما أن الظاهرة الاجتماعية موضوعية لأنها « شيئية » فهى أيضاً موضوعية لأنها « خارجية » بالنسبة لشعور الأفراد ، أى أنه يقصد بالصفة « الخارجية » وجود هذه الظواهر فى اللغة والدين والاقتصاد والقانون والسياسة . . . ودوامها من جيل إلى جيل ، وعدم تأثرها بتغير الأفراد ، لكونها مستمرة وبشكل معين . ويولد الأفراد فيجدونها سابقة على مولدهم ويعرفونها ويأخذون بها عن طريق التنشئة الاجتماعية والتعليم . ويستدل « دوركايم » على « خارجيـــة » الظواهر الاجتماعية بثلاثة شواهد هى :

(ا) إنها مسطورة وأغلبها مدون وله كتب (مؤلفات) ودساتير وقوانين موضوعة ، تحدد وتثبت وجودها الواقعى . وهذا تجده مثلا فى الدين ، السياسة واللغة . . . ، ذلك أن الدين كتبا منزلة ، والسياسة دستورا ، واللغة آداب وقواعد . . . الخ .

(ب) بعضها محفوظ ومعروف ويتحقق عمليا ، وهذا واضح فى أمر العادات والأعراف والتقاليد التى لها مناسبات معينة تظهر فيها بشكل واضح مثل الأعياد والمواسم . . . الخ .

(حـ) إن بعضها موجات فعلية تظهر فى المجتمع مثل الإقبال على الانتحار والزواج والطلاق ، أو الإكثار من الإنسال ، أو انتشار الإجرام . . . ويمكن تحديد حجم وكثافة هذه الموجات تحديدا إحصائيا .

٣ ـ خاصية القهر والإلزام : La Contrainte

ويقصد بخاصية الإلزام والقهر أنه لما كانت الظواهر الاجتماعية ضروبا من الشعور أو السلوك الذى يوجد خارج ضمير الفرد ، فلابد من أن تفرض نفسها على

شعوره وسلوكه . وإذا رجعنا إلى الواقع نجد أن الفرد لا يشعر بهذا القهر أو الإلزام الذى تفرضة الظواهر الاجتماعية ، ذلك أن الفرد يستجيب للظاهرة الاجتماعيه بحسب العادة ... ويظهر هذا « القهر » واضحاً فى حالة شعور الفرد بالرغبة فى الخروج على قواعد الظواهر الاجتماعية .

هذا وليست جميع الظواهر الاجتماعية سواء فى قوة القهر ، ذلك أن وجوده يكون واضحاً فى الظواهر التامة التكوين مثل : اللغة ، الدين ، الاقتصاد ، القانون ، الأخلاق... ويكون أقل وضوحا فى الظواهر الاجتماعية التى لم تستقر بعد والتى يطلق عليها اصطلاح التيارات أو الإنسياقات الاجتماعية ، مثل موجات السخط عقب فضيحة (نكسة) ١٩٦٧ التى انتهت بهزيمة بعض جيوش الدول العربية أمام جيش إسرائيل . وموجات الحماسة عقب انتصار الجيش المصرى على جيش إسرائيل فى منطقة القناة وطرده من مواقعه فى خط « بارليف » على الشاطىء الشرقى للقناة ، إلى شرق مجرى القناة بحوالى ثلاثين كيلومتر فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ومثل أنماط الأزياء التى تتبدل من موسم إلى آخر . فالزى مثلا ظاهرة اجتماعية، وقد تعودنا جميعا أن تكون لنا ملابس للنوم وأخرى للعمل وثالثة لغير ذلك . ومن ثم فإن ظاهرة الزى تلزمنا بارتداء زى العمل عندما نذهب إليه ... وكل منا يرتدى زى العمل بحكم العادة ، غير أن أى شخص يحاول الذهاب إلى عمله بملابس النوم، فإنه سيكون أول من يشعر بالإلزام والقهر بضرورة ارتداء زى العمل ... كما أنه من المحتم أن ينظر الناس إليه باحتقار وازدراء كعقاب اجتماعى سريع ومباشر على مخالفة المألوف العادة فى الملبس . أما الأنماط الاجتماعية أى النماذج أو الموضات التى تحدث داخل ظاهرة الزى مثلا ، فإن الفرد ليس ملزما بالمتابعة الحرفية لتغيراتها ، فكثير من الناس فى مصر — على سبيل المثال — لا يزال متمسكا بالشكل الكلاسيكى الحلة « البدلة » التى يرتديها فى الذهاب إلى عمله ، دون أن يلزمه أحد بضرورة ارتداء «بدلة » مطابقة لأحدث الموضات .. وإن الشباب أكثر التزاما من الكبار بمتابعة خطوط الموضات .

٣ — خاصية الإنسانية : Humanism

ويعنى بخاصية الإنسانية أن الظاهرة الاجتماعية تنشأ بنشأة المجتمع الإنسانى ، فهى تالية — وليست سابقة — على نشأة المجتمع وبهذه الصفة فهى تتميز على الظواهر

التى تتناولها بالدراسة علوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا(١) والجغرافيا ... ولما كان المجتمع الإنسانى جزء أساسى من مملكة الكون كله ، فإن ظواهر المجتمع الإنسانى - كما أوضح ذلك ابن خلدون - تخضع لما تخضع له كل ظواهر الكون من قوانين وبالتالى فإن الظواهر الاجتماعية تصبح خاضعة للقوانين شأنها شأن ظواهر العلوم الأخرى . والبحث عن هذه القوانين ودراستها وكذلك دراسات العلاقات الوظيفية التى تربط بين مختلف الظواهر الاجتماعية، ينبغى أن يكون موضوعا لعلم مستقل وهو علم الاجتماع . وعلى هذا فإن الظواهر الاجتماعية تنطوى على صفات ذاتية من جنس خاص جدا . وتنحصر هذه الظواهر فى ضروب السلوك والتفكير والشعور، وهى توجد خارج شعور الفرد وقد زودت بقوة قهر تمكنها من فرض نفسها على الإنسان . ومن ثم فليس من الميسور أن يخلط المرء بين هذه الظواهر وبين الظواهر العضوية ، على اعتبار أن الظواهر الأولى تنحصر فى بعض التصورات والأفعال ... وكذلك لا يمكن الخلط بينها وبين الظواهر النفسية ، على اعتبار أن الظواهر الأخيرة لا توجد إلا فى داخل شعور الفرد وبسببه . ومن ثم فإن الظواهر الاجتماعية من جنس قائم بذاته ، ويجب أن نصفها دون سواها بأنها اجتماعية . وعليه فإن هذه الظواهر منطقة نفوذ خاصة بعلم الاجتماع .

وخلص دوركايم من ذلك إلى أن للانسان ثلاثة طبائع ، ولكل طبيعة منها علم خاص بها ، بمعنى أن الإنسان يحب ويكره ويشعر ويتخيل ويتذكر... وهذه مظاهر من حياته النفسية . . وعلم النفس يتولى دراسة هذه الظواهر . كما أن الإنسان يأكل ويشرب وينام ويتحرك فى الزمان والمكان .. وهذه مظاهر من حياته البيولوجية .. ويقوم علم الحياة بدراستها . وأخيراً فإن الإنسان لابد له أن يعيش فى أسرة وأن يتدين وأن يتعامل مع الآخرين ويدخل معهم فى علاقات ومعاملات ، وأن يخضع لنظم قانونية واقتصادية وسياسية عامة ومقررة . وهذه الأمور من مظاهر حياته الاجتماعية . ويتولى علم الاجتماع دراستها(٢) .. والخلاصة أن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة خاصة بالإنسان وحده فحسب .

---

(1) La domaine propre de la Sociologie.

(٢) الأستاذ الدكتور عبد العزيز عزت : آراء فى طبيعة الظواهر الاجتماعية .

٤ ـ خاصية التلقائية : Spontaneity

ويقصد بتلقائية الظاهرة الاجتماعية أنها ليست من صنع فرد أو أفراد ، وإنما هى من صنع المجتمع ومن خلقه ، وتظهر على مسرحه بصورة تلقائية ومن وحى « العقل الجمعى » ذلك أن سلوك الجماعات يرجع فى جوهره إلى عقل جمعى يتألف من مجموعة منتظمة متسقة من مختلف القوى التى تهدف إلى غرض خاص ... وبعبارة أخرى : أن سلوك الجماعات يرجع إلى ديناميكية خاصة تنشأ من تفاعل الأفراد تفاعلا يعتمد فى جوهره على مختلف العلاقات التى تلابس الموقف الذى يحيط بالأفراد(١) .

غير أننا ينبغى ألا ننسب كل شىء إلى العقل الجمعى ، كما قال بذلك « ليفى بريل » وغيره ، بمعنى أننا فى البحث العلمى أو فى الخدمة الاجتماعية ينبغى ألا نعتبر الجماعة وحدها وحدة للبحث العلمى سواء فى بحوث علم الاجتماع أو فى فن خدمة الجماعة فى الخدمة الاجتماعية ... وكذلك ينبغى ألا نتخذ الفرد وحدة للبحث العلمى سواء فى بحوث علم الاجتماع أو فى فن خدمة الجماعة فى الخدمة الاجتماعية ، على اعتبار أن الاتجاه الحديث لا ينقاد انقيادا مباشرا وراء أحد هذين الاتجاهين ، لكنه يدرس تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين . أى أنه لا يتخذ الفرد كوحدة للبحث العلمى بمعزل عن الجماعة ، ولا يتخذ الجماعة كوحدة للبحث العلمى بعيداً عن الفرد ، ولكنه يبحث العلاقات الديناميكية والخيوط غير المنظورة التى يتألف منها نسيج الحياة الاجتماعية(٢) .

وترتيبا على ذلك فإن الظاهرة الاجتماعية كظاهرة إنسانية تنشأ ـ بدون فاعل مباشر ـ سوى تفاعل عقول ووجدانات الأفراد والجماعات فى المجتمع . وهذا هو المقصود بتلقائية الظاهرة الاجتماعية فنحن لم نتدخل فى صنع الظواهر الأسرية أو القضائية أو السياسية أو الاقتصادية وما إليها ، وإنما نشأنا فوجدناها قائمة . ومن ثم راح كل منا يصب فيها أعماله وأفكاره متأثرا فى ذلك بما يلقاه فى منزله ومدرسته

---

(1) Levy — Bruhl, L.: Mentalié primitive. Trans. as primitive Mentality, 1923.

(٢) الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور : فى الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيق القاهرة ١٩٤٧ صفحات ١٠ – ١٢ .

وبيئته التى يعيش فيها ، بمعنى أن هذه الظواهر والأوضاع الاجتماعية قد نشأت منذ نشأة الحياة الاجتماعية بصفة تلقائية (طبيعية) .

٥ ـ خاصية العمومية : La généralité

لما كانت الظاهرة الاجتماعية تتميز بصفة القهر والإلزام ، فإنها بذلك تصير عامة ، لأنها تفرض نفسها على الأفراد فى سائر أنحاء المجتمع ، أو فى بعض قطاعاته الخاصة . ومن ثم فإن الظواهر الاجتماعية فى بعض الأحيان ، قد تستمر بفعل الزمن ، دون أن تعتمد على أساس واقعى من حياة المجتمع ، وهـــذا هو ما يطلق عليه اسم الرواسب الاجتماعية .

هذا وتتخذ عمومية الظاهرة الاجتماعية ثلاثة مظاهر هى :

(ا) أن تنتشر الظواهر الاجتماعية فى محيط مجتمع معين بصورة شاملة .

(ب) أن يكون انتشارها فى طائفة من المجتمعات التى تتشابه فى النوع وفى الظروف الطبيعية والمورفولوجية والاجتماعية .

(ح) أن يكون إنتشارها فى نماذج اجتماعية متنوعة .

ولهذا الاختلاف فى مظاهر العمومية أهمية كبرى بالنسبة لعلم الاجتماع ، حيث تكون لها فائدتها فيما يتعلق بأنواع القوانين وتصنيفها ومبلغ ونطاق تطبيقاتها

٦ ـ خاصية الترابط :

تتميز الظاهرة الاجتماعية بالترابط ، وهذا الترابط :

(ا) قد يكون فى الحاضر ، ويراد بذلك تأثير بعض النظم الاجتماعية فى البعض الآخر ، ويكون ذلك أكثر وضوحا فى النواحى الاقتصادية ، ذلك أن هجرة الناس إلى المصايف، تؤدى إلى زيادة السكان فى المدن الساحلية. ومن ثم ترتفع الأسعار فى تلك المدن . ولهذا قصر « دوركايم » تفسير الظواهر الاجتماعية على الظواهر الاجتماعية .

(ب) وقد يكون ترابطا تاريخيا ، أى ترابط بين الماضى والحاضر ، ويتلخص فى ظهور موجات اجتماعية تجيز ترداد أو ترديد ظاهرات أو نزعات جمعية كانت موجودة وقائمة فى المجتمع فى عهد معين مثل عودة النظام الملكى فى فرنسا بعد قيام الجمهورية فى

« عهد نابليون » وخلفائه من بعده ، ثم قيام الجمهورية بعد ذلك . . . وكما هو الحال فى ظاهرة « الموضات » فكثيرا ماتعود بيوت الأزياء إلى اقتباس «موضات» قديمة ، يعود الناس إلى الأخذ بها . . . الخ .

(حـ) وقد يكون ترابطا دوليا ، عن طريق التأثير المتبادل بين الأمم ، أو اقتباس البعض من البعض الآخر ، ويتحقق هـذا عن طريق الفتح مثل سيادة اللغة العربية والدين الإسلامى فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون فى صدر الإسلام . . . وفى مجال الفنون المـادية نجد ـ مثلا ـ أن اليونانيين اقتبسوا شكل ورسوم المبانى المصرية القديمة حيث انتشرت لديهم الأعمدة على نسق بناء وأعمدة معابد مدينة إسنا التى تحوى فى كل منها ثمانية عشر عامودا ، وتنتهى أعالى الأعمدة بنقوش فنية رائعة . . . بينما فى مجال الفنون العقلية نجد ـ مثلا ـ أن أفلاطون كان تلميذا للمصريين فى جامعة عين شمس القديمة ، وكذلك كان المشروع الرومانى المشهور «سولون» . وكل ذلك يؤكد هجرة وترابط الظواهر الاجتماعية .

٧ - خاصية الجاذبية :

وهى الخاصية التى أضافها « دوركايم » إلى خواص الظاهرة الاجتماعية فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « قواعد المنهاج فى علم الاجتماع » فى معرض الرد على منتقديه بالنسبة لخاصية الإلزام والقهر ، فقد وصف « دوركايم » الظاهرة الاجتماعية بأنها تفرض نفسها علينا ، ولـكننا نتمسك بها طوعا فى نفس الوقت . فهى تجبرنا ولـكننا نتعلق بأهدافها ، وهى تقهرنا على بعض الأمور ، فنجد أن منفعتنا تنحصر فى تأدية هذه الظواهر لوظائفها ، وفى القهر نفسه[1] ومن هنا اشتق « بوجليه » صفة الجاذبية واعتبرها من أهم خصائص الظاهرة الاجتماعية . وهذه الجاذبية على نوعين هما :

(ا) جاذبية شعورية كلها الحماسة ، تتردد من وقت لآخر فى مناسبات معينة حيث يشعر الأفراد أنهم يتداخلون وتشتد وحدتهم فى مجتمعهم ، فيقبلون عليه . وهذا نجده عادة فى الأعياد والمواسم الدينية والوطنية ، مثل انتصار مصر على إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ فهى مناسبات تسود فيها البهجة ، فيتأكد ترابطهم وتتجسد

---

(1) Les fait social nous obligent et nous Les aiment : elles nous Contraignent et nons lravons notre Compte á leur fonctionnement et á cette contrainte même.

الروح الاجتماعية بينهم ... ومن جهة أخرى فإن هذه الجاذبية الشعورية قد تكون محزنة مثل ذكر الكوارث أو وفاة الزعماء المخلصين . ومثل هذا الترابط يكون من نوع ألم مثل فضيحة (نكسة) ١٩٦٧ .

(ب) جاذبيه هادئة : وهى جاذبية لا يسودها الشعور الانفعالى ، وإنما يدعمها العقل والاقتناع ، لأن المجتمع ونظمه لهما الفضل على الأفراد من حيث أنه يورثهم ترابه الروحى من علوم وفنون وعادات وأعراف وتقاليد. وبهذا يتميز الإنسان على الحيوان ويتميز كذلك نوع وجوده الاجتماعى . ومن جهة أخرى يتأكد السمو الإنسانى فى فى نفوس الأفراد بانتمائهم إلى حضارة المجتمع . ولهذا يشعر الأفراد فى داخلية نفوسهم بفضل المجتمع ، وأنهم يمثلون أرقى أنواع الحياة بين سائر مخلوقات الكون . وهذا مايدعو الفرد دائما إلى أن يتمثل المجتمع وتراثه فى ذاته ، ويزكى أو يقوى فى نفوسهم محبتهم له وانجذابهم إليه .

(جـ) خاصية أنها أساليب وقواعد وأوضاع للتفكير والعمل الأنسانى :

وتلك الخاصية تحدد لنا الصفة الإنسانية كإطار للظاهرة الاجتماعية . ومن ثم فإن الظواهر التى تتعلق بنشأة الإنسان وظواهر نموه الجسمى والظواهر الفسيولوجية وظواهر الانثربولوجيا الطبيعية والجغرافيا البشرية تخرج عن نطاق الظاهرة الاجتماعية ذلك أن هذه الظواهر وإن كانت إنسانية فهى ليست قواعد وأساليب عامة للتفكير الإنسانى بصدد شئون الحياة الاجتماعية ، وليست قوالب يصب فيها الأفراد أعمالهم وأفكارهم . هـذا ويلاحظ أن بعض معاونى « دوركايم » قد استنبطوا هاتين الخاصيتين لأهميتهما وضرورتهما من منطق أقواله ، ومن تحليله بطبيعة الظاهرة الاجتماعية ، وإن كان لم يشر إليهما .

تلك هى الخواص المميزة للظواهر الاجتماعية ، وهذه الخواص لا تنطبق على الظواهر والنظم الثابتة ، مثل الظواهر الدينية والأخلاقية والأسرية ... فحسب ، بل إنها تنطبق على الظواهر المادية المورفولوجية أيضا ، وكذلك على التيارات والاتجاهات الجمعية المنبعثة فى قلب الجماعة . فهذه الأمور وما إليها تمتاز بما تمتاز به الظواهر الثابتة من الخواص الذاتية السالفة الذكر .

هذا وكل ظاهرة اجتماعية تنطبق عليها تلك الخواص، مع هذه الظواهر تعتبر منطقة نفوذ لعلم الاجتماع ، أى أنها الظواهر التى يتناولها علم الاجتماع دون غيره بالدراسة.

الفصل السابع

الإسلام والنظم الاجتماعية

لآيات القرآن الكريم فى التطور وبيان حقائقه والإشارة إلى صوره حكمتان : إحداهما عقلية والأخرى روحية أو خلقية .

أما الحكمة العقلية فقوامها أن الإنسان المسلم ينبغى أن يدرك أنه يتطور ، وأنه وصل إلى ما وصل إليه فى بدنه ونفسه وعقله ودينه ودنياه بفضل التطور ، وأنه يدرك أن كل ما حوله يتطور : الحيوانات ، والنباتات والجمادات ... والأفلاك والشموس والكواكب والمجرات ... والجبال والبحار والأنهار ... السحاب والأمطار والهواء .. كلها تتغير وتتحرك وتأخذ حسب سنة الله فى مخلوقاته : صورا وأشكالا متعددة فى اليوم الواحد، وعلى مدار الشهور والسنون وفى الآماد والحقب والأجيال .

والتفات ذهن الإنسان المسلم إلى هذه الحقيقة الكبيرة ينفعه فى أكثر من وجه ، فالعلم فى ذاته : غاية وهدف للانسان المسلم ، رجلا كان أو امرأة، لأن العلم قوة وزاد لا يدخل فى عقل الإنسان حتى ينتقل إلى نفسه وأسلوب حياته ، ومنهاج معيشته ، وطريقة تعامله مع بنى جنسه من أفراد المجتمع . وإذا كان الناس يتفاوتون فى التحصيل وفى الفهم والذكاء ، فإن أمر الله للناس بطلب العلم لم يفرق بينهم . فالله أمر المسلمين فى شخص نبيهم بقوله تعالى : « وقل رب زدنى علما » وقال سبحانه وتعالى أيضا : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر ٩) والوجه الثانى أن يحاول الإنسان المسلم الإفادة من حقيقة هـذا التطور ، ومساره وآثاره ، وأن يتقى المضار التى تلحقه ، إن هو غفل عنه ، أو وقف فى طريقه ... ودع عنك تحديه وإنكاره .

وما دامت كل المخلوقات تتطور : فإن حياة الإنسان ـ وهو سيد المخلوقات ـ تتطور فى شكل ظواهر ونظم اجتماعية . والنظام الاجتماعى هو « مجموع ما تحويه شرائع المجتمع الدينية وقوانينه الوضعية ، وما تقتضيه أعرافها وعاداتها وتقاليدها .

والقواعد المنظمة لشتى فروع الحياة الاجتماعية ولمختلف العلاقات التي تربط أفراد المجتمع الواحد بعضهم البعض أو تربطهم بأفراد المجتمعات الأخرى .

هذا وتطور النظم الاجتماعية بمقتضى ما يجد في المجتمع والحياة من ظروف يكون في بقائها واستمرارها مضار ، وفي تحويرها صالح منشود للناس . لا سيما وأن الإسلام لا يمنع من حدوث هذا التحوير ، مادام الغرض الأسمى تحقق المنفعة لسواء الناس بغير تمييز بين الأفراد مهما تكن منازلهم في المجتمع ، وما دام التطوير في النظم الاجتماعية يرمى إلى درء المفاسد وإقرار الطيبات .

هذا ولم تعرف البشرية دينا مثل الدين الإسلامي ، دين يزكى الفؤاد ويضىء البصيرة ويدعو العقل إلى التفكير والتدبر والنظر في آيات الله تعالى والخروج من الدائرة المحدودة الضيقة إلى الرحاب الواسعة الفياضة لكي يقف المسلم على آثار الله تعالى وعلى نعمائه وهو مع ذلك دين يدعو إلى المعرفة الواعية الموصلة للانسان إلى غايته التي يرتضيها وإلى الخالق القويم الذي يريده . ولعل عنايته بالعلم إنما جاءت بعد أن اكتمل للعقل البشري النضوج والتحضر وبلغ ذروته وأصبح مهيأ لهذا النظر والتفكير .

وللمنهاج الذي نأخذ به في علم الاجتماع الإسلامي ، أنه لا يستعصى على الدراسة والبحث أن يهتديا إلى المعنى الغريب متى استضاء سيرهما بمصابيح الجد والإنصاف ، إذ لن يلبث الغريب المستعصى أن يلين من قياده ويسهل ويجد له مساغا في النفوس وطريقا إلى القلوب . ذلك أن من المسلم به أن يد الباحث إذا أشعلت سراج العدل بددت كل ظلمة وقربت البعيد ويسرت الصعب ، وجعلت الشاق حلوا سائغا والمجهول واضحا مكشوفا .

وليس أضوأ من مصابيح تكشف للناس بعض ما يشتبه عليهم مما يتوهمون أنه لا يكتشف ولا أعز من أياد تجمع الرأى بعد خلاف يظن أن أشتاته لا تجمع ، وذلك كما يتوهم بعض الناس ويظنون في الشريعة والحياة الاجتماعية . إذ يخيل إلى أوهامهم — بادىء ذى بدأة — أنهما أمران متباعدان ونقيضان متضادان لا يمكن أن يجتمع في آن واحد أو أن يلتقيا تحت سماء .

ولم يكن التفريق الموهوم بين الشريعة والحياة الاجتماعية إلا من الذين لم يفتحوا على الرؤية غير عين واحدة ، ترى نصف الأفق فحسب ، ترى المنقول والمأول والمفسر

فحسب ، ويغيب عنه نصفه الآخر . وهو النصف الذى اصطلح عليه العقل الجمعى فى المجتمع . ولو انفتحت العينان معا لتراءى له الأفق كله فى وحدة متصلة ملمومة ، ومنظر ملتئم مجموع .

عمومية الدين الاسلامى :

جاء الإسلام للناس كافة ، لا لقوم دون قوم ، ولا لقبيل دون آخر ، ولا لأبيض دون أسود ، ولا لأحمر دون أصفر . وإنما رسالة شاملة للعالمين ، لإقامة العدل بين الناس وتهيئة مختلف الفرص لكل إنسان لكى يعيش مع غيره بكرامة وعزة . ومن الآيات القرآنية التى تؤكد ذلك قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (سبأ ٢٨) وكذلك قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السموات الأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، فاتبعوه لعلكم تهتدون » (الأعراف ٥٨) . وهذا ليهدى به الضال عن سبيل الله ، وينبه به الغافل عن طريق الرشاد ، فليس أحسن مذهبا ، ولا أقوم سبيلا ممن دعا إلى دين الله الحنيف الذى أقامه سبحانه وتعالى على أعدل السبل ليغلب على سائر الأديان . وليهدى به من يشاء من عباده الذين تفرقت بهم الطرق فعاشوا زمنا طويلا فى تيه من الضلال والغى إلى أن جاءتهم دعوة الحق جاءت قدرته فتناجوا به فى كل صلاة قائلين « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وكذلك قوله تعالى : « تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا » (الفرقان ١ ، ٢) وأيضا قوله تعالى : « وما هو إلا ذكر للعالمين » (القلم ٥٢) وكذلك قوله جل شأنه : « إن هو إلا ذكر للعالمين » (ص ٨٧ والتكوير ٢٧) وأيضاً قوله عز من قائل : « وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ، قل إنما يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم له مسلمون ؟ » (يوسف ١٠٤) وأخيرا وليس آخرا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧) وكل تلك الآيات الكريمة تؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ مثل الإسلام ـ للناس كافة . والفرقان نذير للعالمين من أفريقيين وأسيويين وأوروبيين وأمريكيين وأستراليين . . . وكل سكان الكواكب والأقمار والمجرات

والأفلاك . بل ولكل كائن حى أينما كان وحيثما حل، مهما تتابعت اجيال. فالرسول والإسلام كلاهما للانسان ، كما هما للانسانية . وكتاب الإسلام يدعو الناس للتآخى « إنما المؤمنون أخوة » ويدعوهم إلى الحرية والمساواة فى الحقوق والواجبات ، وإلى العيش متعاونين متكافلين داعين إلى الخير ، ناهين عن الشر ، مقيمين الحدود ، ومعادين للباطل .

ذلك أن الإسلام دعوة صريحة واضحة لا لبس فيها، تدعو إلى الأخوة بين البشر جميعا دعوة كريمة وتوجيه كريم من رب كريم عظيم ودستور سماوى عظيم، لم تصل إلى أقل من مستواه بألف درجة — ولن تصل — أرقى الأمم فى عصرنا هذا الذى يقولون عنه إنه عصر الذرة ، وعصر الفضاء وسفن الفضاء . وهذه الأمم الغربية والشرقية كلها وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية حيث توجد هيئة الأمم التى أصدرت وأعلنت حقوق الإنسان تحدثنا صحافتها عن قصص التفرقة العنصرية الدامية ، تلك القصص التى يندى لها جبين الإنسانية وتتألم لها النفوس البشرية الطيبة ... هذا أبيض له كل الحقوق ... وهذا أسود ليس له أى حق من الحقوق حتى فى أماكن العبادة التى يجب أن تكون فيها النفوس أكثر صفاء ، وتنحنى داخلها الرءوس من خشية الله ، فى هذه الأماكن لا يجلس الأبيض بجوار الأسود[1] . ومن الذى أوجد هذه التفرقة ونادى بها والله خلق الكل ، وأوجد الوجود لكل موجود ... الخ

عدالة الاسلام :

والإسلام دين الديمقراطية الحقة ، دين يدعو كل مؤمن أن يرفع رأسه عاليا ، وأن يعيش عزيز النفس ، كريم الذات ، عالى الهمة بالسلوك الجيد وليس بالتعالى والعجرفة والتفاخر بالأنساب والأحساب والأموال والأبناء . ذلك أن الضعيف بالإسلام قوى والفقير بالإسلام غنى ، فالإسلام دين السعى والعمل والكفاح . وكل مسلم بالإسلام عزيز لن يهون وله مكانة الأنبياء إذا سلك مسلكهم وسار على دربهم

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى: مقال بعنوان « التفرقة العنصرية ، قديما وحديثا» العدد الرابع من مجلة كلية العلوم الاجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض . ١٤٠٠ هجرية .

وتمسك بأخلاقهم ، تأكيداً لقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » (الأحزاب ٤٠) فهو واحد من البشر مثلنا ، إختصه الله بالرسالة لتمسكه بأخلاق الإسلام ، ولنظرة علوية كريمة أرسله الله للناس كافة ، وجعله خاتم النبيين وإمام المرسلين ، إذ ليس وراء رسالته ـ فى توجيه الإنسانية ـ رسالة ، فهى الرسالة الجامعة المانعة ، بها يسعدون وبغيرها يشقون ويفسدون .

إذن الإسلام رسالة نورانية ، رسالة الحرية والأحرار ، رسالة الحق والعدل والخير والجمال ، رسالة التوحيد والتمجيد لله سبحانه وتعالى . وليس ذلك فحسب ، بل إن الإسلام دين حر ودولة حرة . ومع ذلك فإن الإسلام لم تفهم رسالته على وجهها الصحيح ، ولم ينتشر الإسلام كما ينبغى ، نتيجة نسيان المسلمين للأخوة الدائمة فى الخير والشر فى مجتمعهم ، وكذلك فى الغنى والفقر ، وفى الجهاد والدعة ، فى الكفاح وفى اليسر ، فى الحرب والسلام . نسى المسلمون كل هذا وراحوا يقيمون مجتمعات بعيدة عن روح الإسلام الصحيح بعد أن سيطرت على الدولة الإسلامية النظم الرومانية التى شهدوها فى الشام ، والنظم الفارسية التى آنسوها فى بلاد فارس ، بعد الفتوح الأولى مباشرة ... مع أن القرآن الكريم يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة » (آل عمران ٢٨) وتلك مباطنة لا يقرها الإسلام ، فقد نزلت هذه الآية كما يقول الآلوسى فى نفر من الأنصار كانوا يباطنون نفرا من اليهود أمثال ابن أبى الحقيق وغيره ، وقيل نزلت فى عبد الله ابن أبى أيضاً . وليس معنى ذلك أن يتمركز المسلمون حول ذاتهم فى إنطوائية ترفضها الحياة الاجتماعية . وإنما فى نهاية الآية السابقة دعوة للأخذ عن الآخرين ، مع الالتزام بنوعية هؤلاء الآخرين كما حددتهم الآية الكريمة : « ... إلا أن تتقوا منهم تقاة » وليس ذلك من الموالاة فى شيء ـ كما يقول الآلوسى ـ بل من السنة المشروعة . كما أورد الألوسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله أمرنى بمداراة الناس ، كما أمرنى بإقامة الفرائض » .

هذا وقد ظلت تلك التبعية ميراثا تتناقله الدول والدويلات الإسلامية إلى زماننا هذا . تلك النظم التى كانت الأساس الذى قام عليه النظام الطبقى الصارخ فى سائر المجتمعات الإسلامية تلك الطبقات التى يرفضها الإسلام لبعدها عن روحه ، ولأنها

ليست من أصوله ولا من فروعه . ذلك أن الإسلام دين يدعو إلى التقارب فى فرص الحياة بين الناس ، كما أنه دين المساواة فى مستويات الحكم ، فلكل من يظله الإسلام كرامة غيره من الحاكمين أو المحكومين . وله على الدولة حق الحياة بكافة ألوانها ، روحية ومادية . ولا ريب فى أن أساليب التفارق الطبقى الصارخ الذى ينشده الإسلام لكل مجتمع إنسانى ، بلا تفرقة بين عقيدة أو لون أو جنس، أو أى من تلك الفروق التى تنخر الآن فى نظام الحضارة الحديثة . . . وهكذا فإن الإسلام – كما يقول طيب الذكر الإمام محمد عبده « محجوب بالمسلمين » وهو قول حق أريد به وجه الحق .

الاسلام والنظم الدخيلة :

ابتعد المسلمون على النحو السالف الذكر عن حقيقة دينهم وخضعوا نتيجة لعدم اقتباسهم – ما يتفق مع الإسلام – من النظم الاجتماعية الحديثة – مثلما فعل عمر بن الخطاب عندما اقتبس النظام الإدارى للدولة الرومانية[1] – وإنما اقتبسوا بعض النظم الدخيلة على الإسلام . وكان بعدهم عن حقيقة الإسلام سبباً فى أن يبتعدوا عن الحياة ذاتها ، فما هى إذن تلك المؤثرات التى أحدثت ذلك الصدع الكبير بين الإسلام والمسلمين ؟ . لعل السبب يرجع – بل ومن المؤكد – أنه يرجع إلى بعد المسلمين عن الإسلام . ومن ثمة بعدوا عن الحياة الاجتماعية . فالإسلام يدعو إلى التطور وليس دينا مغلقا أمام مالا يتعارض معه ، لا سيما إذا كان فيه صالح المسلمين . ولكن رجال – ولا نقول علماء – الإسلام ، بعدوا عن روح الإسلام . وبالتالى فلن يستعيدوا مجدهم إلا بالنظرة الشاملة والإدراك الواعى ، والفهم العميق لروح تلك الرسالة النورانية ، على أنها رسالة إنسانية جملت أصلا من أجل الإنسان .

ولكى نفهم رسالة الإسلام فهما عقلانيا ، يجب علينا أن نرفع ذلك الحجاب الذى أسدلناه بيننا وبين الإسلام ، وحجبنا به الإسلام عن أعيننا وعن أعين الآخرين فى مختلف الأمم . الأمر الذى يجعلنا مسئولين أمام الله عن حجب الإسلام عن أداء رسالته العالمية الإنسانية للناس أجمعين . أو كما قال إمامنا الراحل محمد عبده « إن المسلمين حجبوا الإسلام بالإسلام ، فقد تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، وذهبوا طرائق متباينة ، والتمس كل فريق منهم وسيلة من الإسلام يؤيد بها الصورة التى زينها منه .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : التفكير الاجتماعى . . مرجع سابق، ص ٩٩ .

وعندى أن هذه الظاهرة كانت أكبر اعتداء أنزله المسلمون بالإسلام . فالإسلام فى حقيقته رسالة بسيطة ظاهرة المعالم، بينة الحدود، بعيدة عن مماحكات المنطق وسرحات الباطنية والتصوف ، أساس الإسلام إله حق ورسول أدى رسالة ، وإنسان أديت إليه والإنسان فى الإسلام هو المحور الذى تدور من حوله رسالة الإسلام وتعاليمه العليا . وكانت الكارثة الكبرى التى حجبت الإسلام بالفعل ، هى أن المسلمين نسوا الإنسان ، نسوا الجوهر الذى أنزلت من أجله الرسالة النورانية .

وخلاصة ذلك أن الرسالة الإسلامية وسيلة ، والإنسان المسلم هو الغاية ، ولو أن المسئولية عن الدين الإسلامى من علماء الدين استمسكوا بجوهر الوسيلة ، لما استطاعوا أن يطرحوا الغاية . ولكنهم ـ بجهالة ـ جمدوا الوسيلة وفرقوها حسب أهوائهم ، وأدخلوا عليها ما ليس منها من بدع ، خضوعا منهم لمنطق المصلحة الخاصة . وصبغوها بالباطنية حينا ، وبالتصوف حينا آخر ، وبالتصوف والأساطير والأباطيل أحيانا كثيرة إنتجاعا لسيطرة الطبقات المستعلية وتخويفا للطبقات المستدنية ، حتى تستكين وتضعف وتذل ، بأن يلقى فى روع أفرادها أن استعلاء الأعلين واستدناء الأدنين ، إنما هو من صنع القدر ، استنادا إلى قوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم» (الأنعام ١٦٥) وقوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (الزخرف ٣٢) . ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب، لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » . وهذا يتفق مع قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وذلك للقضاء على إجحاف النظام الطبقى ، الذى كان سائدا قبل الإسلام[1] . ومن ثم فإن ما ظنوه ـ هنا ـ من صنع القدر ، ليس من القدر فى شىء ، ولا فى كثير أو قليل . وإنما هو من صنع فئات أتيح لها أن تسيطر ، فأوسعت سواء الشعب خسفا وهضما .

---

(١) المرجع السابق صفحة ٩١ ، ٩٢ .

وفى ثنايا هذه الإنشطارات المؤسية التى لا تمت لروح الإسلام بأية صلة نسيت الغاية ، أى نسى الإنسان الذى جعل الإسلام من أجله . وبذلك وهنت القوة الروحية التى يضيفها الإسلام على المسلمين . ومن هنا تقهقر الإسلام ، ولم يكن تقهقره نتيجة لفقدان القوة المادية والسياسية ، ولا لنقص فيهما . ذلك أن الأمم — كما يقول ابن خلدون — « فى العادة لا تموت ، ولكن يقضى عليها ، بأن تنحدر إلى مستوى الحياة المهينة اللينة عندما تنتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الملك » وهذا ما اتفق تماما للاسلام عندما توقفت جهود علمائه المبدعة . . . وكذلك عندما أضيفت إلى ذلك كثير من المبالغات فى الصلاح والتقوى ، وفى الاحتقار للآخرين ، وعندئذ خفت ذلك النور الداخلى فى المسلمين حتى خسر إيمانهم قوته وصفاءه خفت ذلك النور عندما راح رجال الدين يكسبون بعلمهم مالا ، بعد أن كانوا ينفقون من أموالهم على علمهم .

خفت هذا النور عندما استسلم المسلمون لدعاوى الاستعمار القائمة على الإسفاف والتجنى ، والتى حمل لواءها الفيلسوف « إرنست رينان » الذى اتهم الإسلام بمناهضة العلم والفلسفة وكل ما هو مجال للعقل . ولقد بالغ فى دعواه حتى زعم أن العقلية السامية بصفة عامة — وكان يعنى بذلك العقلية العربية بصفة خاصة — ليست بعقلية علمية ، ولا تصلح باستعدادها للبحث العلمى ، وإنما هى عقلية تتجلى براعتها فى الحكم الرمزية ، والكلمات الغامضة المصبوبة فى قالب الأحاجى ، والمصنوعة فى شكل ألغاز وعلى الرغم من أنها دعوة ظاهرة البهتان ، بل إنها فى الواقع دعوة ترجع إلى العقلية العنصرية ، إذ تعتمد على حيثيات غير علمية ، حيث لا يوجد فى العلم عقلية علمية وأخرى غير علمية ، فالعرب الذين يصف عقولهم بأنها غير علمية ، هم أبناء أمة عريقة ، عاشت تسعة قرون من الزمان وهى مركز القوة فى هذا العالم ، وقطب الحياة لهذه الدنيا . وأنهم سلالة آباء أمجاد طوقوا عنق أوروبا بفضل المعلم على التلميذ ، وكان لهم فى هذه الحضارة الغربية الأوروبية ، عقل وفكر وعلم ، أخذه عنهم الأوروبيون وجعلوه أساسا رفعوا فوقه البنيان وما زالت آثاره ماثلة فى حياتهم فإذا كنا نأخذ اليوم عن أوروبا علما وفكر ، فإنه أخذ مسبوق بالعطاء ، وسداد لدين قديم اقتضى حق الوفاء . وإذا كانت الأمة العربية قد أغفلت فترة من التاريخ حتى سلبها الغرب كل ما لها من مقومات ومقدرات ، فهكذا سنن الاجتماع تتداول الأمم صعودا وهبوطا ، يقظة وإغفاء .

وبالرغم من أن السيد جمال الدين الأفغانى قد دفع دعوى « رينان » ببطلانها على مرأى ومسمع من علماء « السربون » وفى مواجهته فى باريس ... وبالرغم من أن الأمم الحية مثل الأمة العربيـة هى التى تستيقظ من غفوتها ، فتـكون أقدر وأقوى على صنع الحياة ، وما تفرضه مطالب الحياة . فقد جازت دعوى « رينان » على أفهام بعض العرب والمسلمين بحـكم التخاذل الذى أصابهم فى عهود الاستعمار والتسلط فـكانوا يرددون هذه الدعوى الباطلة ويؤكدونها ، على قومهم وأهلهم من العرب والمسلمين فى غير وعى وإدراك .

الشرق العربى يقود العالم بالاسلام :

لقد قادت شعوب الشرق الاوسط العالم بالإسلام فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنسانى ، على مدى ألفى سنة على الأقل قبل اليونان ، ثم فى القرون الوسطى طوال أربعة قرون تقريبا . وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل البعيد أو القريب ، بشرط أن ينهضوا من كبوتهم ، ويعودوا إلى الأخذ بروح الإسلام وليس بحرفيته ، ويرفضوا ما انتحلوه عن الأمم الأخرى ، وخاصة الرومان والفرس من نظم الحـكم الطبقى . تلك النظم التى وسمت من الفروق الطبقية حتى انتهى الأمر بأهل الطبقة العليـا أن يعملوا على السيطرة على الطبقه الأدنى ، وبأهل الطبقة الأدنى أن يستنيموا القدر الذى أوحى إليهم بأنه من صنـع الله ، وما كان الله بظلام للعبيد .

الاسلام دين الفطرة :

والفطرة هنا ليست الفطرة القائمة على التوحش ، عندما عاش الإنسان فى حالة الطبيعة « حربا لـكل إنسان ضد كل إنسان » كما يرى « هوبز » . وليست حرية مطلقة ، حيث يتصرف الإنسان على أساس عقلى ، كما يرى « جون لوك[1] » ... وإنما الفطرة فى الإسلام تقوم على ما أثبتناه فى صدر هذا الفصل من أن الإسـلام رسالة عامة للناس أجمعين ، بلا تفريق بينهم من حيث الجنس أو اللون أو الوراثات الاجتماعية ، رسالة لا تفضيل فيها بين الناس . هى نذير للعالمين وذكر للناس أجمعين

---

(١) المرجع السابق ، صفحة ١٧٢ ، ١٧٣ .

ورحمة البشر ... رسالة ترسم لهم طريق الدنيا وطريق الآخرة . هي شريعة التنظيم المدني وهداية التعايش الاجتماعي ، وحدود مرسومة لحياة اجتماعية راقية .

إن الإسلام رسالة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فهي إذن جامعة، لأن فطرة البشر واحدة . ومن ثمة تكون رسالة الفطرة ، رسالة لمن تجمع بينهم فطرة واحدة وهذه « المسلمة » التي تستقر على قمة المسلمات أو البديهيات فسرت عدة تفسيرات جنح إليها رجال من المحافظين اعتقدوا خطأ أن تفسيرها ينبغي أن يكون رهنا على قول من قال من القدماء « كل جديد بدعة ، وكل بدعة في النار » وهو قول مستخرج من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونصه هو « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار[١] » . ومعنى ذلك أن الأحدوثة أو البدعة تختلف عن الجديد في العلم . ولكنهم أخذوا اللفظ (الجديد) على إطلاقه ورفضوا كل جديد ، حتى ولو كان قد تم التأكد من صدقه وثباته بمنهاج علمي دقيق ... بل قد يشتط بعضهم فيرفض الإنجازات التي حققها العلم مثل كروية الأرض ، وصعود الإنسان إلى القمر وأطفال الأنابيب، واستخدام الملاعق في تناول الطعام ، والتصوير الفوتوغرافي ... الخ . هؤلاء الذين قالوا إن المعنى المستفاد من عبادة « الإسلام دين الفطرة » إنما يرجع إلى أساس واحد ، وهو أن التفسيرات والنقول القديمة هي التي تعيد معنى الفطرة ، وأن الفطرة لا ولاية لها على التفسيرات والنقول . هذا التفسير الجامد لا يتفق ومعنى الفطرة ، ذلك أن الفطرة تتطور وتتقدم وتتجدد ، فإما أن نساير الفطرة، وإما أن نتخلف عن ملاحقة التطور الفطري . وإذن فخليقة الفطرة مناقضة تماما لذلك التفسير الموغل في الجمود . ومن هنا فإننا إذا أردنا مزيدا من البيان فإنه يجب علينا أن نفسر مضمون الفطـــرة من وجهة نظر الإسلام .

فالفطرة – كما نراها – من منظور اجتماعي إسلامي هي الحياة بكل سماتها الظاهرة والباطنة . ومن مقتضيات الحياة، التطور فهي ديناميكية بفطرتها ، بل إن من خصياتها الثابتة أن ترقى وأن تتقدم وأن تتجـدد ، فكأنما نقول إن الإسلام دين الحياة ،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان (انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني للشيخ عبد الرحمن البنا ج ١ ص ١٨٨ .

والحياة تتطور . وبالتالي يجب علينا كمسلمين أن نساير الحياة ، ونتطور معها تطوراً طبيعياً وعقلياً واجتماعياً . . . وإلا تطورت الحياة وتركتنا متخلفين عن ركب الحضارة ومن ثم نصبح حضيضاً وذنباً فى دنيا الناس .

ولكى لا نكون ذنباً فى دنيا الناس ، فمن الضرورى أن نأخذ بالكليات الإسلامية الاجتماعة قبل التفريعات . . . فما هى تلك الكليات ؟

الكليات الاجتماعية فى الاسلام :

وبجوار ذلك ينبغى لنا أن نوقن بأن « الفطرة » اصطلاح غير ذى حدود يتفق وصالح المجتمع فى جميع الأحوال ، ففى الفطرة : الذكاء والعقل والفضيلة ، كما أن فيها الشهوة والانفعال والاتفعال والرذيلة . ومن أجل ذلك شاءت حكمة الرسالة الاسلامية أن تكون للاسلام « كليات أو عموميات اجتماعية » تحكم الفطرة فى حدود تتسع لما يمكن أن يبلغه الانسان من تطور فى حالات حياته ، لهذا كانت هذه « الكليات أو العموميات الاجتماعية » على ما أدرك منها ثابتة لا تتزعزع ولا تتحول ولا تتحور، ولا ينتابها التخلف ولا التناقض ، كليات أو عموميات تتجه جملة وتفصيلا إلى خير الانسان ، وبالتالى خير الانسانية . ومن أهم هذه الكليات ، أو من أمثلتها :

(١) الاسلام من أجل الانسان :

إن أول هذه الكليات ، أن الاسلام قد جعل من أجل الانسان ، ولم يجعل الانسان من أجل الاسلام . ومن ثم فكل إصلاح اجتماعى أو تشريعى تقوم العلاقة المادية على أنه من صنع الانسان ، يكون بذلك من روح الاسلام . ذلك أن الاسلام لا يتصادم مع حقائق الحياة ، فرسالته إنسانية تقدمية ، ترفع الظلم وتطلب المصنع والطائرة والأقمار الصناعية وتقيم العمران ، وتدفع للعمل تحت الشمس ، وتطالبنا بالمزيد والمضاعفة للانتاج ، وتؤكد حق الانسان المسلم فى الحياة الكريمة . وحقه فى الحرية ، فإن الله تبارك وتعالى وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة .

والدين الاسلامى لكى يمنح الانسان حرية التفكير والتعبير والعمل المشروع ، وضع مبادىء ونظماً اقتصادية للعمل والتملك والانفاق . وقد عالجت هذه النظم مشكلة

الفقر فى المجتمع وقربت الفوارق ، وحققت الاكتفاء الذاتى ، وأدى تطبيقها إلى تحقيق التعاون والرخاء والإخاء بين أفراد المجتمع منذ أربعة عشر قرنا . ونحن لو طبقناها لسمت بنا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وأخلاقيا ، كما سمت بالآباء ومن قبلهم الأجداد . ولأغنتنا عما ينادى به البعض من نظم اقتصادية وسياسية مستوردة تتنافى مع مبادئنا وعقيدتنا . وينعدم فى دنياها الخوف من الله ، وينعدم بانعدام ذلك الصبر والأمن والعدالة والرحمة وحرية التفكير والتعبير ، وتجعل التملك للدولة ، وتحول بين الفرد وبين التملك ، حتى يعمل ويأكل مثل الحيوان ويقضى على نظام المواريث ويصب الناس بمقتضى ذلك فى قوالب متساوية ، مع أن الله لم يخلقهم متساويين فى أى شيء جسمانى أو عقلى اتفاقا مع قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون» (الزخرف ٣٢) وكذلك قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » (النحل ٧١) .

إن الإسلام الذى يزعم البعض أنه زمن مضى وانقضى والمجتمع متخلف من الحفاة العراة ... هو دين الحياة الاجتماعية من أدناها إلى أرقاها ... دين الحرية بمعناها الإسلامى وليس بمعناها الرأسمالى أو الاشتراكى ، حرية إسلامية تقوم على : حرية الاعتقاد « لا إكراه فى الدين » حرية العمل المشروع «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (التوبة ١٠٥) حرية الرأى والقول والاجتماع ، لأن كبت الآراء والزج بالناس فى السجون إنما هو ظلم يتنافى مع الأخلاقيات والحريات فى الاسلام لقوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» (البقرة ٤٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره » ومعنى ذلك أن حرية الرأى مكفولة فى ظلال المبادىء الإسلامية . فذلك عمر بن الخطاب يتقبل حرية الكلمة من رجل قال له : إتق الله يا عمر . وعندما احتج أحد الجالسين على ذلك بقوله : أتقول ذلك لأمير المؤمنين ؟ » قال عمر : « دعه فليقلها ، نعم ما قال . فلا خير فيكم إن لم تقولها ، ولا خير فينا ، إن لم نتقبلها نسمعها » .

(ب) الاسلام « روح » لا حروف مرصوصة :

وثانى هذه الكليات أو العموميات أن الإسلام « روح » وليس حروفا مرصوصة ، قبل أن يكون نقولا أو تفسيرات أو تأويلات . وروح الإسلام أنه هداية

للبشر فى معاشهم أولا ، ثم هداية لهم فى أخراهم من بعد ذلك . فمراعاة مصالح الناس فى أمور معاملاتهم من الجوانب الأساسية فى الدين الاسلامى . ولما كان للعرف والعادة والتقليد الاجتماعى اعتبار فى ابتناء الأحكام ولما كان المسلمون من كل فجاج الأرض مخاطبين بالشريعة : أصولها وفروعها ، وأن يطبقوا أحكامها على كل تصرفاتهم والتزاماتهم ، لزم أن يكون التشريع قد راعى مصالحهم رغم اختلاف أقاليمهم ، ومتأثرا بأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية .

والمصلحة الاجتماعية يراد بها فى لسان الشريعة الاسلامية جلب المنفعة ودفع المضرة فى حدود المحافظة على الشريعة . ولا يكون ذلك إلا لمزاول للشرع لها وصلاحيتها لترتيب الحكم على وفقها . والذى يتتبع الأحكام الاسلامية يجد أنها موضوعة لمصالح كما دل على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧) وأساس الرحمة جلب المنفعة ودفع المضرة ، وهى دائرة حول ذلك لا تتعداه . ولهذا فإن التشريع الاسلامى لوحظ فى أحكامه اليسر والبساطة ، كى لا يقع الناس فى ضيق وحرج ومشقة لقوله تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (الحج ٧٨) .

(جـ) الدنيويات المباحة المطابقة لروح الاسلام :

وثالث هذه الكليات أن الدنيويات المباحة المطابقة لروح الاسلام ، سابقة فى الأفضلية على الأخرويات ، فالدنيا سابقة على الآخرة ، والحياة سابقة على الموت . فالرسالة المحمدية كانت إتماما للنعمة ، لأنها تضمن لهم من الأسباب المادية والروحية ما يحققون به التعادل فى ذواتهم بين متطلبات الجسم ومقتضيات حاجاتهم المادية فى عالمهم الواقعى وبين متطلبات الروح والعقل من تحصيل المعارف الصحيحة والمعتقدات السليمة والتمسك بالقيم الانسانية والمبادىء الأخلاقية العالية . فإذا تحقق هذا التعادل والتوازن ، ولم يتغلب فى ذات الانسان أحد الجانبين على الآخر حصلوا على السعادة فى واقع حياتهم المادية وفى الشعور بحياة روحية تخلع عليهم من البهجة والاطمئنان ما يجعلهم دائما وأبدا فى نعيم مقيم وخير عميم . ومما يؤكد ذلك أن الله سخر للانسان كل ما فى الأرض ، إذ يقول سبحانه وتعالى فى آيات وسور متعددة من القرآن الكريم « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار » (إبراهيم ٣٢) ، ويقول تعالى شأنه « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » (إبراهيم ٣٣) ويقول

سبحانه وتعالى أيضا : « وسخر لكم الليل والنهار » (إبراهيم ٣٣) ويقول أيضا : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا » (النحل ١٤) ويقول جل شأنه: « ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض» (الحج ٦٥) ويقول عز من قائل : (ألم تر أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض » (لقمان ٣٠) .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد من على الإنسان بكل ما سخره له فى الآيات السابقات وجعله سيدا لهذه الكواكب والأقمار والنجوم ودواب الأرض وهوامها ، وما يلج فيها وما يخرج منها ، وما يعرج إلى السماء وما ينزل منها ، فالسبيل الوحيد لهذا التسخير هو أولا : التأمل فى هذا الكون ومعرفة السنن التى أودعها الله فيه ، والاهتداء إلى مفاتيح هذا الكون ومقاليده لإدارتها ، فإذا هو طائع، يمنح الإنسان العالم المفكر المتدبر خيراته ، كأنه حيوان أليف يتبع سيده ، ويلبى إشارته ولا يعصى ما يؤمر به ثانيا : فإذا أحسن التأمل ، وأطال النظر فى خفايا هذه الكائنات ومضامينها ، وأسلوب تطورها وتحللها وارتقائها وطريقة غدوها ورواحها واتصال بعضها بالبعض الآخر ، وتأثير بعضها على بعض ، زاد سلطانه عليها ونفعه منها ، وزاد قربى لربه الذى وعد عباده بالزيادة فى كل شىء فى قوله تبارك وتعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقد قلنا من قبل ، إن خير وسيلة لشكر الله هى التفكير فى نعمه ، أى فى أكوانه وبدائع مخلوقاته ، والسعى الحثيث للاهتداء إلى نواميسه والوقوف على قوانينه .

إذن ما دامت زيادة معرفة الإنسان لمخلوقاته تؤدى إلى زيادة سلطان الإنسان عليها بمقدار هذه الزيادة فى المعرفة . وما دام كل ما على الأرض وما فى باطنها وما حولها فى كل أرجاء الكون مسخر للانسان . وما دام الدين نعمة من تلك النعم، فإن الدين يصبح مسخرا للانسان ، وليس العكس .

(د) الرسالة الاسلامية رسالة الحرية :

ورابع هذه الكليات أو العموميات أن الرسالة الإسلامية هى رسالة الحرية والاستقلال والأخوة المطلقة فى حدود الشرائع والقوانين ، تطبيقا لقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن كفر بالطاغوت ويؤمن بالله

فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها والله سميع عليم » (البقرة ٢٥٦) وقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا » (الكهف ٢٩) والرسالة التي تبيح مثل هذه الحرية في العقيدة ، لاشك تفرضها على المسلمين وعلى غير المسلمين فرضا في المعيشة وفي الحكم وفي المعاملات ذلك أن الحرية ميراث للناس أجمعين ، وليست وقفا على دين أو شريعة أو مذهب أو جنس أو لون ... لاسيما وأن الإسلام يؤكد أن الإنسان حرا لتصرف حسب إرادته وعلى مسئوليته . وترتيبا على ذلك فقد منع المسلمون من فرض إرادتهم على غيرهم . بيد أن هذا لا يعني أن الإسلام ليس دين تبليغ ، فهو دين يستهدف الحق ، وهذا الحق يجب أن يظهر في الفكرة وفي الكلمة وفي العمل ، وهذه لا تكمل إلا إذا وصلت إلى كل نفس بشرية .

ومع أن القرآن الكريم يصف المسلمين بهذه الآية : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (آل عمران ١١٠) . إلا أنه يحرم عليهم استخدام القوة أو اللجوء إلى الإكراه . وحتى نبي الإسلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه لم يسلم من هذه القاعدة ، إذ خاطبه ربه قائلا: « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ ، وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » (الشورى ٤٨) ويقول له أيضاً : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس ٩٩) .

(هـ) مرونة الرسالة الاسلامية :

وخامس هذه الكليات أو العموميات أن الإسلام رسالة مرنه ، فيها طواعية لحاجات البشر في دنياهم، ثم إرشادهم في أخراهم. وفيها أساس ثابت للنشوء والارتقاء والتطور، ومسايرة مقتضيات الأحوال، ليظل الإسلام والآخذين برسالته بشرا أحرارا بالمعنى المفهوم من هذه الكليات التي سقنا القول فيها[1] .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقي : أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي ، دراسة مقارنة . دار المعارف بمصر ، القاهرة ص ٩٣ .

ذلك أن الإسلام يحدد الأهداف العليا ويضع القواعد الأساسية ويتناول المسائل الكلية . ويدع الجزئيات الاجتماعية وتطور الحياة والحضارة وظروف الزمان والمكان تتسع باتساع مدارك الإنسان وترتقى بارتقاء الحضارة والمدنية . فالإسلام دين كل عصر ودين كل مكان ، وقوانينه التى تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية جامعة شاملة قابلة للتفسير تفسيرا يتفق وحالة أى مجتمع . فالله تبارك وتعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة وكرمه بالعقل واللسان الناطق ، وختم رسله بخاتم الأنبياء الذى قدم بمبادىء تسمو بالغرائز وتوجهها إلى الخير وتزرع فى القلوب المحبة والإخاء . وزوده بنزعة التشارك فى السراء والضراء ، مع منح المرء حرية التفكير والتعبير والعمل المشروع . فيعمل العمل الصالح الذى يملأ قلبه بالراحة والطمأنينة ويسعده فى دنياه ويجعله يظفر بالنعيم فى أخراه . وصدق قول الله سبحانه وتعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد ٢٨) ويقول عز من قائل : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم » (المؤمنون ١١٥) ذلك أن الإنسان :

أولا : كرمه ربه بأن خلقه فى أحسن صورة وأحسن تقويم ، ولم يك أصله حيوانا من الحيوانات ذات السلسلة الفقرية العليا (قردا أو نسناسا) تحول بالنشوء والارتقاء إلى إنسان ، كما تزعم نظرية دارون التى يتشيع لها علماء الانتربولوجيا فى مصر والعالم ، والمبهورين بكل ما هو مستورد ، وإن كان هذا المستورد يحقر الإنسان ويزرى بشأنه ، وإن كانت لا تقره تعاليم السماء وشريعة الخلاق العليم القائل « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (الجاثية ١٨) كما أن الله سبحانه وتعالى يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » ويقول سبحانه وتعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (التين ٤) ويقول : « وصوركم فأحسن صوركم » (غافر ٦٤) ويقول أيضا « فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار ٨) ولا شك أن التكريم وحسن الصورة مما يتنافى مع صورة القرد وأغاط سلوكه .

وكذلك يخبرنا الحق تبارك وتعالى فى القرآن الكريم ، وهو أقدم المراجع الدقيقة على الإطلاق[1] بأنه خلق الإنسان أولا : نوعا مستقلا ، وليس متطورا عن نوع آخر

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : أسس علم السكان . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ .

من الحيوانات ـ كما زعم ـ دارون وأنصاره ، حيث يقول عز من قائل عن خلقه آدم « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (الحجر ٢٩) ويقول أيضا : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (المؤمنون ١٢) ويقول جل شأنه : « الذى أحسن كل شىء خلقه » (السجدة ٧) .

غير أن أصل النشأة مسألة غيبية لا يصل إليها الإنسان على أساس مناهج البحث العلمى الحديثة أى على أساس الحواس والملاحظة والتجربة أو بالعقل(١) . لأن الله تبارك وتعالى العالم بأصل النشأة ومبدأ الخلقة ، قد نفى عن الإنسان معرفة ذلك بقوله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف ٥١) وذلك بالرغم من أنه ـ كما هو معروف ـ أن الإنسان خلق كما خلق سائر الحيوان ، ومنها القرود وغيرها من تراب وماء مهين . ولكن الله ميز الإنسان على سائر الحيوان بالنطق وبالعقل المفكر . وهو بهذا العقل المفكر أصبح مكلفا بقيم ومبادىء وأخلاقيات . وأصبح مسئولا عما يفعل ـ بعكس الحيوانات ـ لقوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان . . . » (الأحزاب ٧٢) وقوله سبحانه وتعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى » (النجم ٤٥) وقوله جل شأنه : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجليه ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » (النور ٤٥) .

وهذا الإنسان إذا لم يعمل بما أنزل الله ، فإن الله قادر على أن يفعل به ، كما فعل ببنى إسرائيل إذ جعلهم كالقردة فى الذلة والمهانة ، إذ يقول سبحانه وتعالى شأنه عن اليهود : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (البقرة ٦٥) ويقول سبحانه وتعالى : « وجعل منهم القردة والخنازير . . . وعبد الطاغوت (المائدة ٦٠) ترى هل هؤلاء

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : قواعد البحث الاجتماعى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

القردة اليهود هم الذين يقصدهم دارون بنظريته القردية. وفوق كل هذا فإن من أسمى مميزات الشريعة الإسلامية أن تعاليمها ونصوصها تجمع بين البساطة والتعمق ، وهى تتمشى مع نشأة الحياة الفيزيقية ونشأة الحياة الاجتماعية ، ومع تطور هاتين الحياتين وهى تستطيع أن تحكم معاملات الناس وعلاقاتهم فيما بينهم مهما تطورت وتنوعت هذه المعاملات والعلاقات(١) .

(ز) الاسلام رسالة العلم والفكر :

وسابع هذه الكليات أو العموميات أن الإسلام رسالة العلم والفكر ، رسالة تفرق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وتجعل الولاية للذين يعلمون على الذين لا يعلمون ، رسالة المفكرين الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، أى يتفكرون فى عالمى الغيب والشهادة ، لقد كانت أولى كلمات الوحى التى صافحت قلب النبى عليه الصلاة والسلام دعوة صريحة للعلم والمعرفة على أساس الإيمان بالله العليم الحكيم ، فقد قال تعالى : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » (العلق) إن الإسلام يقوم على العلم ويحض عليه ويرفع من قدر أهله ، ومن طريقه تتحقق النهضة الإنسانية الشاملة فتنقشع ظلمات الجهل ، ويأخذ النور طريقه إلى الناس فتقوم بينهم دعائم الحق والكمال . ولقد كانت أولى كلمات الوحى دعوة إلى العلم ، تسكنو الدين الجديد الذى يقوم على أساسه باسم الله ، كانت « إقرأ » دعوة آمرة إلى طلب العلم والثقافة والفكر المستنير والبحث المستفيض فى السماء وفى الأرض وفى الجبال والبحار وفى كل ما خلق الله تعالى من كائنات صغرت أم كبرت ، إنها : إقرأ بإطلاق ، إنها إقرأ بدون تحديد ولا تقييد، اللهم إلا أن تكون باسم الله ويحث الإسلام على طلب العلم فيقول سبحانه وتعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فالمسلم مطالب بأن يتفقه فى دينه، وأن يأخذ بحظ وافر من العلم ، وفى سبيل ذلك ، عليه أن ينفر فى سبيل تلقى العلم ويتحمل المشاق ، وأن يرحل فى طلبه مستعذبا كل ألم ، مقبلا بنفس راضية مطمئنة .

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : المرأة بين الدين والمجتمع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٧ .

وطلب العلم فى الإسلام ليس من أجل العلم ، وإنما من أجل البشرية وفائدتها . ولقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا يؤكد أن طلب العلم ينبغى أن يعود على البشرية بالخير فقال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ... وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماءاً ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وخلاصة ذلك أن البشريه لم تعرف دينا مثل دين الإسلام ، دين يزكى الفؤاد ويضىء البصيرة ويدعوا لعقل إلى التفكير والتدبر والنظر فى آيات الله تعالى ، والخروج من الدائرة المحددة الضيقة إلى الرحاب الواسعة الفياضة ، كى يقف المسلم على آثار الله تعالى وعلى نعمائه . وهو مع ذلك يدعو إلى المعرفة الواعية الموصلة الإنسان إلى غايته التى يرتضيها وإلى الخالق القويم الذى يريده . ولعل عنايته بالعلم إنما جاءت بعد أن اكتمل العقل البشرى وبلغ ذروته وأصبح متهيأ لهذا النظر والتفكر . ولهذا فإننا نجد القرآن الكريم قد عاب على هؤلاء المشركين الذين « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » (الزخرف ٢٢) عاب عليهم تمسكهم بعقيدة آبائهم ، وعدم إفساحهم للعقل طريقا فى دنيا حياتهم كى يقفوا على آثار الله تعالى ونعمائه . كما عاب عليهم تمسكهم بالقديم وعدم تطلعهم إلى الجديد ، بل توعد هؤلاء الذين لم يستعملوا حواسهم وعقولهم استعمالا يوصلهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم كما جاء فى قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (الأعراف ١٧٩) ولعلنا نلمس شدة إنكار القرآن الكريم على هؤلاء الناس عدم استعمالهم عقولهم فى قوله تعالى : « ... أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ... » ... ولقد بلغ من شدة احتفاء القرآن الكريم بالعقل أن ذكره نيفا وأربعين مرة فى القرآن الكريم ، لأنه مدار التكاليف إذا اكتمل ، وبدونه تسقط التكاليف . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق ... » كما قال أحاديث أخرى كثيرة تفيد تكريم

الإسلام وبنى الإسلام للعقل . ولـكن هؤلاء الذين يوصفوا بالمحققين ، يقول أحدهم « أحاديث العقل – أى المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم – كلها كذب ، كقوله : « لما خلق الله العقل ، قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ ، وبك أعطى » .

وحديث « لـكل شيء معدن ومعدن التقوى قلوب العاقلين » وحديث « إن الرجل ليكون من أهل الجهاد وما يجزى إلا على قدر عقله » قال الخطيب : حدثنا الصورى قال : سمعت الحافظ عبد الغنى بن سعيد يقول : قال الدارقطنى : إن كتاب « العقل » وضعه أربعة : أولهم ميسرة بن عبد ربه ، ثم سرقه منه داود بن المحبر ، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة ، وسرقه عبد العزيز بن أبى رجاء ، فركبه بأسانيد أخر ، ثم سرقه سليمان ابن عيسى السجزى فأتى بأسانيد أخر » .

وقال أبو الفتح الأزدى : لا يصح فى العقل حديث ، قال أبو جعفر العقيلى ، وأبو حاتم ابن حبان والله أعلم ... الخ[1] . وبجوار « العقل » وأهميته فى الشريعة الإسلامية من وجهة النظر الاجتماعية والنفسية ، فقد ذكر العلم ثمانمائة وثمانون مرة .

ومن هنا فإن رسالة الإسلام ، هى رسالة لحرية الفكر ، هى رسالة تبيح الشك ، لا لمجرد الشك ، ولـكن ليكون الوسيلة إلى بلوغ الحقيقة على أى صورة كانت . ذلك أن دعوة الإسلام دعوة علمية أساسها التفكير والعقل . فلقد كان للنظرة الإسلامية إلى الحياة والكون أثرها العميق الفعال فى تاريخ الحضارة الإنسانية واتجاه سيرها فى جميع ميادين الحياة ، وعلى يد العرب والمسلمين . وعلى الأصح انتقلت العلوم الطبيعية – بالتفكير العربى وبأسلوب البحث الإسلامى – من المرحلة النظرية عند اليونان إلى المرحلة التجريبية ، وانتقلت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة واكتشاف القوانين ، بل إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن العلم هو الأساس الاعتقادى فى الإسلام فالعقيدة الإسلامية لا تتحصل للانسان بالتقليد والتلقى ، بل بالتفكير والنظر والفهم . وكثيرا ما نعى الإسلام وندد بأهل التقليد والتلقى الجامد ، ودعا إلى التفكير والنظر

---

(١) ابن قيم الجوزيه : المنار المنيف فى الصحيح والضعيف للامام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الحنبلى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزيه . تحقيق عبد الفتاح أبو غدة . مكتب المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٧٠ ؛ ص ٦٥ .

والفهم . وهذا هو الأساس العلمي لكل اتجاه من اتجاهات الحياة أو لكل فرع من فروع المعرفة .

ولقد ذهب بعض الناس — خطأ — إلى أن العلم الذى يدعو إليه الإسلام ، هو العلم الديني وحده ، بينما الإسلام لم يقتصر على جانبه الديني ، بل تناول العلم بأوسع معانيه . فدعا إلى التفكير فى خلق السموات والأرض . وحض الناس أن يسيروا فى الأرض ليروا كيف بدأ الله الخلق . واستثار المشاعر والألباب حينما دعا الناس أن ينظروا إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ... بل إن الإسلام جعل النظر والتفكير والدراسة الواعية لهذا الكون مدخلا إلى الإيمان بالله وسبيلا إلى إدراك قدرته وعظمته . فما من ذرة فى هذا الكون ، ولا ما هو أدنى ولا أكبر منها إلا وتشهد بوجوده وتسبح بحمده وتدل عليه ، ولكن لا تفهمون تسبيحهم . فكما أوضح القرآن منزلة العلم فقد أوضح ماهيته وأشكاله . فهو لم يقصره على علوم الشريعة وحدها ، وإنما جعله عاما ، ولكن بشرط ألا يخرج عن دائرة (إسم الله) التى أشارت إليه الآية الكريمة : « إقرأ باسم ربك ... » .

وعلى ذلك فلسنا فى حاجة إلى أن نسوق مزيدا من الأدلة والبراهين أكثر من ذلك على اهتمام الإسلام بالعلم وتكريم العلماء والاعتزاز بهم وبعلمهم فلقد جاءت آيات القرآن الكريم تحث على العلم وتوضح مكانته فى مواضع كثيرة ، فالله سبحانه وتعالى يذكر أولى العلم بعد الملائكة تنويها بشرفهم وفضلهم فيقول « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (آل عمران ١٨) وقد بين رفعة أو درجة العلماء بقوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١) كما بين أن العلماء هم الذين يخشون ربهم ويتقونه حق تقواه « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والعلم لا يتحقق إلا بالعقل ، ولكن هؤلاء المحققين ضعفوا كل أحاديث العقل ، والنتيجة أصبح العقل بمقتضى ذلك فى المرتبة الثانية من الاهتمام بعد الانفعالات . ومن هنا حدث التخلف للمسلمين ، وباتوا متطفلين على موائد العلم يتلقون فتاته بعد أن كانوا سادة فى العلم وفى الدين . يحدث ذلك بالرغم من المعانى الصريحة فى القرآن يرفع الله للذين أوتوا العلم درجات ، وبرغم قوله صلى الله عليه وسلم إن العلم هو ميراث الأنبياء ، وأن شرف طلب العلم

لا يطاوله شرف . فالملائكة تضع أجنحتها له رضا بما يصنع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقا يطلب منه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وأن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، وإنما ورثوا العلم فمن آخذه ، أخذه بحظ وافر » ... الخ وهكذا فإن الإسلام قد رغب فى العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة . وبهذا تتضح لنا منزلة العلم فى الإسلام ، فضلا عن منزلة العقل باعتباره الوسيلة الأساسية إلى العلم .

(ح) العدل أساس الحكم والتقاضى :

وثامن هذه الكليات أو العموميات أن تكون التقوى أساس المعاملة والتقويم، والعدل أساس الحكم والتقاضى . فلقد أقرت رسالة الإسلام بهذا كل ما يدرك الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين حضاراتهم من مفهوم القانون مسايرا لحاجات الناس فى معاشهم واطمئنانهم إلى أمور دنياهم . وأنهم أحرار فى ظل شريعة حرة ، لها قيد واحد ، هو الصالح العام للانسان وللانسانية . وقد وصف المؤرخ العربى المسيحى المعاصر الدكتور (فيليب حتى) الإسلام بأنه حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء . إذ يعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة . وتربطهم قواعد الإسلام بروابط المحبة والأخوة ، وأضافوا إلى ذلك أيضاً « أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية أن تكون المواريث فى الشرق العربى هى نفس المواريث التى قررها الإسلام ، فأذنت السلطات بهذا » .

تلك هى الكليات الأساسية التى تشكل النظام الاجتماعى للاسلام ، ولا ريب أن للاسلام كليات أخرى تأتى بعد هذه فى الترتيب . وهذه الكليات وجزئياتها فروض معلقة فى رقبة كل مسلم ، هى : فروض من يرعاها مسلم ، ومن يشذ عنها متخلف . وأزيد إلى ذلك أن الحقوق المترتبة على هذه الكليات مشاع لكل مواطن ، مسلما كان أو غير مسلم . على اعتبار أن الرسالة الإسلامية رسالة المساواة فى الحقوق .

وبالتالى فإذا ذهبنا إلى أن الإنسان قد جعل من أجل الإسلام، لم نصبح مسلمين.

وإذا ذهبنا إلى أن الإسلام نقول وتفسيرات وتأويلات ، انقلبنا جامدين .

وإذا قلنا إن الأخرويات مفضلة على الدنيويات تخلفنا عن ركب الحضارة ، وانحدرنا وانحدر معنا الإسلام إلى حيث لا تكون شيئاً .

وإذا نزعنا نزعة الجمود فى الفكر والعمل انفصلنا عما فى الإسلام من مرونة وطواعية لمقتضى الحياة ومقتضى الحضارة .

وإذا جنحنا إلى الكهانات والرهبانيات والتصوف والباطنية ، وكلها من مظاهر الجمود والتخلف قضينا على كليات الإسلام قضاء مبرما ، ونسخناها نسخا .

وإذا وزنا العدل بميزانين وكلناه بكيلين، أو فرقنا بين الناس لعقائدهم أو ألوانهم أو أجيالهم . . . انحرفنا عن رسالة الإسلام فى أخص أصولها .

جزئيات النظام الاجتماعى الاسلامى :

وعلى أساس هذه الكليات أو العموميات تتفرع الجزئيات . ولعل الخطأ الذى وقع فيه المسلمون ، وجروا معهم الإسلام إلى حيث انحدروا ، أنهم تمسكوا بالجزئيات ونسوا الكليات ، أخذوا بالفروع وتركوا الأصول ، جمدوا عند الأقوال والمذاهب والتأويلات وتغاضوا عن أن الإسلام كليات جامعة وأن هذه الكليات ، هى التى ينبغى أن تكون لها الولاية العليا على الأقوال والمذاهب والنقول ، وأنها السابقة وليست المسبوقة ، هى الأصول وما عداها الفروع .

الكليات هى الأساس الثابت الذى تقوم عليه رسالة الإسلام ، لا تبديل فيها ولا تغيير ، لا مماحكة فيها ولا اختلاف ، لا تضاد فيها ولا تناقض . هى التى تحكم على صحة الأقوال والمذاهب والآراء والتفسيرات والتأويلات . هى الكل وغيرها الجزء ، هى الأصل وغيرها التفاريع ، هى الجزع وغيرها الأغصان .

ومن أجل أن يظل الإسلام خادما للانسان ، ينبغى أن يقاس مافى المذاهب والنقول وغيرها على هذه الكليات . أما العكس فليس من روح الإسلام فى قليل أو كثير . ومن أجل أن نفهم الإسلام على حقيقته ، يجب علينا أن نعى دائما أن الإسلام قد جعل من أجل الإنسان ولم يجعل الانسان من أجل الإسلام . إذ ليس فى القرآن الكريم آية واحدة تدل على أن الدين يرسم للانسان خطوط الفكر ، ولكن روحه وكلياته جميعها تشير إلى أن الانسان هو الذى يرسم للجزئيات طريق التطور . ومن أبين ما فى الرسالة الإسلامية من حق ثابت واضح صريح ، أن فى مستطاع الانسان أن يفكر لنفسه . وأن فى ميسوره عن طريق الفكر أن يصل إلى

الحقيقة ، وأن يعرف الحل . مصداقا لقول عيسى بن مريم عليه السلام « إنما جعل السبت من أجل الانسان ، لا الانسان من أجل السبت .

وقد أعطانا الاسلام مثالا على أهمية التطور الفكرى والاجتماعى لنصل إلى القوانين الضابطة والحاكمة لهذا الكون ومخلوقاته من أحياء وجمادات . فالحرارة والبرودة ، والصلابة والسيولة ، والتمدد والانكماش ... ليست إلا مظاهر لهذا التطور وصوره . ومن ثم فإن التأثر بقانون التطور والتأمل منه، هو الذى قاد خطى الإنسان إلى كشف أكبر القوانين العلمية حقا وصدقا ، هو قانون التوحيد ، إذ لولا معرفة الإنسان أن لهذه الأكوان جميعا إلها واحدا ، وأن له قانونا واحدا ثابتا لا يتغير ، مهما تغير الزمان والمكان ، فى القديم والحديث . فى جميع القارات وكل المحيطات ، لبقى الإنسان عبداً وأسيراً للخرافة والشعوذة ، وللذين يتسلطون على عقول الناس ونفوسهم بما يثيرونه فى تلك العقول والنفوس ، من مخاوف باطلة ، وأوهام زائفة ، بفضل إتقانهم لترويج الخرافات واستثمار أساليب الشعوذة ... الخ .

ولقد روى القرآن الكريم لنا نموذجا لاهتداء الإنسان إلى القانون الأسمى ، وهو قانون التوحيد ، باهتداء إلى قانون التطور . وذلك فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل ، رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين : فلما رأى القمر بازغا ، قال : هذا ربى فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر . فلما أفلت، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (الأنعام ٧٥) .

وهذه الآيات التى بدأت بقوله تعالى: « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض .. » أى أن اهتداء إبراهيم عليه السلام ، بدأ بالنظر فى السموات والأرض، فلم يصل إلى الإيمان بالله والاهتداء إلى خالق الأكوان الأكبر، إلا بتأمل ظواهر الكون المتطورة والمتغيرة ، وإجراء المقارنة بين النجم اللامع، والقمر الساطع والشمس البازغة ... ثم تبينه أن هذه الأجرام جميعا تختفى . ولم يتفتح ذهنه إلى استنباط الحقيقة المستفادة من ظهور هذه الأجرام واختفائها ، من تباين أحجامها

واختلاف نصيب كل منها من الضوء إلا بعد أن تدرب على منهاج استنباط الحقائق ، من تأكل كل ما حوله .

ولقد روى لنا القرآن الكريم هذا المثال، ليرينا أن ملكوت السموات والأرض هو سنة صالحة وأن عاقبتها هي الوصول إلى أكبر الحقائق ، التي حينما تمتلىء نفس الإنسان بها يتحرر من الخوف الذي هو الحائل الأكبر دون رقي الإنسان، واستزادته من القوة والمنعة والسيادة والخوف من مظاهر الطبيعة المجهولة والخوف من الإنسان الآخر حاكما كان أو كاهنا لينطلق من أسر الأكاذيب الشائعة التي ترتقي باطلا إلى مستوى الحقيقة، وتأخذ مكانها في بعض الأحيان، ومن أسر المتسلطين الذين يكسبون من استبقاء الجهال في الجهل ، والضعفاء في الضعف والفقراء في الفقر .

تلك هي الفوائد التي يجنيها الإنسان في مجال العقل ، من الاهتداء إلى قانون التطور أما خيرات الاهتداء إلى هذا القانون ، الروحية أو الخلقية ، فهي كشف أثر تطور حياة الإنسان الاجتماعية ، وطواعية الأنظمة الاجتماعية ، والأحوال البشرية للتطور والتغير . وواجب الإنسان حول دفع كل نقص وعيب وقصور وظلم في مجتمع الإنسان ليكون أفضل وأحسن وأعدل وأسلم .

وعلى ذلك فلا خوف من الأخذ بالتطور الاجتماعي للنظم الاجتماعية مع تخليصها من كل ما يتعارض مع الإسلام، بصرف النظر عن رأى أسرى النقول في التمسك بكل ما هو قديم ، واعتبار كل جديد بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

تلك وجهة نظرنا ، أو هي وجهة نظر مسلم متخصص في علم الاجتماع ، درس التطور الاجتماعي ، وتخصص فيه بعد أن آمن بالتغير الاجتماعي ، كما آمن بأن الطفرة محال . غير أن الطفرة إذا كانت محالا في عالم الأحياء الطبيعي ، فإن من شأن المجتمعات الإنسانية أن تتخلف عن التطور الطبيعي فيسبقها الزمن . فإذا تحركت ظهر للأعين خطأ ، أنها تطفر، وأنها تسير في طريق الخطأ. كلا فمثل هذه الحركات إنما هي وثبات طبيعية تحاول المجتمعات الآخذة في النمو أن تصل عن طريقها إلى نصيبها الطبيعي من الارتقاء ، أو أنها لم تصد عن التطور بموانع اصطناعية . ومن هنا كان القول بأن وثبات المجتمع نحو حالات من الحياة أفضل ، أو إشباع مطامع لها أرحب وأوسع، ليس فيها من الطفرة إلا بقدر ما يجهل الكثيرون من طبيعة التحول الخفي في نفسية

الجماعات حتى إذا تهيأ الظرف وظهرت شخصية ذلك القائد الذى ينعته المؤرخ «توينبى» بأنه الزعيم المؤمن — أو — الكاريزما — Charisma — لابس الوثبة الاجتماعية ضرب من التسارع يخيل إلينا أنه طفرة . والطفرة إن كانت محالا ، فإن وثبة كل مجتمع لايمكن بحال أن تتعدى حدود احتماله وسعته الخلقية والاقتصادية وقدراته المعنوية . وهذه جميعا من عوامل الموازنة بين قوة الوثبة وقدرة الاحتمال فى كل مجتمع . وإذن فكل ما يظهر فى تحول المجتمع بمظهر الطفرة ، لابد من أن يختفى من ورائه عوامل تطورية تظل تعمل مستخفية زمانا بعد مان وجيلا بعد جيل حتى تكتمل كل الهيئات لإبرازها إلى حيز الواقع . وهناك تعجز كل القوى عن أن تقف فى طريقها .

هذا ما يخيل إلى أنه التفسير الصحيح لكل وثبة اجتماعية ، بل أكاد أؤمن بأنه التعليل الطبيعى لكل تطور اجتماعى ، أو تجوزا ، لكل طفرة اجتماعية ، والإسلام بنصه وروحه وتاريخ أئمته وهداته والمبادىء التى كانت مدار التطور الفكرى على مر عصوره ، يتفق تماما مع مسايرة الفطرة الإنسانية . وبخاصة فطرة المجتمع ، إذا ما ألحت عليه ضرورات التحول من حالة قائمة إلى حالة يشعر بضرورة قيامها .

رقم الإيداع ٢٨٩٨ / ١٩٨٤


مطبعة السعادة
ت ٩٠٧٣٧٩
س ت ١١٩٩٧٠